

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الرَّفْعِيُّ
مُؤَرِّخُ مِصْرَ الْحَدِيثَةِ

بهاء الدين محمد علوان



اعلام العرب
(١٢٧)

عبد الرحمن الرافعي مؤرخ مصر الحديثة

تأليف
برهان الدين محمد علوان



الهيئة العامة للكتاب

١٩٨٧

سيرة وحياة

عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعى (١٨٨٩ - ١٩٦٦) -
مؤرخ مصر الحديثة احدى الشخصيات النادرة فى تاريخنا
المعاصر .. المناضلة من أجل مبادئها واتجاهاتها الوطنية ، التى
تشربت أصولها من منابع أصيلة .. وفى مقدمتها تلمذة صاحبها
على الزعيم الشاب مصطفى كامل حيث شغف بمبادئه وجهاده
من أجل مصر عشقا .. وزادها رسوخا بعد ذلك اقترابه من
الزعيم محمد فريد .

وتحجب الأعمال الكثيرة فى تاريخ مصر الحديثة التى قدمها
المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى للمكتبة العربية طوال نصف
قرن تقريبا ، حياة صاحبها العصامية التى كونت اسمه والتى
تعد قصة متصلة الحلقات ، تعكس بدقة أصالة الانسان المصرى

ومقاومته لكل عوامل الأحباط التي تريد أن تلزمه في مكانه ،
وهذه الحياة لا تقل أهمية عن دراسات صاحبها الكثيرة التي لم
يقم بها أحد مثله •

أسرته :

ولد عبد الرحمن الرافعى فى بيئة دينية فأبوه هو الشيخ
عبد اللطيف الرافعى « هو ابن الشيخ مصطفى الرافعى بن الشيخ
عبد القادر الرافعى • والأخير هو أول من لقب بلقب « الرافعى »
فى طرابلس ، ولقبهم الأول هو « البيسار » به تلقب والد الشيخ
عبد القادر واسمه الشيخ عبد اللطيف البيسار بن الشيخ عمر
البيسار • وينتهى نسبه الى ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب
رضى الله عنه « (١) • جاء أجداده الى مصر ابان الفتح الاسلامى •
وتتبع لهذه البيئة والنسب دخل الأب الأزهر الذى كان له فى
ذلك الحين - أواسط القرن الثامن عشر - قمتة المرموقة العالية
فى الحياة المصرية بوصفه معقل الاسلام وحامى حمى الدين ،
مما أدى الى هيمنة خريجيه على جميع المناصب الدينية من خطباء
المساجد الى أرقى المناصب بالقضاء الشرعى والافتاء •

وعندما يتخرج الشيخ عبد اللطيف من الأزهر عام ١٨٧٧
يتولى عدة مناصب هامة فى القضاء ، فيشغل وظيفة قاضى
المحاكم الشرعية بمحافظة البحيرة سنة ١٨٨٩ ، فعوضوا بمحكمة
مصر الشرعية سنة ١٨٩٧ ، فمفتيا لمدينة الاسكندرية سنة ١٨٩٨

الى أن أحيل للمعاش في سنة ١٩٠٩ • ويختار الأب الاسكندرية
التي تعد من أهدأ البلاد مستقرا له ، ولا يرحها الا مضطرا في
أواخر حياته عندما يلم به المرض فينتقل الى القاهرة ويتوفى بها
في ٢٤ يناير ١٩١٨ (٢) •

ومن الطريف أن عبد الرحمن الرافعي في مذكراته لم يبدأ
كتابته عن أسرته بالحديث عن الأب كما تجري العادة ، بل
قدم عليه أمه وتاريخ أسرتها وأشاد بها كثيرا على الرغم من أنها
توفيت وهو في سن الرابعة تقريبا • مما يمكن أن يلقي انطبعا
بقسوة الأب مثلا (الذي تزوج مرتين بعد وفاة أمه وعاش
معهما) •

أن الأحداث التي تمر بالطفل مع قلتها وبساطتها هي التي تحدد
مستقبل حياته وتضعه بين أيه أو أمه في المكان الذي تدفع اليه
حقيقة علاقات والديه به ، ولا شك أن مؤرخنا قد تأثر تأثرا
كثيرا بأمه السيدة حميدة محمود رضوان المعايرجي القاهرية
المولدة التي توفيت في ٢١ يولية سنة ١٨٩٣ • وكان كثير الحديث
عنها والاشارة اليها وظل يذكر أثرها في وجدانه حتى وفاته ،
والسبب أنه أخذ عنها كما يقول الكثير من الصفات من الايمان
بالله والثقة بالناس ومساعدتهم (٣) • وقد آل اليه من أرث أمه
قدر ضئيل من الأفدنة التي ورثتها هي أيضا عن أبيها الذي
كان يعمل كاتباً بدائرة إقليمية الملكية •

ونقد كان من أهم المؤثرات الاجتماعية في نهاية القرن التاسع عشر على الوجدان المصرى ، التمسك الشديد بالدين وتعاليمه . . . يصوره أحمد أمين - الذى يكبر الرافعى بثلاث سنوات - فى أحد كتبه بقوله : « ويغمر البيت الشعور الدينى ، فأبى يؤدى الصلوات لأوقاتها ، ويكثر من قراءة القرآن صباحا ومساء ، ويصحو مع الفجر ليصلى ويبتهل ، ويكثر من قراءة التفسير والحديث ، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفها ، ويحكى حكايات الصالحين وأعمالهم وعبادتهم ، ويؤدى الزكاة يؤثر بها أقرباءه ، ويحج وتحج أمى معه - ثم هو يربى أولاده تربية دينية ، فيوقظهم فى الفجر ليصلوا ويراقبهم فى أوقات الصلاة الأخرى ، ويسألهم متى صلوا وأين صلوا . وأمى كانت تصلى الحين بعد الحين - وكلنا يحتفل برمضان ويصومه - وعلى الجملة فأتت اذا فتحت باب بيتنا شمنت رائحة الدين ساطعة زكية » (٤) .

وهكذا كان الشيخ عبد اللطيف الرافعى يعطى اهتماما كبيرا لتعليم صغاره ، وتربيتهم تربية دينية ، فعلمهم قراءة القرآن وأداء الصلاة فى موعدها خاصة فى المساجد التى يرتادها ، بالإضافة الى صيامهم فى سن مبكرة . وقد أثر هذا كله فى ارهاف أحاسيس الطفل الصغير الذى لا يلبث أن يدخل كتاب الشيخ هلال بشارع درب الحصر بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة بجوار منزل جده لأمه حيث والديه ، وتعلم فيه القراءة والكتابة

والحساب • وعندما انتقل مع أبيه الى الزقازيق في سن السادسة دخل مدرستها الابتدائية الأميرية سنة ١٨٩٥ ثم مدرسة القرية الابتدائية بالقاهرة سنة ١٨٩٧ • وعندما عمل والده مفتيا للاسكندرية سنة ١٨٩٨ دخل مدرسة رأس الثين الابتدائية • ولم تكن الحارة بالنسبة الى ابن الشيخ مكانا ملائما - لطفلين في سن عبد الرحمن الرافعى وأخيه أمين - فنراه يلعب مع أخيه أمين في دارهما بالاسكندرية • « وأذكر أن أحد أقرانى بالمدرسة حين علم بالنبأ (النجاح بالشهادة الابتدائية) - وكنت أجهله - سارع الى الحضور لمنزل والدى بالأفوشى ليبشرنى بالنجاح ، فألفانى في حديقة المنزل الصغيرة يجرنى أخى أمين في قفص من الجريد جعلنا منه شبه عربة صغيرة تتناوب ركوبها وجرها بحبل » (٥) • ثم يلتحق الرافعى بالقسم الثانوى من نفس المدرسة واختار اللغة الفرنسية أساسا لدراسته الى أن حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) في مايو سنة ١٩٠٤ وكان ترتيبه الثالث من بين الناجحين وعددهم ١٣٦ طالبا •

ولكن عبد الرحمن لا يلبث أن تتلاشى فرحته بالنجاح وأبوه يريد منه أن يلتحق بالأزهر كما فعل هو قبله ، بينما كان هو قد أعد نفسه ليقيم أوراقه في مدرسة الحقوق • وقد صدم إعلان الأبن تمسكه بالحقوق الأب الشيخ فقد كره لولده ليس رفضه للتتلمذ على التعاليم الشرعية فحسب ، بل أن ينتمى الى هذه المهنة - المحاماة - التى يكثر بين رجالها الدجل والاحتيال.

والذين كانوا في ذلك الوقت يعدون سبة في المجتمع المصري !
وكادت الأزمة الشديدة أن تعصف بمستقبل عبد الرحمن ازاء
اصرار أبيه على موقفه ، لولا أنه استعان ببعض اقاربه في الأمر •
وأقنع الشيخ بعد لأي •• وكانت الحجة الوجيهة ، اذا كان
حقا يريد لفظة كبده التعليم الدينى ، فلماذا أدخله أصلا المدارس
المدنية ؟ ! والتحق عبد الرحمن الرافعى بكلية الحقوق أو مدرسة
الحقوق الخديوية بالقاهرة كما كانت تدعى أيامها •

وتشكل الدراسة العالية في حياة الرافعى مرحلة شديدة
الأهمية ، اذ كانت بمثابة الخطوة الأولى في حياته العامة وتفكيره
الوطنى ، بعد أن مس هذا التفكير مسا رقيقا في مدرسته
الثانوية أحد مدرسيه الوطنيين •

وكان العامل الثانى الذى الهب فتانا الهادىء هو كتابات
مصطفى كامل الوطنية •• فهفت نفس الرافعى الى كفاح صاحبها
وآرائه التى كان ينشرها بجريدة « اللواء » ويسجل الرافعى في
مذكراته التقاءه الأول بالزعيم الشاب •• « أما أول مرة قابلت
فيها (مصطفى كامل) ففى فبراير سنة ١٩٠٦ ، أثناء اضراب طلبة
الحقوق ، فقد تآقت نفسى الى رؤيته ، وكان (اللواء) يناصر
الطلبة في مطالبهم الحققة ، فذهبت مع لفيف من زملائى الى دار
اللواء بشارع الدواوين - نوبار باشا الآن - تجاه وزارة
العدل وكان اسمها وزارة الحقانية ، وقابلت الزعيم لأول مرة ،

وسمعت حديثه ، وشعرت بتأثيره الروحي ينفذ الى أعماق قلبي ، وصار لي بمثابة أبي الروحي في المبادئ ، وأكثر من التردد على دار اللواء لكي اقابله وأراه وأسمع صوته ، فكان يفيض علينا من الأحاديث التي غرست في نفسي مبادئ الوطنية « (٦) » .

والعامل الثالث الذي شارك في تكوين شخصية عبد الرحمن الرافعي هو دراسته للقوانين الفرنسية التي أثاره ما فيها من تعظيم للحرية وكرامة المواطن ، والفارق الكبير بينها وبين ما يجد من دكتاتورية الاحتلال الانجليزي . ولقد كانت فرنسا اذ ذاك هي قبلة المناضلين في مصر والعالم ، ولما كانت الديمقراطية الفرنسية قد استهوتته ، فقد تأثر بها وهو يكتب مقالاته في « اللواء » و « الشعب » و « العلم » عن الديمقراطية والتعاون والجمعيات الوطنية ، مستوحيا تجارب الدول ذات العراقة الديمقراطية وعلى رأسها فرنسا . مما انعكس في كتبه الثلاثة الأولى « حقوق الشعب » و « ثوابت التعاون الزراعي » و « الجمعيات الوطنية » التي أصدرها في فجر اشتغاله بالصحافة والكتابة .

أخوته :

يعد عبد الرحمن الرافعي الثالث بين أخوته الأربعة الأشقاء، فأكبرهم أحمد الذي درس بالجامع الأزهر حيث اهتم بالشعر

والأدب ومات أبان دراسته سنة ١٩٠٣ ، ثم أخوه أمين المحامى
وأحمد نوابغ الصحفيين فى بداية القرن العشرين الذى ولد
سنة ١٨٨٦ وتوفى سنة ١٩٢٧ ، والأخ الأصغر إبراهيم أول
خريجى مدرسة المهندسخانة سنة ١٩١٣ الذى توفى بالتيفوئيد
سنة ١٩١٥ أبان عمله مهندسا بتفتيش رى الفيوم •

والغريب أن قارىء مذكرات مؤرخنا التى ظهرت سنة ١٩٥٢
لا يجد بها أية إشارة الى أخوته غير الأشقاء ، ويروى المستشار
حلمى شاهين انهم عديدون وقيمون حاليا فى كفر الدوار وكان
الرافعى دائم الاتصال بهم حتى وفاته (٧) •

أمين الرافعى :

تشابكت أيدي الشقيقين أمين وعبد الرحمن وتلازمت
أمرهما دوما فى مسار حياتهما حتى أن مدرسة الحقوق جمعت
أيضا بينهما ، بالرغم من أن عبد الرحمن الأخ الأصغر قد تخرج
قبله فى يونية سنة ١٩٠٨ ولحق به أمين فى صيف العام التالى •
وقد كانت مبادئ مصطفى كامل سبيلهما فى الفكر والاتجاه
الوطنى ، فاتصلا بجريدة « اللواء » قبل تخرجهما حتى ملكت
الصحافة عقل أمين ، ولأول مرة يقيم عبد الرحمن أخاه فى مقدمة
كتاب صبرى أبو المجد عن أمين الرافعى بقوله : « أن أميننا لم
يكن أخى فحسب بل أن منزلته كمجاهد فى الحركة القومية
تعلو فى نفسى على منزلته كأخ أكبر لى ، ولولا ذلك لما شعرت

نحوه بهذا الحب العميق الذى كان يغمرنى فى حياته واستمر على الأعوام بعد وفاته .. ولقد كان أمين — رحمه الله — من أعلام صحافة المبدأ والعقيدة .. حمل رسالة الوطنية فى عصر كانت الظروف والملابسات تناهضها وتخذلها ولا تبشر لها بأى نجاح ، خاصم الاحتلال وهو فى أوج جبروته وطغيانه ، وخاصم القصر حين كان قويا بتحالفه مع الاحتلال ، وخاصم سياسة الاستسلام للاستعمار حين كانت هذه السياسة ثابتة الدعائم قوية الأركان ينضوى اليها الأفراد والجماعات ويتهافت عليها الانصار والأعوان .. جاهد أمين فى هذا الجو الملىء بالأشواك والعقبات ، فاستهدف لكثير من الأذى والعنف والتخذلان ، ولم يهن ولم يتراجع ولم يتحول عن مبدئه وعقيدته ، واستمر ماضيا فى سبيله حتى وافاه الأجل المحتوم فى الواحد والأربعين من عمره » (٨) •

ولما كان عبد الرحمن قد اتجه عقب تخرجه بثلاثة شهور للعمل بجريدة « اللواء » فى أكتوبر سنة ١٩٠٨ فقد واجه أمين مشكلة عقب تخرجه سنة ١٩٠٩ • كيف يحقق مراده فى العمل بالصحافة التى يهواها وملكته عليه فؤاده ، والصحافة الوطنية فى هذه الفترة لا مصدر لها • وكيف يعمل الشقيقان معا فى مجال لا مورد له • فاتجها سويا الى والدهما الشيخ عبد اللطيف مفتى الاسكندرية ، أو كما يروى صبرى أبو المجد « فقد احتكم الاخوان الشقيقان الى والدهما فى هذا الخلاف الذى شجر

بينهما لأول مرة وقرر الوالد بعد فترة من الدراسة أن يعمل أحد الشقيقين في المحاماة ليساعد الآخر ماليا • وان يعمل الآخر في الصحافة ويتقبل مساعدة أخيه • واستقر الرأي على أن تكون المحاماة من نصيب عبد الرحمن • وأن تكون الصحافة من نصيب أمين الذى لم يكن له مرتب في « اللواء » ولا في « الشعب » حتى بعد أن صار رئيسا للتحرير بل كان كل الذى يتقاضاه كمحرر اثني عشر جنيها كبدل انتقال » (٩) •

والغريب أن عبد الرحمن الرافعى لم يشر الى هذه الواقعة التى ألت بمسار حياته بل أشار في مذكراته الى واقعة أخرى مفادها أن صديقه أحمد وجدى طلب منه في أواخر سنة ١٩٠٩ أن يشتركا سويا في افتتاح مكتب للمحاماة بالقازيق على أن تستمر صلتهم بالكتابة في الصحافة فوافقه على ذلك • • « وقد ترددت في قبول هذه الفكرة إذ كنت منصرفا عنها ، ومازال يقنعنى بها حتى قبلت نصيحته بعد أن أمعنت النظر فيها ورأيتها في جملتها أصوب من انقطاعي للصحافة ، وأدركت مع الزمن أنه أسدى لى أعظم نصيحة » (١٠) •

وقد استمر عبد الرحمن في مساعدة أخيه حتى بعد وفاته ، وواصلها في رعاية أولاده بالرغم من زواج أرملة أمين من أحد الضباط • وتولى رعاية ابنته التى كانت تدرس بمدارس الزقازيق الداخلية • • يروى صديقه وتلميذه محمد ابراهيم جمعة مدير السكرتارية بمدارس ليسيه الحرية بباب اللوق بالقاهرة

أن عبد الرحمن استمر في هذا السلوك حتى سنة ١٩٥٢ حيث قرر بيع امتياز جريدة « الأخبار » التي أنشأها أمين إلى الأخوين علي ومصطفى أمين على أن تدفع دار أخبار اليوم مكافأة شهرية لأبناء أمين قدرها عشرة جنيهاً مدى الحياة (١١) .

زوجته :

وكادت اهتمامات عبد الرحمن الوطنية تنسيه حياته الشخصية وزواجه ، وبالرغم من أنه عرف الحب وكان عذريا إلا أنه لم ينته به النهاية السعيدة ! « ولقد أحببت حبا عاطفيا روحانيا ، ولكنني أدركت مع الأيام أن الحب أمر متعب لا لزوم له ولا فائدة منه ... فتخلصت منه ، وكان للحياء دخل في نهايته ، كما له أثره في بدايته ، وتعلمت من هذه التجربة أن من الخير للإنسان أن يشد الحب العائلي - أي الحب بين الزوجين - الحب الهادي المعتدل المتصل ، فانه من أركان السعادة في هذه الحياة » (١٢) .

ووجد صاحبنا أن أنسب فتاة يمكن أن يختارها للزواج ، لابد أن تكون من أحب الناس إليه وهم أخواله (ولعل هذا دليل آخر على حبه العميق لأمه) الذين كانوا هم أيضا يبادلونه حبا بحب . وهكذا يتزوج في ١٢ مارس سنة ١٩٢٠ من ابنة خاله الآنسة عائشة محمد المعايرجي ، فكانت له نعم الزوجة ورفيقة الحياة . ومن الطريف أن كان للوطنية دخل أيضا في

هذا الاختيار • يشير الراقى الى اختيار زوجته بقوله : « وكان بحبى لأمى - وقد توفيت وأنا صغير السن وعشت بعدها يتيما من الأم (ومعدرة للغويين عن هذا التعبير) - قد مال بى مبدئيا الى أقرب البيئات اليها • فلما شبت ثورة ١٩١٩ ، كنت فى زيارتى لعائلات خوولتى ألاحظ على « عائشة » تطورا عجيبا فى نفسيته وتفكيرها واحساساتها • كانت ثائرة ، وأشرت فى مظاهرة السيدات والآنسات (١٦ مارس سنة ١٩١٩) ، وكانت تتدفق فى أحاديثها عن الحالة السياسية ، وعن تطور الأمة وأعجبنى منها ذكاؤها ، وجاذبيتها ، وأخلاصها ، وروحها الوطنية ، فعقدت النية على الزواج بها • ولم أفاتها فى الأمر ، لأن ذلك لم يكن مألوفاً فى هذا العصر ، وخاصة فى البيئات المحافظة ، ولأنى كنت واثقا من رضاها بأن تكون زوجتى » (١٣) •

ويقول مؤرخنا أيضا فى جانب آخر من مذكراته : « وعندما مرضت بالتيفوئيد سنة ١٩٢٣ ولزمت الفراش نحو شهرين ، واشتد بى الخطر •• كان الأطباء الذين يعالجوننى يقرءون على ملامح وجهها درجة حرارتى • قبل أن يقيسوها بميزانهم ، ويقولون ان وجهها هو الترمومتر الصادق لحالتى الصحية » (ص ٣٨) •

كانت نعم الزوجة •• ظل زوجها دائما يتحدث عنها بتقدير واعجاب وحب •• « وهى تطالع كتبى بامعان ، وتقرأ كل ما أقول

وأكتب • وتبدي لى أحيانا ملاحظات سديدة ، وتستمع الى كل أحاديثى بالراديو ، وتعجب بها ، ومرة أو مرتين قالت لى : « حديثك هذه المرة ضعيف » ، فقلت مبتسما : « كيف ذلك والناس قالوا لى غير هذا ؟ » • فقالت : « لعلهم يجاملونك ، ولكن الحديث ضعيف » ، وذكرت الأسباب ، فاغتنبت كثيرا لملاحظاتى • وحمدت الله على أنها تراقبنى الى هذا الحد •

وقد اشتد مرض السيدة عائشة محمد المعيرجى وقرر الأطباء ادخالها معهد السرطان بالقاهرة فى ١١ يناير سنة ١٩٧٦ ، وبمجرد علم رئيس الجمهورية بما نشره على أمين عن مرضها (١٤) قرر علاجها على نفقة الدولة ، ولكن لم يستمر مرضها طويلا وتوفيت فى ١٥ يناير سنة ١٩٧٦ وتكفلت رئاسة الجمهورية بكافة مصاريف الجنازة والعزاء لمدة ثلاثة أيام تكريما لعبد الرحمن الرافعى فى صورة زوجته (١٥) •

أولاده :

أنجب عبد الرحمن الرافعى أربع بنات وولد ، وقد توفى الأخير فى طفولته • ومذكرات مؤرخنا المنشورة تخلو من الحديث عن ذريته • وليست هناك الا اشارة واحدة فى كتاباته عما أنجب • وهى خاصة بفلذة الكبد الذى مات فى ٩ مايو سنة ١٩٣٥ ، اذ بهدى الرافعى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » - الطبعة الأولى ١٩٣٧ - « الى رمز البنوة ،

وموضع حنان الأمومة والأبوة ، وحيد والديه ، ومعقد أملهما
في الحياة ، من يرقد الآن تحت الثرى ، بعيدا بعيدا عن أعيننا ،
نائيا نائيا بجسمه وشخصه ، قريبا قريبا بروحه وذكراه ، الى
ولدى المرحوم محمد أمين الرافعى ، اهدى هذا الكتاب «
(ص ١١) •

أما بناته الأربع ، فقد تزوجت الأولى المرحوم المهندس
محمود صالح الرافعى وقدمت ابنها شهيدا في فبراير ١٩٧٨ في
عملية الصاعقة المصرية بقبرص لانتقاد المحتجزين المصريين بعد
اغتيال يوسف السباعى برصاص الفلسطينيين ابان رئاسته للمؤتمر
الآسيوى الافريقى ، وتزوجت الثانية من اسماعيل يبرس وتقيم
بالمنصورة ، وقدمت في اليوم الأول لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣
واحدا من شهدائنا هو ابنها الطيار جميل • وتزوجت الثالثة
المستشار حلمى السباعى شاهين نائب رئيس قضايا الحكومة
بالقاهرة السابق ، والرابعة تزوجت المستشار فتحى السبكى
رئيسا لمحكمة بالقاهرة •

الرابطة الرافعية :

كان عبد الرحمن الرافعى انسانا بمعنى الكلمة صدوقا
غزوفًا عن الكذب بعيدا عن ما يغضب الله ، عطوفا على كل عائلته
وأسرته وإخوته الأشقاء وغير الأشقاء • يقدم المساعداً

لمستحقيها دوماً في السر ، وقد تكشفت عظمتها التي لم يعلمها أقرب الناس اليه ، فيما خلف من مستندات بعد وفاته • ومن أروع ما قدمه الى أقاربه من آل الرافعي ان كون لهم تجمعا في ٢٤ أبريل سنة ١٩٣٦ عرف باسم « رابطة الرافعية » يضم جمعهم وشملهم وتولى رئاستها • ومن أهم أهدافها مساعدة الأعضاء في كافة المجالات •• فكانوا يتجمعون دوريا في منزل كل غصوا ، كان المؤرخ الكبير يدون ما يدور في هذه الجلسات من مناقشات وقرارات في سجل خاص • وكانت المشاكل والخلافات التي تعرض •• تحل طبقا للشريعة الاسلامية دون الحاجة للالتجاء للقضاء ، الا اذا تأزمت وعند ذلك يقوم باعداد المذكرات القانونية الخاصة بها ويقدمها للقضاء • ومن السنن الحميدة التي اتخذتها الرابطة اجتماع الأعضاء في مكان واحد في الأعياد والمناسبات الاسلامية •

في المنصورة :

أغلب الظن انه الى مدى أبعد تضرب المنصورة جذورها في الوطنية والمقاومة والنضال •• ضد المستبد الخارجي والداخلي - ربما قبل أبريل سنة ١٢٤٩ عندما أسرت لويس التاسع ملك فرنسا وقد جاء على رأس حملة صليبية تريد أن تستعمر مصر - سواء أكان حاكما أجنيا أو مصرية ، وبالطبع قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجيء نابليون بونابرت

عام ١٧٦٨ ، ولا غرابة أن تناضل أيضا ضد حكم السلطان حسين أوفقواد أو غيرهما • وهذا هو المناخ الذى وجدته هذا الشاب القاهرى الوطنى الذى وفد على مدينة المنصورة سنة ١٩١٠ للترافع فى محاكمها عن قضايا موكلية الذين وكلوه فيها بعد اتفاقهم معه بمكتبه بالزقازيق ، ويروق له الإقامة بها • ولكن المحامى عبد الرحمن الرافعى الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره لا يستقر بها نهائيا الا بعد قرابة أربع سنوات •

ولقد بقى الرافعى فى المنصورة حتى سنة ١٩٣٢ كان فى أثنائها أحد المحاور الهامة للنشاط الوطنى والسياسى والاجتماعى والثقافى ، فيقدم ثمن مبيعات كتابه الأول « حقوق الشعب » مساهمة منه فى تطوير التعليم • يطالع القارىء فى جريدة « العلم » فى صفحتها السادسة الاعلان التالى : « يوجد كتاب حقوق الشعب لمؤلفه حضرة عبد الرحمن الرافعى المحامى فى المنصورة طرف الحسينى أفندى العسقلانى وقد خصص ما يجمع من ثمنه لمساعدة مشروع اصلاح التعليم وكل نسخة غير مختومة تعد مسروقة » (١٦) •

وينضم الرافعى لعضوية « نادى خلان الوفاء بالمنصورة » المؤسس سنة ١٩٠٦ والذى كان يضم نخبة كبيرة من المثقفين ، ويشارك فى أنشطته ويحاضر فى ندواته واجتماعاته ومناقشاته السياسية والثقافية ، ويهدى الى مكتبة النادى بعض كتبه •

ويكون الرافعى فى المنصورة عندما يعود الزعيم محمد فريد من احدى رحلاته الى الخارج التى كان يقضيها فى أوروبا داعيا للقضية المصرية ، فيذهب المحامى الشاب الى طنطا ليكون ضمن مستقبله فى ديسمبر سنة ١٩١٠ « فحيانى أحسن تحية ، وهنأته بجهاده المجيد ، وابتهجت لرؤيته بعد طول غيابه ، وسرت لما رأيته متمتعاً بموفور الصحة وكامل النشاط » (١٧) .

ومنذ جهاد مصطفى كامل الوطنى قامت العلاقات الوثيقة بينه وبين السلطان العثمانى بوصف الأخير خليفة للمسلمين الذين يجب أن يلتفوا حوله ، خاصة فى النضال ضد المستعمر الانجليزى . وكان السلطان يطمع بذلك أن يثير القلاقل فى مصر كراهية فى رجال الاحتلال لمصلحته هو ، لعل سيادته المفقودة على مصر تعود اليه ثانية ويخضعها لسلطانه . ولهذا عملت الدولة العثمانية على أن تؤلف قلوب كبار المصريين ومن ضمنهم رجال الحزب الوطنى بالانعام عليهم بالرتب والنياشين . وهكذا أنعم السلطان العثمانى سنة ١٩١٤ على الأخوين اللذين يؤمنان فى ذلك الحين بضرورة قيام صلة عضوية بين الآستانة والقاهرة ويكتبان فى ذلك فمنح كل من عبد الرحمن الرافعى وأخيه سنة ١٩١٤ الى زعيمه بالمنفى نبئه بهذا الانعام (١٨) . ومن الغريب رتبة البكوية وبيعت الرافعى برسالة من المنصورة بتاريخ ٤ مايو

ان الرافعى لم يشر اطلاقا فى مؤلفاته ومذكراته الى هذا الأمر ..
فهل فعله عمدا أم سهوا ، أم هو يريد أن يتصل من هذا
الموقف القديم ؟ يقدم المستشار حلمى شاهين تفسيراً لذلك
بقوله : كثيرا ما حدثنى أستاذى الرافعى ان لا أحد فى مصر
صاحب الفضل فى الانعام عليه بالبكوية لأنها جاءت من استانبول
لا من القاهرة !

وفى المنصورة يلتقى عبد الرحمن الرافعى بصديق الشباب
والدراسة فى مدرسة الحقوق الخديوية .. ابن الدقهلية
الدكتور محمد حسين هيكى بعد أن عاد من باريس فى النصف
الثانى من سنة ١٩١٢ حاملا درجة الدكتوراة فى القانون .
وكان هيكى قد فضل فى نهاية نفس العام أن يفتح مكتبا
للمحاماة بالمنصورة ، فجمعتهما الأيام مرة أخرى فى زمالة
جديدة . وفى صيف ١٩١٤ يتفق الصديقان على تمضية شهر
فى لبنان خلال فترة عطلة المحاكم . يحكى الدكتور هيكى فى
مذكراته سطورا من هذه الرحلة قائلا : « .. وأخذنا أهبتنا
وتذاكر سفرنا على باخرة تقلنا من بور سعيد بعد الظهر يوم أول
أغسطس سنة ١٩١٤ ، وذهبنا نستقل القطار الذى يغادر
المنصورة الساعة التاسعة صباحا الى ميناء سفرنا وتناولنا الصحف
ساعة ركوبنا القطار ، فاذا بها تذيع النبأ الخطير أن ألمانيا
أعلنت الحرب على فرنسا . وأخذنا أماكننا فى القطار ، فقال

الرافعى •• لا يدرى أحد ما يمكن أن تتطور إليه الحال بعد اعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا • فقد تدخل تركيا الحرب ، وقد تدخلها انجلترا ، الا تفضل أن تقضى أيام راحتنا في بور سعيد ، حتى لا نقاجأ في لبنان بما قد يحول بيننا وبين العودة الى بلادنا ؟ فقلت مبتسما ، دع الأمر لله ! ولنذهب الى حيث قررنا • وعلام نخاف ولم نخشى • اننا نستطيع عند الضرورة أن نعود الى مصر على ظهر جمل • ولما كان عبد الرحمن مؤمنا بحسن الايمان ، فقد رأى أن يدع الأمر لله ، وان نذهب الى لبنان ، ولعله قدر كذلك ان له أقارب بالشام تهفو نفسه الى رؤيتهم » (١٩) •

ويعود الرافعى من لبنان بعد أن قضى في ربوعه قرابة الشهر ، فيجد الأمور الداخلية للبلاد تعصرها أحداث الحرب الأولى ، فعلى أثر دخول الدولة العثمانية الحرب مع ألمانيا ضد الحلفاء في ديسمبر سنة ١٩١٤ ، تجد سلطات الاحتلال أنها الفرصة المواتية لقطع الشعرة الواهية التي كانت تربط مصر بتركيا ، فتعلن الحماية البريطانية على مصر • وتخلع الخديو عباس حلمي الثاني وتنصب بدلا منه السلطان حسين كامل • ولما كانت سلطات الاحتلال قد استطاعت من قبل أن تقضى على الآراء الحرة بالاضطهاد والتهديد ، ولم تعد تخشى أن تفلت الأمور من يدها - كما حدث عندما تحرك الوطنيون

ضدها من أجل تركيا وحليفاتها ألمانيا — فما أن تخلصت هذه السلطات من خطر الحملة التركية على قناة السويس سنة ١٩١٥ التي كانت تهدف احتلال مصر ، بدأت الروح الوطنية في الانحسار ، حتى اتجهت الى اعتقال الوطنيين ومن بينهم الرافعى . وأفرج عنه في يونية سنة ١٩١٦ •

وتنتهى الحرب الأولى سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء ، ويلتقى الزعماء المصريون بالمندوب السامى البريطانى بالقاهرة للمطالبة بتنفيذ وعود الجلاء بعد أن ضحت البلاد فى خدمة قوات الحلفاء التى تمثلت فى استغلال كل اقتصاديات البلاد والعمالة المصرية والقوات على طول الجبهة المصرية • ويرفض المندوب السامى البريطانى المطلب الشعبى فتتأجج الصدور المصرية بالغضب الى درجة الغليان وتزيد سلطات الاحتلال النار اشتعالا بالقبض على الزعماء المصريين •• وتقوم الثورة فى كل ارجاء البلاد ، لا تفرق بين مدنها أو قراها • ويستخدم الانجليز الرصاص فى تفريق المظاهرات وارهاب الوطنيين فيسقط القتلى ومع ارتفاع نسبة الشهداء على مر الأيام ، تتضاعف حركة تدمير المواصلات والاعتداء على جنود الاحتلال •

وفى هذا الجو المشتعل يشارك عبد الرحمن الرافعى بجهد كبير لا يقتصر على المنصورة وحدها بل يتجاوزها الى القاهرة أيضا • والنضال المباشر ضد المستعمر لم يكن وحده هو المقياس

الوطني عند الرافعي ، فهناك أيضا العمل في المجالات الاقتصادية والتعاونية والاجتماعية والفكرية .

وفي هذا المجال أيضا يذكر موقفه من تعضيد انشاء بنك مصر . لقد كان الهدف من تأسيس هذا البنك هو أن يكون أحد الدعائم الاقتصادية الهامة في صرح البلاد لمجابهة البنوك الأجنبية المسيطرة على الاقتصاد الوطني ، وكان البنك في بداية نشأته في حاجة ماسة الى تعضيد ومساهمة المواطنين في الاكتتاب لأسهمه . ورأى الرافعي أن دعوة البنك ليست قاصرة على رجاله وحدهم ، بل هي عمل الوطنيين في كل مكان في مصر . ولذلك فقد بادر هو في نهاية سنة ١٩٢١ الى تأسيس لجنة لتوزيع أسهم البنك في المنصورة اسمها (لجنة الدقهلية للاكتتاب في أسهم بنك مصر) ومن أجلها جاب الرافعي ارجاء (المديرية) المحافظة سعيا وراء التأييد الشعبي للفكرة ، ومن الطريف انه كان يدفع الأغنياء الى أن ينافس بعضهم بعضا في الاكتتاب على أكبر قدر من الأسهم . وفي ذات الوقت قدم المحامي الشاب عدة مقالات في جريدة « الأخبار » تحدث فيها عن ضرورة انجاح دعوة بنك مصر فالاكتتاب بسهم فيه تعنى رصاصة موجهة الى صدر الاحتلال (٢٠) .

وفي ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ يبلغه وفاة محمد فريد في ألمانيا ، فيتأثر الرافعي لوفاة معلمه وأمامه في الوطنية ، ويرثيه

بحرارة في جريدة « مصر » « ... الا في ذمة الله من تلقيت عنه
مبادئ الوطنية الاولى ، من كنت أراه في السراء والضراء ، في
السفر والحضر ، تحت سماء الوطن أو في المنفى ، رافعا لواء
الوطنية ، حاملا في يمينه مصباح الأمل ، يسير به في كل واد ،
وتحت كل سماء ، ينظر به الى الدنيا ، فتصغر في عينه المصائب ،
وتتضاءل المتاعب ، في ذمة الله من كان يغالب الدهر ويحتمل
الشدائد والمصائب ، وقلبه مملوء بقوة و يقينا ، في ذمة الله من
جعل حياته كتابا مقدسا تقرأ فيه الأمة آيات الجهاد في سبيل
الوطن » (٢١) ♦

في الحزب الوطنى :

أعلن مصطفى كامل عن تشكيل الحزب الوطنى في ٢٢ أكتوبر
سنة ١٩٠٧ في الوقت الذى كان فيه على قمة الزعامة الوطنية
التي قادها منذ سنة ١٨٩٢ . ويرجع الدكتور يونان لبيب تأخر
تفكير الزعيم الشاب في تكوين الحزب طول مدة زعامته ، الى
رغبته في استمرار الدفع الثورى ضد الاحتلال البريطانى في
البلاد ، ولاقتناعه بأن الوجود الحزبى يمكن أن يفتت بشكل
ما الوحدة الوطنية في ذلك الوقت المتقدم بالذات (٢٢) ♦

وقد كانت وفاة الزعيم قبل أقل من عام من تشكيل الحزب،
مدعاة لراحة سلطات الاحتلال (٢٣) ، الا أن خليفته محمد فريد

لم يسمح لهم بذلك ، وسار على الدرب ، واهتم الى جانب النشاط السياسى بالجانب الاقتصادى والاجتماعى والتعاونى ، كما قاد حملة شديدة العنف للمطالبة بالدستور ، وساح فى أوروبا من أجل مصر ، وقد قابلته السلطة بالاضطهاد والسجن • حتى اضطر فى النهاية الى الخروج من البلاد •

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى مشاركة فعالة فى أعمال الحزب منذ انشائه • كما انتخب عضوا باللجنة الادارية فى ٢٠ يناير سنة ١٩١١ ، حتى أصبح من أبرز أعضائه ابان رئاسة محمد فريد ، وشغل منصب سكرتير الحزب فى الفترة من ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٤٦ • وبالرغم من ان الرافعى ، لم يعد صاحب مسئولية فى الحزب الا انه استمر حتى الغاء الأحزاب • هو المهيمن الأول على أعمال الحزب الوطنى •

واغتراب فريد ورفاقه كان سبيلا لزيادة نشاط الحزب الوطنى خارج البلاد عنه فى داخلها ، فكان هناك فريق من بينهم فريد يتعاون مع الخديو السابق عباس حلمى الثانى فى منفاه ، واتجه فريق آخر الى الداخل للعمل السرى ، وكان عبد الرحمن الرافعى واحدا من أعضاء الفريق الثانى الكبار •

وعقب انتهاء الحرب الأولى ، وتغيير الموازين الدولية باعتراف مؤتمر باريس بالاحتلال البريطانى لمصر ، ارتفع رضى

شعبية سعد زغلول وحزب الوفد وضاعت شعبية ما عداه من الأحزاب ، وعندما عادت بقية قيادات الحزب الوطنى من الخارج بعد وفاة فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ لم تهتم بالواقع السياسى بالبلاد وما اصابه من تغييرات جذرية بل تعلقت بماضيها الذى لم يعد له وجود ، وبدأت صراعها مع الجناح الثانى بالحزب الذى يضم مجموعة جديدة • واتتهى الأمر بإبعاد القيادات القديمة وانتخاب حافظ رمضان رئيسا للحزب فى ٩ مايو سنة ١٩٢٣ بعد أن خلا المنصب منذ هجرة فريد (٢٤) •

وابتدأت الرئاسة الجديدة بالتعاون مع حزب الوفد والسراى ، وكانت النتيجة الطبيعية للتعاون المشترك أن اختير رئيس الحزب الوطنى وزيرا سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٠ • وتوقع الحزب وأصبح من أحزاب الأقلية ولم يعد له وجود فى الواقع فى حياة مصر السياسية • وأصبح نشاطه لا يعدو نشر وإذاعة البيانات وزيارة أضرحة زعمائه فى ذكراهم !

ويسعى فى الثلاثينيات بعض أعضائه لتجديد شبابه ، فيفتح أبواب ناديه الذى كان يقع فى شارع القصر العينى بالقاهرة - إدارات مجلس الشعب حاليا - لتنظيم شبابى يدرجه تدريبات عسكرية وأطلق على تشكيله اسم « شباب البزق » نسبة لطائر بهذا الاسم من فصيلة الصقور ، ويرتدى أصحاب التشكيل

القمصان الزرقاء ، ولا يستمر التشكيل طويلا حيث يقضى عليه
حزب الوفد (٢٥) •

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية ينضم للحزب الوطنى
مجموعة من الشباب كانوا من أعضاء حزب مصر الفتاة ،
واختلفوا مع قاداته • مثل الدكتور نور الدين طراف ، ومصطفى
المنزلاوى المحامى ، والدكتور محمد زهير جرائه المحامى وعلى
رأسهم فتحى رضوان المحامى ويعملون على بعث روح جديدة
فى الحزب العريق ، وعلى أن يكون له نشاطه فى الاقاليم ولا يقتصر
على القاهرة • ويقول فتحى رضوان عن هذه الفترة :
« كنا مستمرين فى السفر الى الاقاليم واقامة الحفلات وأحياء
المناسبات الوطنية والبحث عن مكان للنادى بالقاهرة وطبع
مطبوعاته وانشاء لجانه • وهكذا حتى اجتمع شمل الجميع
فى نادى الحزب فى المنيل برئاسة حافظ رمضان ، ولأول مرة
منذ سنين طويلة ، يجلس زعيم الحزب الوطنى والى جانبه
عبد الرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى ومحمد زكى على
ومصطفى الشوربجى واسماعيل العسيلي ، وهؤلاء لم يجتمعوا
ولم يضع أحدهم يده فى يد الآخر سنين طويلة دون سبب مفهوم •
وهكذا بدأت الحركة تدب فى الحزب ، وبدأنا نسبق الأحزاب
الأخرى فى النشاط ، فمثلا عندما زار القاهرة وفد الخريجين
السودانى برئاسة اسماعيل الأزهرى - مارس وأبريل ١٩٤٦ -

كنا أسبق الهيئات التي استضافته والاحتفال به في النادي ثم قلدنا الأحزاب الأخرى • وقد حدث ان جاء حزب الوفد بعد ذلك وطلب استضافة الوفد قبل احتفالنا به فرفض الأزهرى أن يلبي أية دعوة الا بعد أن يذهب إلينا • وقال أن هذا هو الترتيب الطبيعي والتاريخي • وهكذا تكرر اللقاء مع القادة العرب • ولما حضر للقاهرة فوزى القاوقجي قائد فرق الفدائيين المقاتلة بفلسطين أسرعنا في الاحتفال به ودعوة الصحفيين لسماعه وتقديمه إليهم عندما جاء للنادي • ثم اصدرت جريدة « اللواء الجديد » ورأست تحريرها منذ سنة ١٩٤٤ الى أن توقفت سنة ١٩٤٦ ، وعادت الصدور سنة ١٩٤٩ وكتب فيها رجال الحزب وخاصة عبد الرحمن الرافعي (٢٦) •

ولم يسلم الحزب الوطنى من آفة الصراعات والخلافات التي ظهرت في الأحزاب الأخرى في ذلك الوقت • وبالرغم من قلة أعضائه فقد طغت الخلافات وتعددت خاصة منذ اختيار حافظ رمضان رئيس الحزب في وزارة محمد محمود سنة ١٩٣٧ وتصاعدت خطورتها في اختياره بوزارة حسين سرى سنة ١٩٤٠ • وعن ذلك يقول الرافعي : « ان الخلافات بدأت بصورة ضيقة في الاشتراك الأول ولكنها استحكمت بين الأعضاء في الاشتراك الثانى وبفضل الوسطاء أمكن إعادة الوحدة الى الصفوف في نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وقد حدث خلاف جديد سنة ١٩٥٠ » (٢٧) •

ويشير صبرى أبو المجد الى خلاف سنة ١٩٤٠ وموقع
الرافعى منه قائلا : « وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى قد نشر
بوصفه سكرتيرا للحزب الوطنى ، فى الصحف بيانا حول موقف
الحزب من اشتراك رئيسه محمد حافظ رمضان باشا ، وقد نشر
البيان فى ٣ يوليو ١٩٤٠ ، وقد جاء فى هذا البيان : بادر
الحزب الوطنى الى تحديد موقفه من الأزمة السياسية التى
لابست استقالة وزارة على ماهر باشا فاجتمعت لجنته الادارية
بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى مساء يوم الاثنين
٢٤ يونية ١٩٤٠ وحضر اجتماعها سعادة الأستاذ حافظ رمضان
باشا وقررت عدم اشتراك الحزب الوطنى فى الوزارة الجديدة
وتعهد سعادة حافظ رمضان باشا ، أمام اللجنة أن ينزل على
رأيها ويحترم قرارها ولكن لم يمض على هذا العهد ، ثلاثة أيام
حتى خرج عليه الأستاذ حافظ رمضان باشا باشتراكه فى الوزارة ،
لذلك اجتمعت اللجنة الادارية يوم السبب ٢٩ يونيو بمكتب
الأستاذ عبد المقصود متولى للنظر فى الأمر ، فرأت ان اشتراك
معالى حافظ باشا فى الوزارة فى الملابس المقدمة هو خروج على
قرار اللجنة وعلى العهد الذى قطعه على نفسه وعلى مبادئ
الحزب مما يستدعى اعتبارا متخليا عن رئاسة الحزب وعن
عضويته ، فلهذه الأسباب قررت اللجنة الادارية للحزب الوطنى
اعتبار معالى محمد حافظ رمضان باشا متخليا عن رئاسة الحزب
وعن عضويته • ورد الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا على البيان

بيان ... ولم يقف الانشقاق الجديد في الحزب الوطنى عند قيادات الحزب الوطنى ، وانما امتد الى الكوادر فقد اجتمع مثلا رؤساء اللجان الفرعية للحزب الوطنى فى العباسية ، والدرب الأحمر ، والخليفة والسيدة ، ومصر القديمة ، والجيزة وامبابة بدعوة من حضرة عباس أفندى الزير ، وبعد أن وقف الحاضرون بالجلسة حدادا على المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد أصدروا قرارات جاء فيها تهنئة معالى حافظ رمضان باشا باسناد منصب الوزارة اليه وتجديد الثقة به ومطالبته بأن يعمل على عدم جر البلاد الى حرب لا مصلحة لها فيها واعتبار القرار الذى اذاعه سكرتير الحزب الوطنى غير معبر ، عن آراء غالبية حضرات أعضاء اللجنة الادارية والجمعية العمومية للحزب اذان حضراتهم يؤيدون رئيس الحزب فى سياسته الرشيدة وكذلك طالب المجتمعون حافظ رمضان باشا بدعوة اللجنة الادارية للحزب الى الاجتماع للنظر فى قرار سكرتير الحزب وان يعقد الجمعية العمومية لتتخىب أعضاء هذه اللجنة ، وعقدت اجتماعات أخرى لتأييد القرار الخاص باعتبار حافظ رمضان باشا متخليا عن رئاسة الحزب الوطنى ، وتوالت البيانات من حافظ رمضان باشا، ومن عبد الرحمن الرافعى بك ... » (٢٨) •

وخلاف كبير آخر يقع سنة ١٩٥٠ ، وبالرغم من ان الرافعى شارك فيه أيضا مشاركة فعالة الا أنه لم يشر اليه فى مذكراته !

ونعتمد على فتحى رضوان لاستكمال هذه الفجوة وهو يقول :
« ما كدنا نبدأ فى العمل مع رئيس الحزب حافظ رمضان حتى
خرج من الشقوق جميع رجال الحزب الوطنى الذين هجروه
وقطعوا صلتهم برئيسه سنين طويلة ، وخيل اليهم أن الحزب
سيتولى أمور البلد وأن الفرصة ستفلت من أيديهم فيما لو لم
يسرعوا بالوقوف بجانب حافظ رمضان • وقرروا الواقعة بيننا
ولاشك انها كانت مفاجأة منجعة لنا فى هذا النفر الذى
كنا نعهده من الوطنيين ويسرهم أن تنبعث الحركة والحياة فى
الحزب • وكان يجب عليهم بحكم اخلاصهم ووطنيتهم أن يدركوا
أنهم عجزوا عن أن يواصلوا الجهاد لسبب أو لآخر ، فاذا عمل
على بعث الحزب عدد من أبنائهم فهم أول من يرحب ويباركون
هذه الخطوة •

ويستطرد رضوان : ولم نحتمل كل هذه الأمور • وفى
النهاية قررنا أن نعمل وحدنا وأطلقنا على أنفسنا (اللجنة
العليا لشباب الحزب الوطنى) • ونشرنا بياننا بالصحف فى
٢٨ يناير سنة ١٩٥٠ كشفنا فيه الاخطاء المستعصية بالحزب
الوطنى ، ووعدنا أن نتحمل العبء للبلوغ بالحزب الى الكمال •
وكان رد القدامى الخطير سريعا ، هو طردنا ! فنشر صباح اليوم
التالى بالصحف • ان اللجنة الادارية العليا للحزب اجتمعت

وقررت فصل موقعى بيان الأمس وهم فتحى رضوان ونور الدين طراف ومصطفى المنزلاوى وزهير جرائه من عضوية الحزب الوطنى • والحقيقة أن الذى اجتمع وقرر ونشر هو وحده الرافعى ا » •

ويشير محمد جمعه الى انشقاق شباب الحزب بقوله : « فتحى رضوان وزملاؤه جماعة من الشباب الوطنى لم يعجبهم منطق الكبار فى أن يسيروا رويدا رويدا لصالح مصر بل يريدون الدفعة القوية ، والتمسوا هذا لدى بعض الكبار مثل حافظ رمضان وعبد العزيز الصوفانى ، أما الذين استنكروا هذا الأمر فهم الرافعى وعبد المقصود متولى وفكرى أباطه والعقلاء بالحزب ، لأنهم أرادوا أن يحتفظوا بصورته منذ مصطفى كامل ، وقال الرافعى فى هذا المجال بمنطقة الهادىء ما يصحش يحىء أولادنا ويأخذوا الياطة ويمشوا » •

ويصدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ويقضى ان تغربل الأحزاب القديمة نفسها وتقدم اخطارات جديدة لاشهارها وكذلك لمن يرغب فى تشكيل أحزاب جديدة • وقدمت الأحزاب اخطاراتها التى بلغت ستة عشر اخطارا ، ومن بين هذه الاخطارات حزب جديد أطلق على نفسه « الحزب الوطنى الجديد » برئاسة فتحى رضوان وزير الارشاد القومى فى ذلك الوقت •

وآثار اخطار رضوان ثائرة الرافعى ورفاقه ، وأقام
عيد الرحمن الرافعى دعوى قضائية لالغاء الحزب الجديد ويذكر
الرافعى عن هذا الحادث « وفى نوفمبر سنة ١٩٥٢ طلب الحزب
الوطنى الغاء الحزب المسمى بالحزب الوطنى الجديد الذى ألفه
فتحى رضوان ، واختصم الحزب الوطنى فى هذه القضية
سليمان حافظ وفتحى رضوان ، وسميت هذه القضية (الاغارة
على الحزب الوطنى) ، وقد ترافعت فيها مع المرحوم
محمد زكى على أمام القضاء الادارى بجلسة ١٣ ديسمبر
سنة ١٩٥٢ ، وقلت ان تأليف الحزب الوطنى الجديد هو محاولة
الاستيلاء على الحزب الوطنى ، لا على اسمه فقط ، وقد أيدنا
مفوض مجلس الدولة فى وجهة نظرنا وقال فى مذكرته ان على
المحكمة أن تمنع الغاصب من استعمال اللفظ البارز فى الاسم ،
وقد تأجلت القضية من جلسة الى جلسة الى أن أجلت للحكم
لجلسة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٣ ، و انتهت الخصومة فى القضية
بجلسة ١٦ فبراير سنة ١٩٥٣ ، لصدور قانون حل الأحزاب
السياسية - ١٧ يناير سنة ١٩٥٣ » (٢٩) .

أما الطرف الآخر الذى دافع عنه مصطفى المنزلاوى
المحامى ، وأحد رجال الحزب الوطنى الجديد ، فيقول :
« فى سنة ١٩٥٢ رأينا أن تحول اللجنة العليا لشباب الحزب
الوطنى التى سبق ان الفناها سنة ١٩٥٠ من فتحى رضوان

ونور الدين طراف وأحمد شوقي ومحمود الحناوى وأحمد
مرزوق وبرهان سعيد ومحمد ابراهيم كامل - وزير الخارجية
سنة ١٩٧٨ - وأنا وغيرنا ، الى الحزب الوطنى الجديد وقدمنا
أوراقنا على هذا الأساس * وعبد الرحمن الرافعى قدم أوراق
الحزب الوطنى على أساس انه هو الحزب الوطنى الأصلى *

وفوجئنا بعريضة مقدمة من عبد الرحمن الرافعى عضو
اللجنة الادارية بالحزب وأشار فى دعواه أن هذا الاسم لا يجوز
للغير استخدامه أو الاضافة اليه لأن بقاءه يكون له أثر بلبلة فى
الاذهان والناس ستتحيّر بين حزب وطنى قديم وحزب وطنى
جديد ، وانه كان من الأولى أن يحدث كما يجرى فى حزب العمال
فى انجلترا عندما اختلف أعضاؤه وظهر تيار جديد فقالوا الجناح
الأيسر وبقي كأحد أجنحته ، ولكن حجة الرافعى فى هذا الجانب
غير سليمة لأن الجناح الأيسر فى حزب العمال لم يفصل من
الحزب وانما نحن فصلنا ، فكيف نقول الجناح الأيسر أو الجناح
الجديد فى الحزب الوطنى ، وأنا أذكر هذه المرافعة التى رددت
فيها على المدعى حتى تعجب محمد زكى على رحمه الله - زميل
الرافعى فى المرافعة - لأنه كان مفروضا أننى أترافع عن
فتحى رضوان وزير الارشاد القومى ابان حكومة الثورة حين قلت
فى مرافعتى : ألم يكفكم ان تقوم الحكومة بوضع القيود
على الأحزاب فتطلبوا منها المزيد وتقولون للحكومة تدخل

وامنعى اسما معيننا وحزبا معيننا ألم يكفنا القيود الموضوعة
في هذا القانون • ان الأحزاب يجب أن تكون حرة طليقة
ولا تعارض بين حزينا نحن نمثل مرحلة من مراحل نضال الحزب
الوطني وأنتم تمثلون مرحلة أخرى وجهدكم غير منكور ويكفى
ما قمت به يا عبد الرحمن بك من تأليف موسوعة كبيرة في تاريخ
الحركة القومية ، حتى زميلي مصطفى الحناوى عندما كان
يتراجع لم ينس تقدير الرافعى قائلا : من المصادفات أن أكبر
مؤرخينا يحملان اسم عبد الرحمن ، الأول الجبرتي في القرن
التاسع عشر والرافعى في القرن العشرين • وكانت المرافعة تتسم
بالأدب وتقدير كل طرف للآخر وبالموضوعية من الناحية
القانونية » (٣٠) •

عمله بالمحاماه :

ألقى الرافعى الاتجاه الى الوظيفة الحكومية عقب تخرجه
من مدرسة الحقوق الخديوية ، مع أنه كان سيعمل في وظيفة
محترمة يرئس اليها الجميع في وزارة (الحقانية) العدل ، لأنه
وجد فيها مضيعة للوقت والجهد ! ولن تبلغه هدفه الذي اختطه
لنفسه واتخذ من طريق الجهاد الوطنى سبيلا ومسارا لحياته •

وقد كانت كتاباته نفسها في بداية عمله الصحفى ، دعوة
صريحة وواضحة للشباب للاتجاه الى الأعمال الحرة بدلا من
التكالب على الوظيفة • واستمر طوال حياته يكره الوظيفة

الحكومية ، ويرفض أن يغدو موظفا في الميرى رغم العروض
الكبيرة كما حدث خاصة في وزارة العدل في فبراير ١٩٢٩ وفي
نوفمبر ١٩٣٢ •

ويقول الأستاذ مصطفى أمين عن مؤرخ مصر : « كان
يتألم من حالة الانحلال في البلد لأنه رآها في مجدها •• ومن
هذه الصور التي كانت تؤلمه تكالب الشباب على الوظائف
الحكومية •• » (٣١) •

أنشئت مدرسة الحقوق العليا بالقاهرة في عهد الخديو
اسماعيل سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها في البداية مدرسة الادارة
والألسن ثم انفصلت الألسن سنة ١٨٨٢ ، واستقلت مدرسة
الادارة حتى سنة ١٨٨٦ فصدر القرار الوزاري بتسميتها مدرسة
الحقوق الخديوية ، وفي سنة ١٩٢٥ أنشئت جامعة الملك فؤاد -
القاهرة حاليا • فاندمجت بها وصارت كلية •

وكان المحامون المصريون في بداية القرن العشرين ثلاث
جماعات ، الأولى تخرجت من مدرسة الحقوق المصرية ، والثانية
درست الحقوق في الخارج ، والثالثة تخرجت من الأزهر ولدى
أصحابها القدرة على الخطابة والمجادلة القانونية •

وتخرج عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعي من مدرسة
الحقوق الخديوية في يونية سنة ١٩٠٨ وكان ترتيبه الثاني

والعشرين على دفعته : وقيد اسمه بجدول المحامين ولم يبلغ سن العشرين . واشتغل محاميا تحت التمرين في مكتب محمد علي علوبه (بك) المحامي بأسيوط . ولما كان الوقت صيفا والمحاكم في أجازة وصاحب المكتب في المصيف فقد تولى تدريب الرافعي وكيل المكتب بوصفه محاميا مبتدئا ، واستاء الرافعي ، ولذلك لم يستقبل « تعليم » الوكيل بحماسة مما انعكس على مزاجه ، فبدأ يستنكف من مهنة المحاماة ولم تعجبه ! وفضل عليها التفرغ للعمل الوطني والجهاد السياسي الذي ملك عليه قلبه ، فترك نفسه لما يأتى به القدر في المستقبل . ويجيء القاهرة ويعمل مع الزعيم فريد في تحرير جريدة « اللواء » ويستمر في عمله الصحفي قرابة عام ، الى أن دعاه صديقه أحمد وجدي المحامي الى مشاركته في فتح مكتب محاماة بالزقازيق مع استمرارهما في الكتابة في الصحف . وقبل وبدأ العمل معه منذ يناير سنة ١٩١٠ ، ولم يلبثا ان افتتحا مكتبا آخر في المنصورة قريبا من ملتقى المحاكم تولى عبد الرحمن ادارته بأحد منازل شارع جمال الدين الأفغانى (حاليا أرض قضاء) جعل الدور الأول منه مكتبا لاستقبال زبائنه ، والثانى سكنا خاصا له . ويستقر في المنصورة ويطول به المقام اثنين وعشرين سنة تقريبا منذ أكتوبر سنة ١٩١٣ ثم ينتقل منها نهائيا الى القاهرة في ديسمبر ١٩٣٢ ويفتح مكتبه فيها بالمنزل رقم ٢٢ شارع عدلى في نفس الشقة التى كانت مكتب محام أيضا هو محمد زكى على

الذي ترك المحاماة لتعيينه مستشارا بوزارة العدل . ومن الطريف ان هذا المكتب ذاته انشأه في الأصل الزعيم محمد فريد عندما كان محاميا ثم تركه لمحمد زكى على ! (واستمر مكتب الرافعى المحامى مفتوحا الى أن أغلق في نوفمبر سنة ١٩٦٤ لمرض صاحبه ، وعقب وفاة الرافعى في ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ بعامين أصبح مخزنا لمجلات ناصف للملابس بشارع شريف) !

والغريب في أمر مؤرخنا انه عندما أصدر سنة ١٩٥٢ كتابه « مذكراتى » وعرض به شريط حياته تجنب الخوض في جوانب عديدة من حياته ، منها عمله كمحام قرابة واحد وأربعين عاما !

والفترة التى قضاها الرافعى محاميا فى المنصورة تعد من أخصب سنوات عمره ، حيث بزغ نجمه وأصبح من خيرة المحامين بالمدينة ، لم يرفض قضية لفقر ، فكان يترافع فيها مجانا مما جعله شخصية محبوبة فى الاقليم ، وانعكس هذا الإعجاب فى التفاف الجماهير حوله ومساندته حين أقبل على ترشيح نفسه فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ونجاحه .

وفى لقاء مع على عبد الله قرمد من رجال التربية والتعليم بالمعاش فى المنصورة ، يذكر من ذكرياته عن الرافعى وخدماته انه « حدث فى صيف ١٩١٢ أن شغل طلبة المعاهد الدينية والأزهرية فى قرىتى أوّش الحجر مركز المنصورة فراغهم بعقد

الاجتماعات والندوات من أجل مناقشة الأبحاث الجارية في البلاد ، فخشي عمدتها اليماني الجمل - وله صلة قرابة بالراوى - من تصرفاتهم على وظيفته فمنعهم من ممارسة نشاطهم ، فكان رد الفعل أن هاجمه الطلبة باعتباره رجلا غير وطنى . وكان رده القبض عليهم عقب خروجهم من المسجد بعد صلاة العشاء واتهمهم بسب الملك في منشورات وجدها معهم ! وقبض الخفراء على عشرين طالبا تم ايداعهم دوار العمدة ونقلوا في الصباح الى المنصورة حيث عرضوا على النيابة العامة التى أمرت بحبسهم احتياطيا واحالة القضية للمحكمة ، وخف الاهلون الى أحد المحامين (كـ.ى) الذى استغلهم وجعلهم يعملون فى أطيانه خلال فترة نظر القضية التى استمرت منظورة قرابة أربعين يوما !

وحدث ان بلغ الرافعى مصادفة بالواقعة ، فاطلع على ملف القضية وحضر موعد نظرها وانتظر حتى انتهى المحامى الموكل من مرافحته ومطالبته بالافراج عن المتهمين ، ثم انبرى يتراقع فلم يطلب كسابقه افراجا أو براءة بل قال أن القضية المنظورة ليست بقضية وان من الخطأ اعتبارها كذلك حيث لا مبرر قانونى لاقامتها ، وطلب قراءة البيان الذى كان مع الطلاب وكذلك اسماء الموقعين . وتبين لدهشة المحكمة ان حمد الباسل وعبد اللطيف المكباتى وآخرين هم الموقعون ! وفى هذه اللحظة تساءل الرافعى كيف يكون محررو البيان أحرارا طلقاء فى الوقت

الذى يكون فيه قراؤه سجناء • وهنا افرج القاضى عن الطلبة وحفظ الدعوى الجنائية ضدهم • وحاول الأهلون تقديم الأتعاب ورفض الرافعى بعد أن قدم هو اليهم تهنتته بوصفهم طليعة الشعب « (٣٢) •

ومن الطريف ، أن الرافعى عضو الحزب الوطنى ، المؤمن بأن مصر والسودان بلد واحد ، كانت له وهو محام مشاركة لم تتم بالنسبة الى السودان ! فما هى ؟

حدث أن ألغى الحاكم العام البريطانى فى السودان — وهى الوظيفة التى استحدثها الحكم الثنائى المصرى الانجليزى عقب القضاء على الثورة المهدية فى السودان سنة ١٨٠٨ وتولاها انجليزى بموافقة خديو مصر (٣٣) — فى يونيو سنة ١٩٤٨ مجلس الحاكم العام واستبدله بالمجلس التنفيذى وكذلك فعل بالنسبة الى الجمعية التشريعية التى حلها وشكل عوضا عنها المجلس الاستشارى • فاجتاحت البلاد ثورة عارمة لمقاطعة الانتخابات لأن القانون الصادر بهذا الشأن يرمى الى تثبيت الفصل بين شطرى الوادى وسقط ضحايا واعتقل الزعماء وقدموا للمحاكمة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ • وهنا اتصل الوطنيون السودانيون بنقابة المحامين المصريين طلبا للعون • ويقول الرافعى : ساهمت نقابة المحامين بمصر فى هذه الحركة على أثر برقية تلقتها فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ من الأستاذ

محمد نور الدين وكيل الوفد السوداني يطلب فيها اقتداب بعض
المحاميين المصريين للسفر الى السودان للدفاع عن الأحرار
الذين احيلوا الى المحاكمة ، فقررت النقابة ايفاد بعثة مؤلفة
من المحامين : مكرم عبيد ، عبد الرحمن الرافعي ، على أيوب ،
على بدوي ، عبد الفتاح الشلقاني ، أحمد حسين ،
على عبد العظيم ، صلاح عبد الحافظ ، حنفى عبود • وأبرقت
الى الأستاذ نور الدين باستعدادهم العاجل للسفر الى
السودان » (٣٤) •

كان من الطبيعي ان تضع السفارة البريطانية بالقاهرة
العقبات أمام المحامين المصريين ! وهكذا من خلال
السكرتير القضائي بالسفارة جاء الرفض بالتصريح لبعثة المحامين
بدخول السودان ، بحجة عدم معرفة المحامين المصريين بقوانين
السودان • وابتدأ الصراع بين الطرفين فالبعثة تصر على السفر ،
والسلطات الانجليزية تصر على المنع • وتستقل البعثة الطائرة
التي استأجرتها النقابة صباح ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٨ الى
السودان • ولكن يبلغ قائدها وهو في السماء أن يهبط في مطار
وادي حلفا وليس مطار الخرطوم •• وقد كان • واجبرت الطائرة
في اليوم التالي على العودة الى القاهرة بركابها • وتهبط البعثة
في أسوان ويستقل المحامون المصريون القطار الى العاصمة •

وتثور ثائرة الرأي العام في مصر ، وتعم المظاهرات خاصة

في المدن التي يمر بها القطار العائد بالمحامين ، وتستقبلهم الجموع الحاشدة في محطة العاصمة يوم وصولهم ، استقبالا مشهودا .
وكان لهذا كله صدى في السودان ، وجرت المحاكمات في جو استبدادي ، وامتنع المحامون السودانيون عن الدفاع عن المتهمين ، احتجاجا على تصرفات الانجليز وعلى منع زملائهم المصريين من الحضور الى السودان ، وقضت المحاكم الانجليزية بعقوبات شديدة على كثير من الأحرار السودانيين . وأضرب المحامون في مصر يوم الأحد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨ احتجاجا على هذه السياسة الانجليزية العاشمة . ويعقب الرافعي على هذه الأحداث بقوله : « أن علينا واجبا وطنيا تقتضيه منا مصلحة مصر والسودان على السواء ، وهو أن نكافح كفاحا مستمرا لاحباط هذه التدابير وتحرير السودان من ربة الاستعمار ، فاذا أدينا واجبا في ثبات واخلاص ومثابرة وصلنا ولا ريب الى غايتنا ، اذ لا تستطيع القوة مهما بلغت أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل » (٣٥) .

ونستكمل صورة الرافعي المحامي ، باللقاء مع زملائه وأصدقائه المحامين . يقول مصطفى المنزلاوي المحامي بالقاهرة : « كان أستاذي الكبير عبد الرحمن الرافعي المحامي متواضعا رغم مركزه الكبير ، كان هدفه أن يكسب القضية ايمانا بحق موكله لأنه لا يقبل القضية الا بعد اقتناع . وكان يدرسها

دراسة كبيرة ويتخير الكلمات التي تبتعد عن اللفظ الحاد وكان يترافع بهدوء ووضوح وأذكر أنني كنت اذا كتبت مذكرة أثناء التمرين بمكتبه ، فقلت مثلاً عن الخصم انه يغالط أو يكذب ، يصحح الأستاذ الرافعي اللفظ ويعدله الى أن كلام الخصم غير مطابق للواقع أو للحقيقة !

وكان الرافعي منظماً في عمله له مواعيد محددة لا يتعدها في المكتب . والموكلون يعرفون مواعيده بالضبط فكان اذا انتهى من المحكمة في وقت مبكر يعود الى مكتبه ، ويخصص جزءاً من الوقت للاطلاع والكتابة في مؤلفاته التاريخية . وكان اذا حضر الموكل ، ويستمع اليه الرافعي يدون بعض النقاط أثناء استماعه ، فاذا ما استوفى الموضوع ووجد أن صاحبه على حق قبل الترافع .

وكان أستاذي محل تقدير رجال القضاء ، فكان اذا ذهب الى المحكمة من غير أن يطلب قضيته ، فرئيس المحكمة يسأله ما رقم قضيتك يا عبد الرحمن بك حتى لا تتعطل ، ويطلبها وينتهي من عمله في المحكمة . وكان محل تقدير زملائه أيضاً من المحامين ، وكما قلت كان عف اللسان ليس في المرافعة فقط وإنما في حديثه مع زملائه لا تصدر منه أى كلمة خارجة .

ويستطرد المنزلاوي في حديثه قائلاً : لقد أمضيت عنده

خمس سنوات من أكتوبر سنة ١٩٣٥ الى أكتوبر سنة ١٩٤٠
أمام المحاكم الجزئية ثم المحاكم الابتدائية ، فلما قيدت في
أواخر سنة ١٩٤٠ في الاستئناف العالى رأيت أن اختار مكتبا
بجواره في نفس المنزل حتى تستمر الصلة بينى وبينه • وكنت
أستعين بآرائه في بعض القضايا التى أوكل فيها • وكان يعيننى
أيضا ببعض من يعملون معه في مكتبه ويسره ذلك •

وظلت صلتى به قائمة عندما كنت عضوا باللجنة الادارية
للحزب الوطنى التى كان يرأسها حافظ رمضان وكنت اقابله في
جلساتها وفي الاحتفالات التى يقيمها الحزب في المناسبات
الوطنية •

وأذكر أن ممن كانوا يعملون معه في ذلك الوقت أحمد زكى
محمود وحسين كامل وكمال رضا وكثيرين ، وقبلها تمرن عنده
محمد على رشدى الذى أصبح وزيرا للعدل والدكتور محمد
زهير جرائه الذى أصبح وزيرا للشئون الاجتماعية والمواصلات
وغيرهما •

وكانت القضايا التى يتولاها الرافعى بنفسه يقوم باعداد
مذاكراتها • أما القضايا التى توزع على المحامين تحت التمرين
بمكتبه فكانوا هم يعدون لها المذكرات ثم تقدم اليه لمراجعتها
وتعديل ما يرى تعديله فيها » (٣٦) •

أما المستشار حلمى شاهين الذى عمل بمكتب الرافعى منذ سنة ١٩٤٠ عقب تخرجه فيقول : « كان الرافعى يرفض قبول القضايا التى يراها لا تتفق مع ميوله واتجاهاته وبالتى يمكن بكلمة واحدة أن يحكم فيها بالبراءة كبطلان تفتيش أو توقيع غير صحيح أو طلب إحالتها الى خير • وبالإضافة الى أنه لم يكن مغال فى أتعابه ، حدث أن اتفق مع سيدة فى قضية دعوى تعويض عن وفاة ابنها المضيف بشركة الطيران البلجيكية بالقاهرة فى حادث عندما اصطدمت سيارته وهو فى طريقه الى عمله بمطار القاهرة ليلا بسيارة نقل محملة بأسياخ حديدية تابعة لاحدى شركات النقل لوقوفها فى الطريق دون اضاءة • وقدمت له من الأتعاب خمسين جنيها على أن تسدد ثلثمائة جنية بعد الحكم • وصدر الحكم بتعويضها بثلاثة آلاف جنية ، وعرض على السيدة أن تستأنف الحكم حيث استأنف الخصوم أيضا ، وصدر حكم الاستئناف برفع التعويض الى سبعة آلاف جنية ، فقامت معها بتنفيذ الحكم واتفقت معها الى رفع الأتعاب الى ألف جنية واستقطعت ودخلت على الرافعى بمكتبه أقدم له المبلغ الا أنه ثار فى وجهى قائلا : - ايه ده يا أستاذ اللى أنت بتعمله ده ، رجع الفلوس لها تانى احنا ح نشترك فى دية ابنها ، فقدت ابنها وحيدها على خمس بنات تستكثر عليها سبعة آلاف جنية ، رجع لها الفلوس تانى • • احنا مشرح ناخذ الا الثلثاية جنية اللى اتفقنا عليها !

ويستطرد شاهين ان من وفاء الرافعى لأصحابه انه كان يترك قضايا بالقاهرة وينتقل للمنصورة للدفاع عنهم بلا مقابل ، ونفس المسئولية يقدمها مجاناً لأعضاء الحزب الوطنى ! وقد أثرت يوماً هذا الوضع فسألته لم لا تكف عن الاستمرار فى هذه القضايا التى تتعب فيها بلا مقابل ؟ فكان رد الرافعى بسيطاً :
احنا مش بنزكى عن أنفسنا يا سيدى بدل ما ناخذ فلوس ونصرف الفلوس زكاة أدى احنا بنطلع زكاة قضايا علشان مش قادرين نطلع زكاة فلوس ! وكان الرافعى محامياً للأمير محمد على توفيق ولى العهد فى آخر أيام أسرة محمد على مقابل خمسين جنيهاً شهرياً يترافع عن قضايا من الاسكندرية حتى أسوان ، ولم يجد فى قبوله لهذا الأمر أى أساس بوطنيته . ويوماً أثرت موضوع ضالة المبلغ مقابل ما يبذل من جهد فما كان من الرافعى أن رد :

— احنا مش شاتمين ومهاجمين أبوه الخديو توفيق أنت عايز الناس يفتكروا ان احنا بنغير رأينا .. لا .. لا .

ويذكر شاهين عن هذا الجانب ، ان صالح جودت روى له يوماً انه التقى بالأمير محمد على توفيق .. وسأل صالح الأمير كيف يتعاون مع الرافعى فى الوقت الذى هاجم فيه المؤرخ أسرة محمد على ؟ فكان جواب ولى العهد :

— لادى راجل دوغرى • رجل نزيه • أنا اللي بضحك
عليه مش هو دا أنا بديله خمسين جنيه فى الشهر وأنا بشغله
زى ما أنا عاوز !! »

ومن الطرائف التى يرويها عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته
عن تشابه الاسماء وعمله بالمحاماة « وقد حدث فى سنة لا أذكرها
ان قرأ صاحب قضية هامة فى الصحف نبأ تعيين عبد الرحمن
الرافعى بك رئيساً لنيابة مصر ، فانزعج لهذا الخبر ، وكنت
وكيله فى هذه القضية ، وكانت فى آخر مراحلها ، وظن أنه
سيعتذر على أن أترافع فيها فى اليوم الموعد بعد تعيينى رئيساً
للكل نيابة ... وراح يبدى دهشته ويقول : كيف يقبل الرافعى
ان يكون رئيساً للنيابة وهو الذى اعتذر عن منصب الوزارة ؟
وهرول الى مكتبى يسأل عن الخبر ليطمئن على قضيته ، فرآنى
على مكتبى ، وأطمأن بعد أن فهم أن رئيس النيابة هو ابن
عمى » ص (٦٣٠) •

لم يعرف عن عبد الرحمن الرافعى تخففه من المشاركة
فى عالم المحاماة وتقابة المحامين التى لم يتخلف فى معظم الأحيان
عن حضور اجتماعاتها حتى عندما كان مكتبه فى الاقاليم • وفى
عهد حكومة على ماهر — زميل كفاحه — دب خلاف بين أعضاء
مجلس نقابة المحامين فصدر قرار بحل المجلس فى ديسمبر

سنة ١٩٣٩ • وتم تعيين مجلس جديد يمثل كافة الأحزاب وكان
الرافعى من أعضائه وكيلا له •

ومر عام وأجريت الانتخابات الجديدة للنقابة واتفق
المحامون من مختلف الأحزاب السياسية مع الرافعى على ترشيحه
وكيلا واطمأن هو الى ان جاء يوم الانتخاب ، لكن المحامين
الوفديين اسقطوه (٣٧) !

تعرضت حكومة الثورة فى العام الخطير ١٩٥٤ الى معارضة
شديدة من المحامين الذين كرهوا الديكتاتورية وتكتلوا فى
النقابة ، وقد حاول المسئولون تغيير ذلك بالحصول على تأييد
مجلس ادارة النقابة ذات الأغلبية الوفدية ولكن باءت المحاولة
بالفشل • وتصاعدت الأزمة بين الطرفين واجتمعت الجمعية
العمومية لنقابة المحامين بصفة غير عادية فى يوم الجمعة
٢٦ مارس ١٩٥٤ وقررت مطالبة حكومة الثورة بالعودة الى
ثكناتهم وترك السياسة للسياسين ، فكان رد الحكومة حل نقابة
المحاميين فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٤ واختيار عبد الرحمن الرافعى
نقيبا (٣٨) •

ويروى المستشار حلمى شاهين ذكرياته عن الاختيار •
أن حماه تعمد ان يختار التشكيل الجديد لمجلس النقابة من
النقباء والأعضاء السابقين بالنقابة ليمثل كافة التيارات •

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى وهو نقيب للمحاميين ،
فى اجتماعات المكتب الدائم للمحاميين العرب ببيروت فى
ديسمبر سنة ١٩٥٥ وفى مؤتمرهم بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٥٦ •
وقد بلغ من اهتمام جمال عبد الناصر بما أداه الرافعى ، ان حضر
احتفالهم هذا وقام النقيب بتقديم المحامين العرب اليه ، وفى
العام التالى كان الرافعى ضمن المدعوين فى مؤتمر المحامين
بدمشق •

وزيراً :

منذ أن أبعد عبد الرحمن عن الحياة السياسية سنة ١٩٢٦
لم يندمل الجرح الذى أصابه من حزب الوفد ، فاستمر طوال
حياته يثير ما يشفى غليل صدره نحو حزب الأغلبية •• وعندما
أعلنت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى وقعها الوفد مع الانجليز عكف
على ابداء رأيه نحوها ونشره فوراً •

ومع ان الحزب الوطنى كان يشكل أقلية ضئيلة لا تكاد
تشارك فى الحياة السياسية المصرية ، الا ان الرافعى ظل يكتب
ضد المعاهدة ويتناولها فى كل مناسبة ويعرض لها أيضاً ابان
عضويته بمجلس الشيوخ •

وحدث فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ ان طلب حسين سرى من
عبد الرحمن الرافعى الاشتراك فى الوزارة التى يقوم بتأليفها ،

فما كان من الأخير وطبقا للنظام المتبع بالحزب الوطنى ، الا أن عرض هذا الأمر على اللجنة الادارية للحزب ، والتي قررت عدم موافقتها على اشتراكه لأن الحرب الثانية قائمة والوزارة ستنفذ معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واعتذر الرافعى (٣٩) •

وتمر تسع سنوات ، لنفاجأ بتغيير موقف الرافعى من الاشتراك فى الوزارة ! فيقبلها بعد أن كان يرفضها ! والحال هو الحال ! حدث ذلك عندما يعرض عليه للمرة الثانية ، حسين سرى فى صيف سنة ١٩٤٩ الاشتراك فى الوزارة • وبدون الرجوع للجنة الادارية للحزب الوطنى • يكتب مؤرخنا فى مذكراته عن الحوار الذى دار بين حسين سرى وبينه • • « واستوضحته برنامج الوزارة فأفهمنى انها وزارة قومية تعمل على توحيد الصفوف وائتلاف الأحزاب واجراء انتخابات حرة • الا توافق على ذلك ؟ قلت : بل أغتبط به وأؤيده ، ولكن ما هو موقف الوزارة تجاه معاهدة سنة ١٩٣٦ ؟ فقال : انى اعتبرها غير قائمة لأن البلاد أعلنت ذلك ، وان وزارتى مع أنها وزارة انتقال فانها متمسكة بالجلاء ووحدة وادى النيل ، فقلت : على بركة الله اقبل » (٤٠) •

وأصبح عبد الرحمن الرافعى وزيرا للتموين يوم ٢٦ يولية سنة ١٩٤٩ ! لقد فعل الرافعى ما كان يدين به غيره • والتاريخ يذكر له أنه تزعم يوما الجبهة المعارضة فى الحزب الوطنى ضد

رئيسه حافظ رمضان عندما قبل الأخير الاشتراك في الوزارة سنة ١٩٣٧ ، وكرر ذلك سنة ١٩٤٠ لأنه لا يتفق مع مبادئ الحزب الوطنى الأساسية لقبول الوزارة في ظل وجود الاحتلال القابض على مقدرات الحياة المصرية • لأن الوزارات المشكلة جميعها لعبة بين أصابعه فكيف يقبل لنفسه ما رفضه لغيره ؟

والحقيقة ان عناد عبد الرحمن الرافعى ، هو المسئول عن ضربه عرض الحائط برأى اللجنة الادارية للحزب القائمة اسما لا فعلا كما أنه بلاشك كان في أعماقه تواقا الى التقدير من خلال الوزارة ، مع علمه الأكيد أن حسين سرى لم يكن صادقا فيما ادعاه من أن البلاد أعلنت عدم سريان المعاهدة أو من وقوفه ضد قوى الاحتلال •

وينشل الرافعى في اقناع الآخرين بموقفه وتورطه ومخالفته لمبادئ الحزب الذى يعد أحد قاداته • يقول مؤرخنا في مذكراته الشخصية أن زوجته نفسها سألته نفس السؤال الذى كان يردده الجميع ولا يزالون يرددونه وهو : لماذا قبل الوزارة بعد أن سبق له رفضها ؟ فقال : ان الظروف تغيرت لأن برنامج الوزارة الجديدة لا يتعارض مع مبادئنا ، ومع ذلك فان الأمر لا يزال في دور المشاورة فماذا ترين ؟ قالت : أنى أرى ما تراه ، فلتقبل على بركة الله ، فارتاحت نفسى لهذا الجواب •

وعندما يسأله محمد إبراهيم جمعه نفس السؤال ، ولماذا
اذن كان ينكر على حافظ رمضان دخول الوزارة اجابه : « ان
الظرف الذى دخل فيه حافظ رمضان الوزارة يختلف عن الظرف
الذى دخلت فيه ، لأن الوزارة السابقة كانت تبحث أمورا سياسية
مع السلطة العسكرية الانجليزية فى الوقت الذى كانت فيه
الوزارة التى دخلتها ادارية بحثه المقصود منها اصلاح حال
كثير من النواحى ومنها التموين الذى توليته لأن المواد الغذائية
كانت تباع لاسرائيل عبر السودان » (١١) •

ولا يمر هذا الحدث بهدوء ، أو عند مجرد عدم الموافقة ،
فيطالب كبار رجال الحزب مثل محمد محمود جلال ومحمود
العمرى وغيرهما ، الرافعى بالاستقالة فورا • ولكنه لا يقبل •
ويعتب هو على ذلك بقوله فى مذكراته : « ولم يقنعانى برأيهما ،
ولا أقنعتهم برأى ، أما نظيرتى فهى أن الأمر مرجعه الى برنامج
الوزارة وسياستها ، ورأيت فى نظيرتهما تشددا لم أقره ، وأنا
بطبعى أميل الى الاعتدال ، وأراه أقرب الى نشر الدعوة الوطنية
واجتذاب الأنصار اليها ، ومع اختلافى وإياهما فى رأى فقد
حفظت لهما خالص الود والتقدير » (ص ١٣٣) •

على أية حال ، فإن من الأعمال التى قام بها وزير التموين
عبد الرحمن الرافعى ، اهتمامه بالمشاكل الشعبية • فعندما تعمدت
شركة السكر انقاص المقررات على المواطنين مع تأخير ارسال
الكميات فى حينها ، أصدر قرارا وزاريا رقم ١٤٤ بتاريخ

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نشر في نفس اليوم بالجريدة الرسمية ،
لتنظيم التوزيع ومعاينة عضو مجلس ادارة الشركة ، فانتظمت
الأمور • وعندما حاولت شركات الغزل والنسيج رفع أسعار
منتجاتها لشكواها من مزاحمة الأقمشة الأجنبية ، منعها من تنفيذ
طلبها وقرر مجلس الوزارة زيادة التعريف الجمركية على الأقمشة
المستوردة •

وقد اهتم الرافعى بالقيام بجولات تفتيشية على المحلات
كلما اتيح له الوقت بذلك فى القاهرة والاسكندرية •
ولم تستمر وزارة حسين سرى فى الحكم الا ثلاثة شهور
وبضعة أيام واستقالت فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٩ بعد ان عصفت
بها التيارات السياسية !

مخاضا :

ومن أنشطة الرافعى •• المحاضرة • ودعى كثيرا للمساهمة
فى القائها • كما استفادت الاذاعة المصرية بأحاديثه وأغلبها فى
المناسبات السياسية •• وبدأت فى فبراير سنة ١٩٤٠ فى ذكرى
مرور اثنين وثلاثين عاما على وفاة مصطفى كامل ، واستمر فى
ذلك حتى سنة ١٩٥١ •

ودعاه معهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٤
لتقديم مقرر دراسى فى التاريخ الحديث لطلابه • كما أشرف
الرافعى على عدة رسائل جامعية •

أخلاقه :

ولتربية عبد الرحمن الدينية فضل وتأثير كبير في تدينه واعتماده دائما على الله مما خفف عنه كثيرا الأحداث القاسية التي مرت به • وكان يحب أن يتمثل بيت الشاعر أبي تمام في قوله :

على انها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولاشك ان من هذه الأحداث عدم تخصيص الزعيم سعد زغلول سنة ١٩٢٦ دائرة مركز المنصورة لعبد الرحمن الرافعي كما فعل الآخرين من الحزب الوطني ، فلم يتقدم للترشيح لمجلس النواب ويقول في مذكراته : « أصبت في حياتي بصدمات كثيرة لا أريد أن أشغل القارئ بها • على أن أشد صدمة أصابتنى وقعت لي سنة ١٩٢٦ • كانت هذه السنة في مجموعها فوزا للأمة ، وقد تحدثت عن تفاصيل هذا الفوز في الفصل الحادى عشر من كتابى (فى أعقاب الثورة - ج ١ - تحت عنوان اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه وعودة الحياة الدستورية) أما بالنسبة لى شخصيا ، فكانت السنة صدمة بل محنة كادت تؤدى بى لولا أن أعاننى الله عليها بالصبر والثبات » (ص ٥٧) •

وفى جانب آخر من مذكراته يقول الرافعى : « حرمت طيلة حياتى من معاونة الغير لى ، لم أجد معاونة لى فى أعمالى

ومشروعاتي ومنهجي في الحياة ، لا من المجتمع ، ولا من الحكومات ، ولا من الهيئات ، ولا من الأفراد (الا القليل منهم) • كل كفاحي أو معظمه كان يسير بلا سند الا من معونة الله ، لم أنل من المجتمع ولا من الحكومات أى علامة تقدير لأعمالي ، لا أقول هذا طعنا في المجتمع ، بل تقريراً للواقع ، وتحديثاً بنعمة الله ، نعمة الصبر ، ويلزمني أن أعترف بأنني ، الى جانب حرمانى من التقدير ، واجهت عقبات وتنكرا وجحودا من هنا ومن هناك ، وعلام كل هذا ؟ لا أدري اذا كنت على حق يتنكر له الناس ، أم على باطل يتولى الناس تقويمه ، على كل حال ان اعتقادي أنني على حق وأنني كنت مغبونا في قومي • قد أكون مخطئا في اعتقادي ، ولكنهم يقولون : لكل مجتهد نصيب ، ان أخطأ فله أجر واذا أصاب فله أجران » (ص ٩٠) •

وكان للرجل جلد كبير في تحمل قضاء الله وقدره ، يروى المستشار حلمي شاهين » عندما اختار الله وحيدته لم يبك وان كان حزنه عليه شديدا ، وحدث بعد تقبله للعزاء ان اعتكف في حجرته ودخلت عليه زوجته ، وفوجئت به يستمع الى الراديو فما كان منها الا أن اتهمته في عاطفته • ولم ينبس الأب المكلوم الا أن يقول : انها ارادة الله • وفي اليوم التالي ذهب الى مكتبه يباشر عمله كالمعتاد » •

وحادث آخر يعكس هذا الايمان .. مرض عبد الرحمن الرافعى بالشلل وعرضت عليه رئاسة الجمهورية العلاج بالخارج على نفقة الدولة . فرفض ! لسببين يعكسان بعض عناصر تكوينه بقوة : الأول ان ارادة الله واحدة فلا فرق أن يكون العلاج بالداخل أو الخارج ، والثاني ان اقتصاد مصر سنة ١٩٦٤ فى حاجة الى النقد الأجنبى الذى سيصرف عليه !

كان شديد الحياء خجولا الى أبعد الحدود ، قال اسماعيل يبرس عنه انه كان يخجل اذا سمع كلمة نائية ، فيحمر وجه هذا الرجل الكبير ! ومصادقا لذلك انه فى ابان عضويته بمجلس الشيوخ بجلسة ١٧ أبريل سنة ١٩٤٠ ، طالب بانخراط أبناء الأغنياء لا أبناء الطبقات الفقيرة وحدها فى التجنيد بالقوات المسلحة . وهاجمه الأعضاء ، وعلقت جريدة البلاغ فى عددها الصادر فى اليوم التالى تحت عنوان (الأغنياء يحتجون) بالقول : « وما كاد الشيخ عبد الرحمن الرافعى يذكر الأغنياء ويغادر المنبر حتى تلقته صيحات الشيوخ من كل جانب فى ضجيج وعجيج . فأحمر وجه الشيخ وقال وهو يخرق الصفوف الى مكانه .. قولوا للى تقولوه : لازم الأغنياء يتحملوا جه دورهم ! » (٤٢) .

وامتاز عبد الرحمن الرافعى بالاصرار فى آرائه وتفكيره ما دام يراها صحيحة ، فلم يكن من السهولة اقناعه برأى يخالفه ، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى مذكراته .. ورأى فى المعاندة

عيبا ولكنه لم يستطع التخلص منه • كما كان غير اجتماعي مع
انه محام مشهور ولم يبق الصلة بالناس (٤٣) •

يكتب فتحى رضوان عن اتزان الراقى قائلا : « كانت
حياة مصطفى كامل كالسور القصار فى القرآن ، آيات قصيرة
سريعة موسيقية ، وكانت حياة محمد فريد كالسور الطوال ،
تفصل وتشرح وترسى القواعد ، وتوصل الأصول ، وكان
عبد الرحمن الراقى أقرب الى هذا المزاج وأشبه به • فلم يكن
أسلوبه فى الكتابة ولا منهجه فى الكلام أو المرافعة أو الخطابة ،
ولا سعيه فى الحياة متوهجا حماسيا ، رنانا يخطف الأبصار
بريقه ، ويستوقف الاذان وقعه • فاتصلت أسبابه بأسباب
محمد فريد واقترب منه كثيرا » (٤٤) •

ومن السمات البارزة فى شخصيته انه جبل على حسن
الظن بالناس ، دون الحذر منهم بالرغم من تعرضه مرات
عديدة لشُرهم ، فلم يقو على تغيير طباعه • كما انه كان مثاليا
لا يؤمن بالواقع الحقيقى ، حتى فى الناحية السياسية ، وكانت
النتيجة الطبيعية ان صدمه الواقع كثيرا •

وعرف الراقى بالحفاظ على كرامته وكبريائه مهما كلفه
ذلك وكان الذين حوله يعرفون عنه هذا التعصب بالنسبة
الى كرامته ، ومن الحكايات التى تروى فى هذا الصدد ،

ما يقوله حلمى شاهين : ان مصاريف علاج حماه من الشلل كانت باهظة التكاليف ومستمرة .. وبعد ان رفض العلاج على نفقة الدولة ، وفكرت الأسرة فى أن تحصل له على معاش استثنائى قدر بمائة جنيه شهريا . وبناء على طلب الأسرة لم ينشر القرار بالصحف ! ولما كانت هناك اجراءات رسمية تحتاج الى توقيعه على المستندات ، وخشية أن يعرف عبد الرحمن الرافعى بالأمر وعيناه تطالعان البيانات فيرفض المعاش ، أوهم أن الدولة قررت اعادة طبع مؤلفاته وستدفع مقابل ذلك عائدا شهريا قدره مائة جنيه ، ويلزم الأمر توقيعاته على استمارات طواها عندما قدمها اليه . وبعد ان حمل الرافعى القلم سأل زوجته : هل قرأت البيانات ؟ ولم يوقع الا بعد أن أجابت بالإيجاب . وتوفى الرجل من غير أن يعلم ان الدولة قد منحتة معاشا استثنائيا !

منهجه :

يقول عبد الرحمن الرافعى فى أحد كتبه وهو « فى أعقاب الثورة المصرية » : « قصدت فى كل ما كتبت وجه الحق والصدق ، والمؤرخ فى طبيعة رسالته يشبه أن يكون قاضيا ، يفصل فى القضايا التاريخية التى يعرض لها ، وعليه أن يقتبس من القاضى روح العدل الذى يستلهمه فى قضائه ، فكما ان واجب القاضى ان لا يجمال فى الحق أحدا ، ولو كان أقرب الناس

اليه ، ولا يتحامل على أحد ، ولو كان أبغضهم الى نفسه ، فعلى من يتصدى لكتابة التاريخ أن يتحرى الحق والانصاف ، ويتجنب المجاملة والمحاباة أو التحامل فيما هو بسبيله ، هذا ما اتجه اليه قصدي ، وانهقدت عليه نيتي * « وانما الأعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى » (٤٥) *

هذا القصد يحمل بعض منهج مؤرخنا الكبير ، ولكن هل التزم عبد الرحمن الرافعي به ؟ كلا .. غالبا ! ويرجع ذلك بالدرجة الأولى الى تربيته السياسية منذ صباه في أحضان الحزب الوطنى وتلمذته المباشرة على الزعيم الأول والثانى للحزب ، مصطفى كامل ومحمد فريد *

والتماس الرافعى نظرة الحزب الوطنى فى الحكم على الشخصيات والأشياء ، طبع تاريخه بمسار خاص * ومن أشهر هذه المواقف اداته لعرابى بالخيانة كما فعل الزعيم الشاب * يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه : « .. وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين الى أن نأخذ على مصطفى كامل انه شوه كثيرا من سمعة عرابى ، ونظر اليه على انه خائن لبلاده ، وعبرت مقالاته تحت عنوان (عرابى أمام التاريخ) عن هذا المعنى فى صراحة تامة » (٤٦) *

وكذلك موقف الحزب الوطنى والرافعى الرافض من

الدعوة الى السفور التى قام بها قاسم أمين ، فقد كان رأى
الحزب ان لا تتسرع المرأة المصرية فى محاكاة المرأة الأوربية بترك
الحجاب ، ومن ثم هاجمه كثيرون فى جريدة « اللواء » هجوما
شديدا •

واهتمام الرافعى البالغ بمعلميه الوطنيين - مصطفى كامل
ومحمد فريد - جعله يرفعهما فى كتاباته الى مصاف الآلهة ،
متجاهلا عيوبهما !

وقد اتسم منهج الرافعى أيضا : باختيار اللون الواحد ،
وهو الخير غالبا ، كأن دعوة مؤرخنا المثالية تتحقق بذلك !
وعدم التزام الجيدة فى كتاباته ، فمجد أعمال الحزب الوطنى
باستمرار حتى بعد أن أصبح حزب أقلية ، ولم يكتف بذلك ••
بل جعل هذا التمجيد على حساب الأحزاب الأخرى • وناصب
العداء فى أغلب الأحيان حزب الأغلبية وهو حزب الوفد •

اقتصر فى معالجته التاريخية على الجانب السياسى وقليل
على النواحي الاجتماعية والاقتصادية والفنية والتعليمية ••
مما جعل كتابته تبدو مبتورة الملامح ، خاصة فى الأحداث
التي عاصرها • واعتمد كثيرا على الصحف المصرية ، وهى كما
نعرف لم تكن حرة فى أغلب حياتها فى التعبير عما تريد ، كما
ان الأقلام الصحفية المرتزقة لقصر الدوبارة أو لقصر عابدين
كان لها الغلبة فى تسويد الصفحات !

وقد دون الرافعى الأحداث فى كثير من الأحيان دون التعليق على أسبابها ومسبباتها .. وأغفل متعمدا تدوين الجمعيات السرية والبطولات الفدائية ، خاصة التى شارك هو فى الاسهام فيها .

كما اتسم منهجه بأسلوب النصيح والارشاد !

ومما يؤكد أيضا عدم التزام مؤرخنا بالحياد فى كتاباته ، ما رواه مؤخرا أنيس منصور « كانت لنا أيام .. فى صالون العقاد » وهو يحكى مجيء عبد الرحمن الرافعى لحدى ندوات العقاد واسهامه فى الحوار ، وقوله باستحالة حياد المؤرخ .. « قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : ولكن هذا مستحيل .. ان هذا يشبه أن نقول للشاعر لا تكن عاطفيا .. أو نقول للرسام لا تكن حساسا .. أو نقول للمطرب لا تهتز أثناء الغناء .. ان المؤرخ اذا قال لنفسه .. يجب أن أنشد الصديق والعدل فى كل ما أكتب . فهذا رأى وهذا عهد .. وعلى ذلك فهو رجل أخلاق يريد أن يجعل من التاريخ درسا وموعظة وعبرة ، والا فما هى فائدة كتابة التاريخ ؟ .. لابد أن تكون هناك فائدة من الكتابة .. الفائدة هى الهدف . والمتعة هى الهدف الثانى . والمتعة التى يجدها القارئ هى التحية التى يقدمها للمؤرخ أما الصديق فى التسجيل فهو التحية التى يوجهها المؤرخ للقيم الأخلاقية والوطنية .. وأنا لا أستطيع الا ان

أكون وطنيا أخلاقيا .. وأنا حين أسجل تاريخ مصر ، فأنا أكتب قصة حياة : أمي وأخوالي وأجدادي ، ومستقبل أولادي .. ولا بد أن أكون باراً بأمي ، محباً لآخواتي ، رحيماً بأولادي .. ولا أستطيع أن أكون محايداً إذا رأيت دم أمي يسيل .. أو إذا رأيت من يتآمر عليها .. وقد تكون هذه هي النزاهة العلمية .. ولكن لا أستطيع أن أكون منزها عن الغضب والحب والخوف .. قد لا أفزع إذا رأيت أحداً يذبح خروفاً .. ولكن كيف لا أفزع إذا رأيت أحداً يذبح طفلاً أو شعباً .. إن هذه النزاهة العلمية هي بلادة حسية ، وبلاهة قومية .. فما دمت أنت محباً فأنت مغرض .. وما دمت وطنياً فأنت مغرض .. ولكن غرضك هنا شريف .. إن التاريخ يقول لنا إن العالم الفرنسي شامبليون عندما اكتشف حجر رشيد كان يقبله .. ولو رآه أحد الناس دون أن يعرف من هو ، وما الذي يركع ويسجد أمامه لظنه وثناً يعبد صنماً .. إن حماسته العلمية قد جعلت منه عابداً لصنم .. عاشقاً لاكتشاف جديد .. وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشيء ما .. وأن هذا العشق الذي يوقظ وجدانه ، ويشعل فكره ، كثيراً ما يجعله يفقد عقله أيضاً » (٤٧) •

وفاته :

أصيب عبد الرحمن الرافعي في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ بشلل نصفي في الجانب الأيسر من جسمه ، وتناوب على علاجه مجموعة

من خير الأطباء • ويقول محمد ابراهيم جمعه انه قام بزيارته مع مجموعة من الأصحاب ، فوجدوه باشا ضاحكا حامدا ربه وقال لهم : لقد أحسست بهذا المرض عقب أكلة لذيدة وما كنت أدري أن بعض الطعام يضر كهذا والحمد لله انى مازلت أشعر بقوة الفكر والقدرة على الكتابة المريحة ! ولكن الأطباء منعوه منها الى أن يستطيع أن يقف على قدميه •

وكان الرافعى قد اعتاد هو ورفاقه من أعضاء الحزب الوطنى زيارة ضريح مصطفى كامل ومحمد فريد فى ذكرى وفاتهما • وعندما اكتشف فى أواخر سنة ١٩٣٩ تصدع ضريح الزعيم الشاب ساهم مع مجموعة من أصدقائه فى ترميمه • ولما انتخب عضوا بمجلس الشيوخ اقترح بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ تشييد مدفن جديد لمصطفى كامل الذى تم بالفعل اقامته فى أواخر سنة ١٩٤٩ فى ميدان صلاح الدين بالقلعة بالقاهرة ونقل اليه رفات صاحبه •

ولم ينس عبد الرحمن أستاذه الثانى فاقترح ابان عمله وزيرا للتموين بوزارة حسين سرى نقل رفات محمد فريد من مقبرته القديمة الى جوار مصطفى كامل فوافق مجلس الوزراء فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ على ذلك ونقل الرفات فى مشهد مهيب •

وكانت أمنية عبد الرحمن الرافعي أن يدفن بجوار أحبائه مصطفى كامل ومحمد فريد ، فلما توفاه الله في ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ اتصلت أسرته برئاسة الجمهورية لابلاغ وصيته ، فتقرر الاستجابة لرغبته • وشيعت جنازته الى مشواه الأخير ظهر اليوم التالي • ودفن الرافعي الى جوار الزعيمين وأعدت حجرة بالمتحف تضم مخلفاته منها المكتب والكرسي اللذان كانا يجلس عليهما في مكتب المحاماة وبعض الكتب بالاضافة الى عدة صور ثملة في مختلف أطوار حياته •

تكريم الدولة :

كرمته الدولة في حياته عندما رشحته لجنة التاريخ في المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية • وكان رئيسها وقالت لجنة الاختيار في حيثيات تقريرها : « انه المؤرخ الأول للحركة القومية في مصر فقد عكف على دراسة التاريخ وجمع وثائقه أكثر من ٣٠ سنة أخرج خلالها موسوعته التاريخية التي تضم ١٦ جزءا ، وكانت في موضوعها أول مرجع لتاريخ الحركة القومية يمكن الرجوع اليه باللغة العربية • وللاستاذ الرافعي أسلوبه الخاص في كتابة التاريخ وله صفاته المميزة فهو شديد العناية بالاستقصاء وجمع المادة التاريخية أمين في العرض صادق ضريح في الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته مهما كلفه ذلك • ولاشك أن الأسلوب الذي عالج به موضوعاته في

الوقت الذى ظهرت فيه مؤلفاته قد انطوى على قدر من الشجاعة لا يتصف به الا الجهابذة الصادقون من المفكرين ، ومن صفاته المميّزة له اعتزازه لقوميته وغيّره على سمعتها وكرامتها وتحمسه للمواقف التاريخية المجيدة التى وقفتها القومية العربية ضد المستعمرين وأعوانهم » (٤٨) • فمنحته الدولة جوائزها التقديرية للعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١ •

كما كرمه الرئيس السادات أيضا ، بمنحه فى ٢٩ مايو سنة ١٩٨٠ قلادة الجمهورية تقديرا لدوره وجهوده فى مجال المحاماة وكتابة تاريخ مصر •

المراجع

- ١ - الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٧ ط ١ ص ٥٢ .
- ٢ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ٦ .
- ٣ - المرجع السابق ص ٥ .
- ٤ - أحمد أمين : حياتي ط ٣ ص ٢٣ .
- ٥ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ٧ .
- ٦ - المرجع السابق ص ١٠ .
- ٧ - حديث خاص
- ٨ - صبري أبو المجد : أمين الرافعي ط ١ ص ٧ ، ٨ .
- ٩ - المرجع السابق ص ٤٩ .
- ١٠ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٧
- ١١ - حديث خاص
- ١٢ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٤٨ .
- ١٣ - المرجع السابق ص ٣٧ .
- ١٤ - الأخبار عدد ٢٠ أغسطس ١٩٧٤ .

- ١٥ - حديث خاص مع المستشار حلمى شاهين .
- ١٦ - العلم عدد ١٢ ابريل ١٩١٢ .
- ١٧ - عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ط ٣ ص ٢٥٨ .
- ١٨ - المصور عدد ١ نوفمبر ١٩٦٩ .
- ١٩ - الدكتور محمد حسين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٥٢ .
- ٢٠ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ص ٤١ .
- ٢١ - عبد الرحمن الرافعى : محمد فريد ص ٤٤٩ .
- ٢٢ - الدكتور يونان لبيب رزق : الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ط ١ ص ٢١ .
- ٢٣ - محمد زكى عبد القادر : لجنة الدستور (١٩٢٣ - ١٩٥٢) ط ٢ ص ٣٨ .
- ٢٤ - الأهرام عدد ١٥ سبتمبر ١٩٧٨ .
- ٢٥ - حديث خاص مع محمد ابراهيم جمعة
- ٢٦ - حديث خاص .
- ٢٧ - عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ٢ ط ١ ص ٢١٤ .
- ٢٨ - المصور عدد ٨ أغسطس ١٩٨٠ .
- ٢٩ - عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ط ١ ص ٥٥ .
- ٣٠ - حديث خاص

- ٣١ - حديث خاص
- ٣٢ - حديث خاص
- ٣٣ - التيجاني عامر : السودان تحت الحكم الثنائي ج ١
ط ١ ص ٧٩ .
- ٣٤ - عبد الرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ٣
ط ١ ص ٢٤٦ .
- ٣٥ - المرجع السابق ص ٢٥٠ .
- ٣٦ - حديث خاص .
- ٣٧ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١١١ .
- ٣٨ - عبد الرحمن الرافعي : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ص ١٣٦ .
- ٣٩ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٠٩ .
- ٤٠ - المرجع السابق ص ١٣٢ .
- ٤١ - حديث خاص .
- ٤٢ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان ط ١
ص ١٥٢ .
- ٤٣ - الهلال عدد سبتمبر ١٩٥١ .
- ٤٤ - فتحي رضوان : مشهورون منسيون ط ١ ص ٨٠ .
- ٤٥ - عبد الرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ١
ط ١ ص ٥ .
- ٤٦ - الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في
مصر ج ٥ ط ١ ص ١٦١ .
- ٤٧ - أكتوبر عدد ١٦ أكتوبر ١٩٨١ .
- ٤٨ - آخر ساعة عدد ٧ ديسمبر ١٩٦٦ .

كتابات الصحفي الأولى

١

كان من الضروري لمواجهة الاحتلال البريطاني والاعية
الكثيرة واصطفائه للأصدقاء والأعوان وأجهزة الاعلام ان توجد
صحف وطنية تقدم وجهة النظر الحقيقية والقومية للمواطن
المصري « الغلبان » الذي يتعرض قبل غيره لكل ضغوط
الاستعمار . . والذي كانت قضية حتمية للتيار الوطني أن يتصدى
أعلاميا لهذه المؤامرة ، ومن هنا ظهرت الحاجة الى ضرورة
اصدار صحف وطنية تقوم بهذه المهمة .

والحقيقة أن مصر باتت منذ أن استولى عليها الاتراك
العثمانيون ولاية عثمانية يدين أهلها بالولاء وترنوا أفئدتهم الى

الآستانة بوصفها مقر الخليفة العثماني • وعندما احتلتها إنجلترا سنة ١٨٨٢ أصبحت سياسة الأخيرة قائمة على قطع السيطرة العثمانية • واستمرت بعض الصحف تقف الى جانب السلطان ضد الانجليز مثل « البرهان » و « الأهرام » و « المحروسة » • كما ساعدت الدولة العثمانية على اصدار صحف بمصر مثل « القاهرة اليومية » و « القاهرة الحرة » و « الفلاح » و « الصادق » • بينما كانت جريدة « المؤيد » على العكس من ذلك ، تدعو الى أن تكون مصر للمصريين ، والعمل على قطع العلاقة بالدولة العثمانية لما جرت به على البلاد من خراب • وقد سعد الاحتلال بهذا الاتجاه الجديد وعمد هو من جانبه على تشجيع الصحف الأرمنية في مصر ومساعدة اليهود على اصدار صحفهم وتأييد الصحف المصرية المؤيدة له « كالمقطم » و « النيل » لمناوأة الدولة العثمانية •

وازاء هذه التيارات المتصارعة في البلاد « أدركت الصحافة منذ دخول الانجليز - على أقل تقدير - ان عليها واجبات وطنية لا بد لها من القيام بها فكان عليها أن تدافع عن المصريين في الميدان السياسى وتتصدى لمقاومة المحتلين ، وتهاجم سياسة التعليم التى وضعها الانجليز وأن تقوم باصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم ، وكان عليها أيضا أن تدافع عن اللغة العربية على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية

التي يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية والشخصية
الأوربية » (١) •

٢

ولم تعد مصر من وهب حياته لايقاظ أبنائها من سباتهم
العميق وتقويض دعائم الاحتلال التي منيت به البلاد .. وسطع
في سمائها منذ سنة ١٨٩٤ نجم مصطفى كامل بعد حصوله على
ليسانس الحقوق من جامعة تولوز الفرنسية ، فأشعل الأفئدة
المصرية بخطبه الوطنية ، وأدلى بأحاديث في مختلف الصحف
الأجنبية ، وكتب في الصحف المصرية المهتمة بالقضية كالأهرام
و « المؤيد » (٢) ، وساح في أوروبا وزار البلاد المحبة للحرية
للدعوة لقضية بلاده •

ووجد مصطفى كامل أن السبيل لاشعال جذوة دعوته
باستمرار حتى لا تخمد نارها هو اصدار جريدة يومية ، وقد
كانت هذه الفكرة هي التمهيد لاصدار مجلة شهرية وجريدة
أسبوعية وجريدتين أحدهما بالفرنسية والأخرى بالانجليزية •
« وقد رأى الفقيد أن لا بد له من جريدة يومية يتصل بالرأى
العام بواسطتها باستمرار ، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم ،
ثم تكون علماً للحركة الوطنية التي بعثها واقتاد زمامها ، وقد
اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء) ، فكان اختياراً موفقاً ،

اذ كان اللواء هو الراية التى التفت حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته ، وبعد وفاته ، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيه وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية . . . وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ) . . . وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء) ، وهى مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التى تنشر فى جريدة اللواء اليومية ، وصدر العدد الأول منها فى فبراير سنة ١٩٠٠ ، وفى ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الاسلامى) كان ينشر فيها المقالات والأخبار التى تهتم الأمم والدول الاسلامية ، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوروبية عن العالم الاسلامى . ولما بات من الضرورى أن يطلع رأى العام الأوربى الأوربيون المقيمون فى مصر على حقائق الشئون المصرية وللدفاع عن حقوقها ، فقد أصدر مصطفى كامل أيضا فى مارس سنة ١٩٠٧ جريدة « ليتندار اجبسيان » باللغة الفرنسية وجريدة « دى اجبسيان ستاندر » باللغة الانجليزية ، وعقب وفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ تولى الزعيم محمد فريد هذه المهام الصحفية جميعا » (٣) .

وقد عايش الطالب عبد الرحمن الرافعى ابان دراسته العليا ما يحق بلاده من خطوب . ويجتذب طالبنا اهتمام صاحب

« اللواء » بمناهضته الاحتلال الانجليزى والوقوف ضد جرائم رجاله ومستشاريه وصناعائه من المصريين ، وتتفجر مشكلة بطلها دالوب مستشار التعليم الانجليزى لاصداره قرارا تنظيميا للامتحانات لمنع طلبة الحقوق من العمل بالسياسة . ويضرب الطلبة فى يناير سنة ١٩٠٦ ويسانداهم مصطفى كامل بقلمه ويفتح داره وصدره للطلبة ويلقاه الرافعى يوما مع زملائه وينفعل الرافعى بهذا الحادث ويكتب مقالته عن واقعة الأضراب ، يقدمها له لينشرها فى جريدة « اللواء » ويعجب بها الأخير ومع ذلك يحجم عن نشرها ، لا لعدم صلاحيتها كما يتبادر الى الذهن بل خشية أن يتعرض كاتبها للاضطهاد . يذكر الرافعى : « وكتبت مقالة عن هذا الأضراب ، ذهبت بها الى مصطفى كامل يوم رجوعنا الى الدراسة ، وكانت لهجتها شديدة ضد الاحتلال ، فقرأها الزعيم ، وأثنى على ، ولكن فهمت من حديثه أنه لا يرى نشرها ، حرصا على مستقبلى ، وكانت هذه المقالة (التى لم تنشر) بدء مراسلتى للصحف » (٤) .

٣

ومن خلال لقاءات الرافعى المحدودة بمصطفى كامل فى دار اللواء لسماع خطبه ومناقشاته اكتشف الزعيم الشاب فى الرافعى اهتماماته الوطنية المبكرة ووجد فيه « مريدا » يرجئ

له مستقبلا ناجحا في المجال القومي ، فشجعه على السير في طريقه وعرض عليه أن يوفده بعد تخرجه الى باريس لدراسة الصحافة ، ولكن المنية عجلت بوفاته قبل أن يتخرج الرافعي (٥) .

ولقد كان موت مصطفى كامل وحزن الرافعي عليه هو الباعث الأول لأن يكتب مقالته الأولى المنشورة التي قدمها اللواء وعنوانها « تبدد الشعور الوطني وتجمعه » مهرها بامضاء حقوقي ، أوضح فيها خواطره وآماله في الجهاد ورغبته في أن يستكمل النابغون من أهل العلم والفكر - وهو منهم كما اتوى - السير في الطريق الذي بدأه معلمه الزعيم الشاب « .. جئت مخاطب كل مصري يفكر ويشعر • من كان يشعر بمصائب بلاده ويتألم من وقعها ويريد لأمته استقلالها فليقرن الشعور بالعمل وليأخذ في زحزحة تلك المصائب واسترداد ذلك الاستقلال • فالعاطفة الوطنية اذا لم يصحبها العمل أصبحت عرضة للخمود اذا خمد المحرك لها والضامن الوحيد لها هو اتخاذها شكلا عمليا به ترسخ وتؤثر وتزداد قوة وشدة • يجب علينا أن نعتقد أن العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ في النفوس مكانة تلهم صاحبها الى - الاستقلال - وإثارة الموت على حياة في استعباد • تلك الغاية التي يجب أن يجرى اليها الشعور • فاذا نحن اجتزنا خطوات كبرى في شعورنا فمن المؤكد اننا لم نصل بعد الى تتيجته ما دمنا لانزال

راضين بأن نحيا والاحتلال فينا وذلك رغم تألمنا منه • هذه هي
الغاية الشريفة التي يجب على من يتألمون لحال بلادهم ان
يتكاتفوا على العمل لها بتقوية الشعور حتى يصل الى تلك
الدرجة القصوى • هذا التكاتف يولد ظهور الجمعيات التي
تعمل لتحقيق هذه الغاية • فالجمعيات أول مظهر عملي للشعور
الوطني الصحيح وأجل طريقة نخدمه بها ونحميه من العبث
والتبدد ••• » (١)

وفي النصف الثاني من عام ١٩٠٨ يترك الرافعي أسبوط
للقاهرة ويلتقى بالزعيم محمد فريد الذي يدعو الى العمل
محررا في جريدة « اللواء » فيسارع بالقبول سعيدا بأن يعيش
في البيئة التي يريد أن يتحرك فيها •

وابتدأ المحرر الجديد عمله بحماس شديد ، وكان أول
نشاطه عكوفه على الترجمة من الفرنسية التي يجيدها الى العربية
وقام بترجمة مقالات اسماعيل شيمى بك وهو أحد الوطنيين ومن
أصدقاء مصطفى كامل حيث ساهم مساهمة فعالة في تكوين
الحزب الوطني ويعد من خيرة المحامين المصريين الذين شاركوا
بجهدهم في الدفاع عن المظلومين • وقد تناولت الترجمة الحياة
السياسية في مصر في العقد الأول من القرن العشرين • يقول
مثلا عن تأليف وزارة بطرس باشا غالى في نوفمبر ١٩٠٨ بعد
استقالة وزارة مصطفى فهمى باشا الذي استمر في الحكم

اثلاثة عشر عاما ، وكذلك مدينا سياسة الوفاق مع الانجليز التي تؤكد ضياع حرية مصر . . » كنا نؤمل في أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، كنا نعمل لنثبت للعالم المتمدن كفاءتنا واستعدادنا ، ولكن حكم علينا الآن بأننا لا نستحق نعمة الدستور ، وهذا ما قاله الاحتلال على لسان السير جراى والسير جورست ، كنا نرتكن على عطف أميرنا المحبوب في حصولنا على الدستور ، ولكننا ما أصبنا وخاب أملنا ، فإن الاتفاق قد ساد في هذه الأيام ، نعم قد صرح الجانب العالى حاكم مصر والسودان الذى تعلقت به آمال سبعة عشر مليوناً من النفوس سكان هذين القطرين صرح بأنه لا يحكم الآن الا مع الاحتلال لا بدونه ، وأنى لا أتكهن في قولى هذا ، فسمو الخديو قد قاله في خطبته الأخيرة ، أن الأمير حر في أن يشرك في عرشه من يرضى عنه ، وليس لأحد الحق في أرجاعه عن رأيه ، ولكن بما أن بيننا وبين ذلك العرش طريقاً من ارادتنا لا يمكن اجتيازه فليكرم بمنحنا الحق في أن نعتبر كل اتفاق يكون أساسه التصرف في حريتنا ملغياً وباطلاً ، ان الاحتلال ينخدع كثيراً اذا ظن أن في استطاعته ان يقتل فينا كل رجاء في مستقبل حسن ، فإن محبة الأمير مهما عظم شأنه لا تختلف البتة عن محبة أى فرد ، واردة الفرد لا تتغلب على ارادة المجموع . تطالب الآن الأمة كلها بالاستقلال وسنقابل من الآن كل القوانين الصارمة التى لا يألون جهداً في سننها بالهتاف : ليحيا الاستقلال وليحيا الوطن كله واحداً

لا يتجزأ ، ولنتحين ساعة استقلالنا عاجلا أو آجلا ، فغايتنا شريفة ، وحقوقنا لا تسقط ولا تباع ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، فاذا أردتم أن تخضعونا خضوعا لا قائمة لنا بعده فاجعلوا مصر قبرا لأبنائها • لقد أصدر الاحتلال حكمه علينا ، وأمن الخديو على ما فعل ، ووزارة الوفاق قد تألفت ، فلا مناص من ذلك التنفيذ • فلنجتمع صفا صفا ، ولنشيع الحرية مارة في نعشها « (٧) !

وكانت كتابات اسماعيل شيمى بك المحامى آية في البلاغة ، فأجهد الرافعى نفسه في ابرازها في ترجمتها للعربية ، وقد اغتبط محمد فريد بهذه الترجمة عندما كان يراجع معظمها ، وأخذ يشجع صاحبها مما كان له بليغ الأثر في نفس الرافعى ودفعه الى المزيد من المعاناة (٨) •

٤

وكان يروق للصحفى الشاب أن يكتب عدة مقالات في موضوع واحد فينشر في الصفحات الأولى من « اللواء » في أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٠٨ سلسلة مقالات بلغت ست تحمل عنوان « آمالنا في الدستور » (٩) وقعها بخلاف مقالته الأولى باسمه « عبد الرحمن الرافعى ومتخرج من الحقوق » استهلها بقوله : « يتساءل الناس ماذا عسى يصير اليه أمر الدستور في

هذا العام بعد ما كثرت الأراجيف بأن ذوى الشأن متفقون على اهمال تلك المطالب التي ينشرها المصريون من صميم قلوبهم • يتساءلون هل صحيح ما يسمعون وان كان صحيحا فماذا نحن فاعلون ؟ ان الدستور حق طبيعي لكل أمة مهما تدلت أو ارتقت لأن مثله مثل الحرية الشخصية للأفراد يتساوى فيها العالم والجاهل والقوى والضعيف فاذا كانت قضيتنا قاصرة على تمييز المحق والمبطل لمان علينا الأمر ولسهل علينا نيل حقوقنا • لأن الفطرة تقضى بها والرسميات تقررها ولكن القضية أكبر وأعقد من ذلك بكثير • القضايا السياسية لا أهمية فيها للحق والباطل ولكن الحكم فيها معلق على مقدار تأثير كل عامل على غيره ، فالذى يسير القضية هو قوة التأثير لا قوة الحق اذا اشتبكت عدة عوامل في قضية سياسية قام التنازع بينها فسطت العوامل القوية على الضعيفة وسارت القضية قاصدة وجهة العامل الأقوى مهما كان بعده أو قربه عن الحق • كذلك الحال في المسألة المصرية » •

ويحدثنا في مقالته الثانية عن سياسة الاحتلال ازاء المسألة المصرية وظهور مقاومة الأمة « اذا منيت الأمة بالاحتلال الأجنبي واستبد في شئوننا أخذت ذاتياتها تنفى في أشخاص المحتلين الى أن تأنس الأمة من نفسها تفورا من الاحتلال يدفعها نحو تلمس الخلاص منه » •

ويشير في مقالته الثالثة الى أن هدف الاستعمار لا يتغير
مهما تغيرت وسائله ، والاحتلال لا يصادم ظاهريا الطبائع ،
« ورأس مال الاحتلال رضاؤنا عنه ، ان الذي ينقصنا هو أن
نغضب ممن يغتصب حقوقنا وأن نعرف كيف نغضب منه » .

ويعالج الرافعي في المقالة الرابعة ضرورة غضب الجماهير على
محتليها ، مبينا الصلة بين الألم والاستقلال بحسبان الأول كما
يعبر هو رأس مال الثاني ، وتأثير الألم في النفوس ، وحجم رأس
مالنا من الألم ، وفي أى دور نحن من أدواره ، والمحرك له :
« اذا نحن القينا بنظرنا الى تدرج الأمم في سبيل الاستقلال
رأينا ان الأمة التى لا تتألم من المستبد تؤاتيه في مطالبه فتتخلق
بأخلاق الذل والجبن والنفاق وهى الأخلاق التى يستلزمها
الانصياع لحكمه . فاذا هى ابتدأت تتألم منه أخذت عاطفة
الألم تحارب العيوب التى ألصقتها الحكم الاستبدادى بالنفوس
وكلما ازداد الألم شدة انهزمت العيوب أمامه الى أن تتطهر
القلوب من جراثيمها فيكسبها الألم قوة لا يسع المستبد مهما
بلغ بطشه أن يصادرها لأنها تيار طبيعى لا بد أن يأخذ مجراه
حتى يسكن من نفسه . . . ان المصائب والآلام خير أستاذ
للإنسان وخير سائق له في طريق الكمال » .

ويواصل الرافعي الحديث في مقالاته عما أصاب النفوس
بعد الاحتلال من خور وتفاق ورياء فما حركتها صيحات الدعاة

والمرشدين لنقص احساسها ، وما اهتم الكتاب بعلاج هذه الحالة بل بات أمرهم كتابة ما لا يبطنون ويراهم القوم من قمة الكتاب ، ويعتمد كاتبنا على الشباب في تغيير هذا الحال .. فلا تنهض بالأمم كما يقول الا القوى الفتية صاحبة الأرواح الكبيرة ويعنى بها الشخصيات النضالية الأصيلة • ويستعين بالاسلام ونبيه ورجاله في تأكيد ذلك • • « فلو كان - محمد - عليه الصلاة والسلام ذا روح ضعيفة لما ظل محافظا لفضائله بين المفاسد التي علفت بالمجتمع في ذلك العهد ولما عرض نفسه لاضطهاد قومه وايدائهم له بل لأنهمزمت روحه أمام العقبات التي اعترضته في طريقه • • تغلبت روحه القوية على تلك العقبات وتسلطت على أرواح قومه بعد جهاد عنيف لايزال التاريخ في حيرة من تفسير حوادثه وفاضت على تلك الأرواح بجزء من قوتها فكان مكان هذا الجزء كافيا لأن يجعل من قومه رجالا قلبوا بسلطاتهم وجه العالم في فترة من الزمن » •

ويختتم الرافعي موضوعه بدعوة الشباب الى السير على هدى من سبقهم ، بالاتحاد في العمل من أجل رفعة الوطن بالرغم بما يحوطهم من مخاطر ، مع الأخذ بسرية العمل واخفاء ما يطويه المصري من مشروعات ، خوفا من أن يصل خبرها الى العدو المحتل فيعمل على افسادها قبل أن ترى النور ، وبذلك تفقد مصر باستمرار كل ما تأمل من اصلاح ، وهو غيب لايزال قينا من قديم لم تنخلص منه بعد • • « ما أشد حاجتنا الى أخاطة

مشاريعنا وهى فى بدئها بالتكتم وما أحقنا أن نهتدى بقول نبينا عليه الصلاة والسلام « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » • ها نحن نرى أعداءنا يتبعون ذلك المبدأ الشريف فى محاربتهم لنا وهم أشد منا ناسا وأكثر مالا وأعز نفرا • نرى الانجليز فى بلادنا لا يقدمون على أمر يحاربوننا به والا بعد أن يعدوا له المعدات فى الخفاء ويتشاوروا فيه وفى الخطة التى يتبعونها فى تحقيقه فلا نشعر الا والمشروع قد ظهر فى عالم الوجود وصرنا معرضين لآثاره من غير أن يكون لنا سابق تنبؤ به ونحن الضعفاء القليلو الحول والقوة لا نشرع فى أمر الا ونجاهر ونوقف الملاء على ما سنقوم به والخطة التى نسير عليها • وبذلك نعطى لأعدائنا سلاحا يحاربون به كل مشروع يرون فيه عرقلة لمسايعهم ونياتهم لأنهم باطلاعهم على نياتنا وعلى المعدات التى نعددها يسهل عليهم أن يعملوا على احباط هذا المشروع قبل أن يتحقق ويعرفوا موقع الضعف فيه أو بالأقل يمكنهم أن يأخذوا لأنفسهم الحيطة من نتائجه » •

٥

ونشر الرافعى ثلاث مقالات بعنوان « التاريخ يعيد نفسه » • الدولة العلية وأوربا منذ ثلاثين عاما « (١٠) • يستعرض فيها وضع تركيا السياسى والحربى ومحاربتها لروسيا وابتصار الأخيرة عليها ، وتدخل الدول الأوربية فى الحرب التى

انتهت بمعاهدة برلين ، وتحدث عن الحرب البلقانية الدائرة بين تركيا والبلقان حيث ساند الأخيرة الدول الأوروبية للتخلص من التبعية التركية حتى قال المؤرخون كلمة صدقتها الحوادث وهي أن ميدان المسألة الشرقية في الغرب لا في الشرق . وينبى عبد الرحمن الرافعى مدافعا عن الدولة العثمانية في دعوتها لإنشاء الجامعة الاسلامية في مقالته « الجامعة الاسلامية والبالانسلمزم والفرق بينهما » بعد أن هاجم المسيو برتران في مقالته (نخبة رجال الشرق) الجامعة الاسلامية أو ما يسميه كتاب أوربا (بالبالانسلمزم) ومنتظرا الفشل لهذه الدعوة ، لتباعد الشعوب الاسلامية عن بعضها » . يفهم الأوروبيون من البالانسلمزم اتحاد المسلمين في كافة أنحاء الأرض وتأمرهم على الايقاع بالمسيحيين واستئصال شأفتهم والقضاء على دولتهم ولهم الحق في أن يحاربوا ذلك المبدأ الذى ليس من الاسلام فى شىء ولكن الجامعة الاسلامية أشرف وأعلى من ذلك بكثير . اذ هى تلك الرابطة أو تلك الآلية التى تجمع قلوب المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتبعث فيهم روح التعاضد والتعاون على النهوض بدولهم الى مستوى الأمم الحية الرشيدة فهى مبدأ شريف لا يصح أن يقابل من الذين يقولون انهم يغارون على تقدم الانسانية وتحريرها الا بالبشر والارتياح لأنه يرمى الى انهاض قسم كبير من العالم الانسانى وهو مجموع الأمم الاسلامية ، ان المسلمين يعملون على التعاون فى اصلاح ما فسد

من شئونهم الاجتماعية والسياسية ليستعيدوا في الوجود منزلتهم السابقة » (١١) •

والحقيقة ان عبد الرحمن الرافعي لم يغفل يوما الكتابة عن الخليفة العثماني القابع في استانبول حتى بدا محاميا يترافع عن موكله الذي يؤمن بقضيته •• فينشر مقاله من تورينو بايطاليا في سنة ١٩١١ عندما كان يصاحب محمد فريد في احدى جولاته ، بعنوان « الأمم سيف واخلاق » يتحدث فيها عن معرض تورينو ، والأمم الأوروبية والقوة الحربية ، وايطاليا وطرابلس الغرب ، وأوربا والاسلام ، وواجبنا نحو الدولة العثمانية ونحو أنفسنا في حالة مهاجمة ايطاليا لطرابلس الغرب احدى ولايات الدولة العثمانية - التي وقعت فعلا بعد ذلك - ويدعو الرافعي العالم العربي - كما سبق أن دعا مصطفى كامل المصريون عندما أدلى بحديث لجريدة برلينر تاجبلاط في ابريل سنة ١٨٩٧ « انه وان كان المصري لا يعرف الا وطننا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة » (١٢) • الى التبرع للخليفة العثماني : « •• ماذا يجب علينا ازاء هذا الخطر المحدق وماذا يطلب منا لنجعل لنا وجودا محترما بين الأمم ؟ أولا - نبذل ما نستطيع من أموالنا لمساعدة قوة الدولة العلية •• ثانيا - ان نجتهد في انشاء أبنائنا نشأة حربية ، هذا ما يجب علينا نحو الدولة ونحو أنفسنا وما هو بالشئ المحال أو البعيد المنال بدلا من

ضياح الآلاف في أوروبا - فلنستفد من تلك الدروس التي تلقينا علينا الحوادث ولا نكن من الذين كتب الله عليهم أن يكونوا عبرة ومثلا للآخرين » (١٣) •

ولقد لاقت دعوة الرافعى للتبرع هذه استجابة قوية من الشعب المصرى فى العاصمة والأقاليم على السواء حتى لقد نشرت جريدة « العلم » فى عددها الصادر فى ١ نوفمبر ١٩١١ خبرا من عاصمة الدقهلية فى صفحتها الثانية بعنوان « اريحية السيدات بلجنة المنصورة » يقول : ذكرنا فى عدد أول أمس انه قد تألفت لجنة من فضليات السيدات المنصوريات لاعانة الدولة العلية قلبية لدعوة السيدتين الفاضلتين حرم حضرة طاهرى بك وكريمة حضرة قريعى بك وقد وجدنا أن نأتى على ما قيل فى هذا الاجتماع من الخطب •• ونشرت نص خطبة الفاضلة سعدية الزيات كريمة حضرة مصطفى بك الزيات ونص خطبة كريمة الدكتور أحمد بك فهمى ونص خطبة الفاضلة فاطمة يوسف وغيرهن وسننشر فى عدد الغد اسماء حضرات المكتتبات وما اكتتبت به كل منهن » •

ويبعث مرة أخرى من باريس بمقالة عن « التعصب المسيحى والدول الأوروبية ، أوروبا والدولة العلية والاسلام » (١٤) • وأخرى بعد أسبوعين عن « الاسلام فى افريقيا ، ومسألة طرابلس الغرب والمسألة المراكشية » (١٥) • وقبل أن يغادر العاصمة الفرنسية يبعث بمقالة عن « الوطنية

والانسانية وكيف يفهمونها في أوروبا » تحمل رؤية متقدمة لأنه يلتفت فيها الى أن ايمان الغرب بالحرية قضية داخلية وليست خارجية ، أى أنها للصالح الخاص بشعوبه وليس للصالح العام المتصل بالبشرية جمعاء وبذلك تصبح الحرية هى حرية القوى • « لقد امتزجت وطنية الايطاليين بظلم الأمم واضطهادها وضحوا في سبيلها بسعادة الألوف منهم ، دخلت ايطاليا طرابلس مسوقة بدافع الرأى العام الايطالى مدفوعة بوطنية الأمة الايطالية وطنية اشربت استبعاد الأمم لا لسبب سوى ما فطر في قلوب أولئك الناس من الميل الى الطمع وسفك الدماء » (١٦) •

ولما كان من عادة رجال الحزب الوطنى عند رجوعهم لمصر من أوروبا أن يعرجوا على استانبول فقد اختتم محمد فريد وعبد الرحمن الرافعى رحلتها الى أوروبا بزيارة الخليفة العثمانى ومن هناك يبعث الرافعى بمقالة « يومان فى مجلس المبعوثين » (١٧) - لحضرة الأصولى الفاضل صاحب الامضاء - تحدث فيها عن حالة الأفكار فى الآستانة والصدر الأعظم فى المجلس •

٦

كان من عادة المندوب السامى البريطانى فى مصر أن يبعث كل عام لحكومته بتقرير عما قدمه من خدمات وأعمال من أجل

رفاهية الشعب المصرى كما يدعى الاحتلال • وعندما نشر تقرير السير الدن غورست عن الحالة فى مصر سنة ١٩٠٨ انبرى الرافعى للرد عليه فى سلسلة مقالات تحت عنوان « شئون تاريخية » (١٨) بلغت تسع عشرة مقالة بجريدة « اللواء » لم يمهرها بتوقيعه ، مدينا هذا التقرير وسياسة الاستعمار البريطانى ، يقول فى أولها : « ظهر تقرير ذلك العامل الصامت السير الدن غورست سنة ١٩٠٨ فتلقناه متوقعين أن يأتينا بشيء جديد مستطرف أو مستظرف ولكننا ، تصفحناه فوجدناه لا ينحرف عن الخطة التى رسمها له سلفه اللورد كرومر وسار عليها فى أيام مقامه بهذه الديار ، لا نريد هنا أن نتعرض لما امتلأ به هذا التقرير من الاحصاءات والجداول الرسمية بالنقض أو الاعتراض فان لكل منها مقاما يوفى فيه حقه من ذلك ولكننا يجب أن نصف للقراء مصر والمصريين طبقا لما يؤخذ من ذلك التقرير ، كتب السير غورست تقريره وهو ينظر الى المصريين بالمنظار الانجليزى الذى كان يستعمله اللورد كرومر فلم يأمن الاتيان فى حديثه عنهم بالمتناقضات العجيبة التى ينبغى أن تصان عن أمثالها عبارات رجال السياسة المحنكين » •

وفى الأيام التالية يستمر عبد الرحمن الرافعى فى نشر سلسلة مقالاته فيعرض لثورة الأفكار فى مصر بعد الانقلاب العثمانى ، وموقف الحزب الوطنى من الانجليز والخيديو ، والرأى فى قضية الطلبة والاشتغال بالسياسة ، ثم يعرض لحوادث

سنة ١٩٠٨ ووزارة مصطفى فهمى ، ومسألة الأزهر وحماة باشا،
والصحافة والشباب ، والصحافة والموظفون ، والصحافة
وهيبة الحكومة ، والصحافة والتعصب الدينى ، والصحافة
والرأى العام فى نظر غورست ، وجرائم الصحافة وعقوباتها
بقانون المطبوعات سنة ١٨٨١ ، وأعمال مجلس شورى القوانين
والجمعية العمومية ، ومناقشة الحالة المالية .

٧

وكان عبد الرحمن الرافعى يرى من مسئوليات الكاتب
الصحفى كشف مفاصد الاحتلال ، لذلك عندما طلب منه
محمد فريد أن يقدم بحثا بالفرنسية فى هذا المعنى لاقائه بمؤتمر
بروكسل كى يسمع أوروبا صوت مصر الذى سيعقد فى
٢٢ سبتمبر ١٩١٠ (كان الزعيم قد اعتزم عقده فى باريس أولا ،
ولكن الحكومة الفرنسية منعت فتم عقده فى بلجيكا فى موعده ،
حيث دعا اليه عدد كبير من رجال السياسة والاقتصاد فى
أوروبا) ، وفعل الرافعى . ولكنه لم يتمكن من السفر لتوليه
رئاسة تحرير جريدة « العلم » بدلا من أخيه أمين الرافعى الذى
سافر لحضور المؤتمر ، وقد ألقى الخطبة بدلا منه فؤاد باشا
حبيب بجلسة ٢٤ سبتمبر . وقد ترجم الرافعى خطبته بعد ذلك
الى العربية ونشرت فى مقالتين تحت عنوان « مركز الصحافة

في مصر • والأدوار التي تعاقبت عليها في عهد الاحتلال
الانجليزي « (١٩) تناول فيها الصحافة بعد الاحتلال ، وسياسة
اللورد كرومر ازاءها ، وحادثة دانشواي والصحافة ، وموقف
السير غورست من الصحافة المصرية ومحاربته لها التي بدأت
بالمحاكمات وبقانون المطبوعات عام ١٨٨١ ، والصحافة ومسألة
قناة السويس • والقوانين الجديدة الخاصة بالصحافة ،
والاحتلال والصحافة الأوربية •

٨

وكان الرافعي كثير النصح للشباب في التوجه الى الله
وضرورة الاهتمام ببلده والعمل بحيلة وسرية للخلاص من
كابوس الاحتلال الجاثم على صدر الشعب ، ولذلك فهو
يواصل كتاباته الصحفية عن « الرأي العام ورقابته على
الأفراد » (٢٠) • داعيا رجال الغد الى دراسة النظم الديمقراطية
في الدول الأوربية ومجاربة شعوبها في معاملتها الممتازة والحسنة
لأبنائها وزعمائها المثاليين الصادقين الذين يقدمون كل جهدهم
وعرقهم لرفعة وطنهم ، مع أخذ الموقف المضاد ونبذ كل من
يعمل ضد بلده لا كما يعامل الشعب المصري من يخدعه فيتساهل
معه ولا يقسو عليه ولا ينبذه • يقول مؤرخنا « يشاهد الانسان
أمرا جديدا يستوقف النظر وهو ان رجال الطبقة الراقية الذين

يطلق عليهم اسم كبراء الأمة في مصر قلما يهتمون في سنيرتهم وأعمالهم بحكم أمتهم عليهم فنراهم يقومون على المجاهرة بما يصادر رغائب الأمة ويعارض مصالحتها ، ومع ذلك لا يبالون أن يقول الناس عنهم أنهم أضروا بأمتهم أو انحازوا الى صفوف الأعداء • ومن الغريب أن معظم هذا الفريق قد تلقوا العلوم على نفس الطريقة التي يتلقاها الأوربيون وكثيرون منهم قد تلقوها في نفس مدارس أوربا • ولكننا نرى الأوربي يتحدى لخدمة أمته ويهب في سبيل ذلك ماله وصحته ، ونرى المصري يستولى على مشاعره مبدأ المصلحة الشخصية • فلماذا هذا الفارق والاثنتان قد نشأ نشأة واحدة ؟ اللهم ان السبب بسيط وهو أن الأوربي يجد من أمته رقبيا حسيبا على أعماله فاذا هو حاد عن الطريق الذي يتفق مع ارادة الأمة كان في ذلك القضاء الأخير على حياته وحكمت عليه أمتة بالانتظام في سلك ما ماتوا الموتة الأبدية » •

ويستمر عبد الرحمن الرافعي في تشجيعه للشباب ودفعه الى النهوض بمصر وبنائها ورفعتها ، ففي مقالته « النابغون في مصر » يلفت النظر الى تعمد الاحتلال البريطاني تعطيل طاقة المتعلمين المصريين والقضاء على أنشطتهم الهادفة الى خدمة بلدهم ، فيطالب كاتبنا هذا الشباب بمقاومة هذا المخطط الاستعماري ، كما فعل ويفعل وسيفعل غيرهم من الشباب الوطنى في كل بلد تعرض للاحتلال •• « أما المرء اذا ضاقت به الحياة وأحس

بالحاجة الى الحصول على رزقه رأى فى نفسه قوة غريبة تدفعه الى الاتيان بأعمال يعجز عنها فى العادة ولم يعدم وسيلة يصل بها الى ادراك خاصة تلك النظرية الطبيعية التى تشاهد كل يوم دليلا على صحتها ليست خاصة بحياة الأفراد بل هى صحيحة أيضا فى حياة الأمم ، فالأمة التى تريد استقلالها ارادة صحيحة - مثلما يريد المرء أن يأكل ويشرب - تنبع فيها القرائح ويظهر فيها الرجال والكبار المعروفون باسم أبطال الحرية » (٢١) .

ثم ينير الرافعى لشبابنا طريقه الوطنى « فى آمال مصر فى نشئها الجديد » بدعوته للاهتمام بمستقبل بلده عقب تخرجه من المدارس كما كان يكافح ابان دراسته ، لا تشغله حياته الخاصة عن حياته العامة والعمل على تحرير الوطن لأن على المرء ان يكافح ويناضل ضد كل المعوقات ، ويدعوهم لتتبع شباب مصطفى كامل للسير على طريقه من أجل مصر « .. ليذكر كل منهم ان رجلا كبيرا واحدا اذا ظهر فى أمة كان فى استطاعته أن ينشئها نشأة جديدة ويرفع ذكرها فى الخافقين وان كل انسان يصل الى منزلة كبار الرجال اذا طمح الى تلك المنزلة وعزم عزما صادقا على الوصول اليها . فاذا تحقق أملنا وتجنب الجيل الحاضر عيوب الجيل الماضى كان لنا أن ترقب ذلك اليوم السعيد الذى نرى فيه أفرادا - مهما قل عددهم - يعيدون فى مصر ما قام به أبطال الحرية فى البلدان جميعها » (٢٢) .

وفي مقالته « رجال الغد » (٢٣) يتحدث عن الشباب ومسئوليتهم المستقبلية ، ولذا فعليهم الاعداد لها ، وأولى وسائل هذا الاعداد هو التخلص من عيوبهم وضعفهم . وكان عبد الرحمن الرافعي يكره مفهوم المثل الشعبي الذي يقول « ان فاتك الميرى اتمرغ في ترابه » ويجد أن التكالب على الوظائف الحكومية هو بداية طريق الافساد للشباب المصرى ، لأنه يجعلهم عبيد الوظيفة وعبيد الرؤساء الانجليز أو الموالين لهم من المصريين . وهكذا يطالب الأجيال الجديدة في مقالته « هل ضاقت سبل الحياة في مصر » (٢٤) بالانخراط في الأعمال الحرة ، فهي ميدان فسيح يعتمد على الكفاءة والقدرة والحرية ، تعطى أصحابها شجاعة في مواجهة المواقف الخاصة والعامة لأنهم لا يعتمدون على من في يده المنح والمنع . ويجرى كاتبنا مقارنة بين وظيفة المحامى فى فرنسا وزميله فى مصر ، فالأعمال الحرة لا تتطلب أكثر من الجهد والعرق لتعطى آكلها .

٩

عكف الصحفى عبد الرحمن الرافعي فى هذه الآونة على تناول الجانب الاقتصادى . . فبجانب كتاباته السياسية والوطنية أخذ ينشر فى أعوام ١٩٠٨ ، ١٩١٣ سلسلة جديدة عن الاقتصاد منها « حياتنا الاقتصادية فى خطر » (٢٥) فى ثلاث مقالات . .

عرض فيها للاحتلال السياسى والاقتصادى وتراجع الأول
وخطورة الثانى الذى يمنع استقلال البلاد ، واتهم الحكومة
باهمال الاقتصاد الوطنى وعدم مساندتها لأبناء البلاد فى تطوير
الصناعة الوطنية لتتخلص من سيادة وتسلط الصناعات الأجنبية،
والدعوة للأخذ بما فعلته اليابان بجهدىها الذاتى واستفادتها
بالتطور الأوروبى واهمال الطبقة المتعلمة مساعدة الفلاح المصرى
وتعليمه ما شهدوه فى الخارج من التعاوانيات والصناعات
الريفية حتى لا يستمر سقوط الفلاح بين براثن المرابى الأجنبى ،
وكذلك العمل على توعية هذا المزارع حتى لا يسقط ضحية
الشراب والخمور فى مجاراته للاقطاعيين ، ثم يعالج الأنظمة
الاقتصادية فى أوربا ويقارن بما يحدث فى مصر . ويكتب الرافعى
أيضا « مسئولية الخاصة من الأمة » (٣٦) فى مقالته مشيرا الى
المتعلمين وتقليدهم بلا تفكير لما تعرض المدنية الغربية وتهالكهم
على المنتجات الأجنبية مما أدى الى بوار المحلية . وفى مقاله
« الانقلابات الاقتصادية وكيف تمت فى أوروبا وفى مصر » (٣٧) .
تناول الوعى العمالى فى أوروبا وتأسيسهم للجمعيات الكثيرة التى
تدافع عن مصالحهم ، على العكس فى مصر . ويقول الرافعى
« نحن أيضا قد فتننا زخارف المدنية الغربية فأردنا أن نقتنيها
بأى وسيلة كانت فبذلنا فى سبيلها صناعتنا الأهلية وأقمنا على
أنقاضها بناء الصناعة الأجنبية . فما أبعد الفرق بيننا وبين من
نزعم أننا نقلدهم ونجاريهم فى مضمار التقدم والتضامن » .

ويكتب الرافعي سلسلة مقالات اقتصادية أخرى بلغ عددها ست تحت عنوان كبير هو « الميزان الاقتصادي في مصر » (٢٨) ثم عناوين فرعية هي • • ماهية الميزان الاقتصادي ، الميزان في عهد محمد علي ، من عهد محمد علي الى الاحتلال ، الأموال الأجنبية في مصر قبل الاحتلال ، تقلبات الميزان في خمس وعشرين سنة ، كيف يعتدل الميزان • ثم يكتب مقاله « الكماليات في مصر ، وخسائر مصر من الدخان » (٢٩) • وأخرى عن « عوائق الصناعة الوطنية في مصر » (٣٠) التي يقول فيها « قال أحد الكتاب الأوروبيين يصف حال بلادنا في حرمانها من الصناعة واعتمادها في ثروتها على نوع واحد من الزراعة وهو القطن : ان مصر تمشي في حياتها الاقتصادية كما يمشي الاعرج على قدم واحدة وهي في مشيتها هذه لا تركز الا على أصبع واحدة من أصابع تلك القدم • وهذا ابلغ ما يقال في وصف الخطر الذي يهدد بلادنا من بقائها على تلك الحال • ان أمام الصناعة الوطنية عقبات وعوائق كبيرة بعضها آت من الحكومة وبعضها ناشيء من تقاعد الأمة واهمالها » •

المراجع

- ١ - دكتور سامى عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى ط ١ ص ٣٣٣ .
- ٢ - دكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر - مصطفى كامل ج ٥ ط ١ ص ٨٤ ، ١١١ .
- ٣ - عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ط ٤ ص ١٤٥ ، ١٤٧ .
- ٤ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ط ١ ص ١٢ .
- ٥ - المرجع السابق ص ١٠ .
- ٦ - اللواء عدد ٩ مارس ١٩٠٨ .
- ٧ - اللواء عدد ١٧ نوفمبر ١٩٠٨ .
- ٨ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ص ١٥ .
- ٩ - اللواء أعداد ٤ - ٦ - ١١ - ١٧ - ٢١ أكتوبر - ٢ نوفمبر ١٩٠٨ .
- ١٠ - اللواء أعداد ٢٤ - ٢٥ أكتوبر - ٤ نوفمبر ١٩٠٨ .
- ١١ - اللواء عدد ١٤ مارس ١٩٠٩ .
- ١٢ - عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٣٦٥ .

- ١٣ - العلم عدد ٦ أكتوبر ١٩١١ .
- ١٤ - العلم عدد ١٣ أكتوبر ١٩١١ .
- ١٥ - العلم عدد ١٦ أكتوبر ١٩١١ .
- ١٦ - العلم عدد ٣٠ أكتوبر ١٩١١ .
- ١٧ - العلم عدد ١ نوفمبر ١٩١١ .
- ١٨ - اللواء أعداد ٨ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٥ - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ - ٢٢ - ٢٤ - ٢٥ - ٢٩ - ٣١ مايو
١ - ٢ - ٥ يونية ١٩٠٩ .
- ١٩ - العلم أعداد ٢٥ - ٢٧ أكتوبر ١٩١٠ .
- ٢٠ - اللواء عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٠٨ .
- ٢١ - اللواء عدد ١٣ يونية ١٩٠٩ .
- ٢٢ - اللواء عدد ١٥ يونية ١٩٠٩ .
- ٢٣ - اللواء عدد ٢٠ يونية ١٩٠٩ .
- ٢٤ - اللواء عدد ٢٠ يولية ١٩٠٩ .
- ٢٥ - اللواء أعداد ١١ - ١٤ - ٢١ يناير ١٩٠٩ .
- ٢٦ - اللواء أعداد ٢٤ - ٢٨ فبراير ١٩٠٩ .
- ٢٧ - اللواء عدد ٧ مارس ١٩٠٩ .
- ٢٨ - الشعب أعداد ٢٣ سبتمبر - ١ - ٢ - ٥ - ١٠ - ١٤
أكتوبر ١٩١٣ .
- ٢٩ - الشعب عدد ٢٤ أكتوبر ١٩١٣ .
- ٣٠ - الشعب عدد ١٨ نوفمبر ١٩١٣ .

اهتماماته الفكرية الأولى

١

كانت مصر لموقعها الاستراتيجي على الدوام أحد مراكز الصراعات الدولية بين الدول الكبرى ، وخاصة منذ النهضة الأوربية وثورة التصنيع ، وقد اختلفت السبل لتحقيق أهدافها ما بين اهتمامات اقتصادية أو سياسية ، ونكبت البلاد بالسيطرة العثمانية فبات ضمن ولايتها المتخلفة بعد ازدهار • وتتابع في حكمها الولاية من أسرة محمد علي ، وتسرب النفوذ الفرنسي تارة والانجليزى أخرى على صورته المختلفة ، وبين ارتفاع أو هبوط من حاكم الى آخر، فبلغت السيطرة الفرنسية في البلاد عنفوانها في حكم سعيد عندما منح ديلسبس امتياز شق قناة السويس ، ورأت الحكومة في تأييدها للمشروع استعادة لنفوذها الذي

فقدته منذ حملة نابليون (١) • وجاء الاحتلال الانجليزى
سنة ١٨٨٢ وسيطر على مقدرات البلاد فباتت مصر تدار من
لندن بوصفها احدى مقاطعاتها •

وبلغ يأس النفوس ذروته ، الا أن البلاد لم تعد من أبنائها
من تولى بث روح الوطنية فى النفوس •• وبدأ مصطفى كامل
جهاده ومن بعده محمد فريد وزملاؤهما • ومن الشباب الكثير
الذى أثرت فيه تعاليم الزعيمين فتى خجولا غير اجتماعى كان
 طالبا فى مدرسة الحقوق الخديوية هو عبد الرحمن الرافعى جذبه
العمل الوطنى بعد تخرجه ولم ينقطع عن السعى جاهدا لتطبيق
مبادئ الحزب الوطنى وتعاليم فريده ، فى الربط بين العمل
السياسى والقومى والعمل الاقتصادى • فعكف على إصدار
مؤلفات ذات اتجاه وطنى فريد بالنسبة الى زمنها لتوعية المواطن
المصرى ورفع مستواه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ليقف
على ما يدور فى العالم من أنظمة مختلفة خاصة فى البلاد التى
تعرضت يوما للاحتلال وناضلته بقوة حتى حصلت على
استقلالها • كما كان هدف الرافعى من وضع هذه المؤلفات
أيضا ، هو تحريض المصريين على تحطيم أسطورة الخوف من
الاستعمار العملاق لزلزلة بنى ان الطغيان والاضطهاد والاستبداد •

في « مذكراتي » الذي صدر في عام ١٩٥٢ ، وأرخ فيه عبد الرحمن الرافعي لحياته يقول : « اتجهت نفسي منذ سنة ١٩١٠ الى الجمع بين المحاماة والتأليف ، فقضيت أوقات فراغى من المحاماة سنة ١٩١١ وأنا بالزقازيق في تأليف أول كتاب لى وهو ، حقوق الشعب .. ولقد أعجب الزعيم محمد فريد بهذا الكتاب وهنأنى عليه قائلا : فى البلاد صحافة وطنية وينقصها التأليف الوطنى ، وقد سلكت هذا السبيل فاستمر فيه وفقك الله » (١) .

فما هى قصة هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى فى مارس سنة ١٩١٢ ، والذى يكاد لا يعرفه أحد ؟

أول ما يلفت النظر فيه ، هو نضج الرافعى آنذاك رغم ريعه الثانى والعشرين ، ولعل اتزانه طوال حياته ، الذى دفعه بعد ذلك بسنين طويلة الى أن يكون مؤرخ مصر الأول ، الذى صاحب الفضل فى انعكاس هذا النضج فى أول كتبه الذى كان منطلقه فيه رأى للزعيم مصطفى كامل .. « ان مصدر المصائب التى حاقت بوادى النيل كان جهل أمتة لحقوقها وواجباتها وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطنى فيها ، أن الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء ،

ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى مملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية » •

الغرض من اصدار الكتاب اذن هو اناة الطريق أمام المواطنين لفهم حقوقهم وواجباتهم بعد التمزق الذى أصاب نفوس الشعب المصرى من سيطرة الاحتلال البريطانى على مقاليد الأمور ، واستعانتة بالآته من العملاء فى تسيير دفة الحكم الداخلى لتنفيذ مخططاته • كان عبد الرحمن الرافعى يهتم بتقديم تجارب الغير لشباب مصر الذين فى مقدروهم تقويض دعائم الاحتلال وتحقيق الاستقلال بالتعاون وبذل الجهد فى أوقات الفراغ فى الأجازة الصيفية لتوضيح وشرح مبادئ الحقوق والواجبات لغالبية الشعب المصرى ، وهم أصحاب الجاليل الزرقاء فى صورة محاورات سهلة الفهم والاستيعاب • فهذه الحقوق لم يسقطها الاستعمار من حسابة فحسب ، بل اسقطتها كذلك من مقرراتها مدرسة الحقوق الخديوية فى مصر ابان هذه الفترة • فلم تدرس لطلابها الا القشور • فى الوقت الذى يدرسها التلاميذ الصغار فى المراحل الأولى من التعليم فى البلاد الأجنبية ليشب النشء واعيا بحقوقه وواجباته •

لقد درس الرافعى كثيرا موضوعه قبل أن يمسك القلم ويبدأ كتابه ، وهو يشير الى ذلك فى مقدمته التى يقول فيها « لقد بلغت عناية القائمين بشئون التعليم فى البلاد الحرة بتدريس

تلك المبادئ أن لا يكلفوا بوضع المؤلفات فيها الا العلماء الاجلاء
القادرين على تبسيط تلك المبادئ وجعلها سهلة التناول لطلبة
المدارس مع احتوائها على أرقى النظريات الدستورية التي وصل
الى تقريرها العلم الحديث .. اما أنا فلست من أولئك العلماء
ولا أعد نفسي في كفاءتهم في وضع هذه المؤلفات ، ولكني
سجّت على منوالهم ، واقتبست من أبحاثهم ووضعت هذا الكتاب
على لسان فئة من طلبة المدارس يتباحثون في مجتمع من سكان
القرى في حقوق الشعب والنظريات الدستورية ونظام
الحكومات الصالحة وكيف تصل الأمم الى استرداد حقوقها ،
وكيف نضمن تمتعها بها . كل ذلك ليجد الطالب في الكتاب
مجموعة تلك الحقوق والنظريات ويعرف كيف تنبت في طبقات
الأمة وماذا يعوزنا من العمل لنحصل عليها » (ص . و) .

وتتوقف قليلا عند مقدمة الكتاب ، لما تحمله من أفكار
هامة تشغل بال المواطن المصري والمصلح الاجتماعي في ذلك
الحين وتعكس ناحية من اتجاه الرافعي الفكري .. وتمثلت
في ثلاثة جوانب ، الأول ضرورة استخدام القوة لأية أمة تريد
أن تعيش عزيزة المكانة : « حيت الأمة بالقوة وماتت لحرمانها
من القوة ، وتغلبت بعضها على بعض بالقوة » . ويجعل الرافعي
من هذه الإشارة مفتاحا الى تفجير القوى التي لا تجد في
الانسان ، واستخدامها في مقاومته لكل ما تثقل عليه من ضغوط .

ان الأخذ بالقوة يلزمه تعلم الفروسية والسباحة والرماية ،
فالرسول عليه السلام حث المسلمين لهاتين الفضيلتين لأن فيهما
ترويض للعقل وتنشيط للجسم وتغذية للعضلات ، والتعود
على اقتحام المخاطر ، فترية النشء المصرى لم تغرس في قلبه
الشجاعة والأقدام ، بل أورثته الخوف ، بعكس الشاب في أوربا
الذى تعود منذ نعومة أظفاره على اقتحام الاخطار والمخاطر ،
والسبيل الى تحقيق ذلك انشاء جمعيات الصيد والقانون
المصرى لم يمنع تأسيسها أسوة بجمعيات الأجانب •

ويرى الرافعى أن على المثقفين مسئولية توعية الجماهير
« جئت اخاطب اخوانى الشبان ورجال الغد الذين أعد نفسى
واحدا منهم وأعتقد أن عليهم واجبا كبيرا هم مدينون به نحو الله
ونحو الأمة وهو العمل لتحرير بلادنا » •• (ص • د) وأخيرا
يدعو لضرورة الاستعانة بالتنظيم فى حياتنا حيث انه أساس كل
إبداع خلاق •

وتخيل الرافعى مجموعة من الشباب اختلفت طرائقهم فى
تمضية الأجازة الصيفية فأغلبهم أمضوها فى احدى قرى محافظة
الدقهلية • بينما سافر أحدهم الى أوربا ويكتب الى أصدقائه
بانطباعاته • ويقيم هذا الشباب فى القرية ندوات يناقشون
فيها عدة قضايا تثير الحوار بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين
المستمعين من أهل القرية وبينهم وبين ما يحدث فى الخارج

مما يبعث به صاحبهم اليهم وخاصة من فرنسا حيث النماذج كثيرة لممارسة الحرية والديمقراطية • ومن القضايا التي تعرض جوانب دستورية مع المقارنة بين ما يحدث في مصر وما يتبع في البلاد الدستورية الحقيقية ، تشكيل الحكومة من الحزب الحاصل على الأغلبية وبذلك يكون الحكم في يد الأمة لأن الحكم هم وكلاؤها • • • يسرون على هدى القوانين الموضوعية ، والأمة تراقبهم فرضي الأمة عن الحكومة وسياستها من ضروريات بقائها • أما الحكومات الاستبدادية فهي تعتمد على قوتها وحدها أو على قوة تستمدتها من احتلال أجنبي لبلادها ، وسكوت الشعب عنها يزيد ضراوة وشراسة ، فإن اجتمعت الإرادة والقوة في يد الشعب أزال الاستبداد • ويستشهد في المناقشة بما سارت عليه الحكومات الإسلامية التي اعتمدت على تعاليم الله ورسوله فوضعت مبدأ حكم الشعب والأخذ بالشورى ، والمساواة بين الجميع • فطاعة الأمة للحكومة قائم على اتباع الأخيرة القواعد والشرائع ، واهتمامها بالشعب ليس فضلا بل ضرورة واجبة ، يرجع ذلك لحرص الأمة نفسها على مبدأ الشورى ، لأن استبداد ملوك المسلمين يرجع لانعدام روح الشورى في القلوب • • • وحق الانتخاب العام يعد الدعامة المتينة التي تقوم عليها حكومة الشعب ، وتوزيع سلطة الدولة بين مجلسين تشريعيين من الأهمية بمكان لتعاونهما في وضع القوانين والتشريعات : « فالحكومة المصرية تصدر القوانين

وتمجيها ونعدلها دون أن تحترم ارادة الشعب » •• وتستمر
الندوات تناقش دور مجلس النواب والشيوخ في مراقبة
الحكومة ومسئوليتها أمامهما ، وحققهما في عدم الثقة بالحكومة ،
أو بأحد الوزراء ومسئولية رئيس الدولة والتضامن في المسئولية
الوزارية ، وطرق اكراه الحكومة على طاعة الأمة وحل المجلسين
ودورهما في مراقبة الوزارة واسقاطها ، وضرورة اقرار
ميزانية الدولة بعد مناقشة كل بنودها • ويذكر في هذا الجانب
بما حدث في مصر ابان حكم شريف باشا أيام الخديو توفيق ،
وكذلك حين استطاع مجلس شورى القوانين أيام الاحتلال
مع ضعفه ، احراج الحكومة بطلبه الاعتماد على الدستور ورعاية
حقوق الأمة • وتشتمل الندوات الأخيرة على شرح الحقوق
الشخصية ، والحقوق السياسية ، ودرجة الارتباط والعلاقة
بينهما • وحظ مصر البسيط من كلا النوعين ، فشتان بين نصيب
الأمم الدستورية ، ونصيب مصر منها في ظل الاحتلال •• « ان
القانون النظامى قد خول لنا حقيقة حق التظلم • ولكن ليت
شعري الى من تتظلم ؟ تتظلم الى من تتظلم منهم فكيف نتظر
منهم ان ينصفونا ؟ اما في البلاد الدستورية فحق التظلم له نتيجة
فعلية فهو وسيلة من وسائل مراقبة المجلس للحكومة » (ص ١٦٢) •
ففى ظل الاحتلال نجد العقارات الخاصة مصانة بقوة القانون ،
بينما الأراضى الزراعية ليست كذلك ، لما للذائن الأجنبى من
حقوق ، والملك العام تصرفت فيه الحكومات العميلة دون أن

يكون لشعب مصر صاحب الأرض الحقيقي رأى ، فبيعت البواخر الخديوية والأحواض بثمن بخس ، ولم تحترم الحكومة حرية التجارة والصناعة المصرية لما فيها من منافسة لمصالح الاستعمار ، والحرية الشخصية مبتورة لأنها تحت رحمة الحكومة فتقبضها وتبسطها طبقا لما تراه موافقا لمصلحتها . وما تدعى سلطات الاحتلال من تمتع المواطن المصرى بالحرية فسراب لأنه ليس من الحرية فى شىء . أما حرية الاجتماع والصحافة فقد قيدتا وتم اعتقالهما .

لقد أثارت ندوات الرافعى هذه العديد من الموضوعات ، فدعت لدراسة الاقتصاد الزراعى ، وأنشاء النقابات التعاونية الزراعية للحفاظ على الأملاك الزراعية ، ومقاومة ظلم الحكومات وعصيانها فالقيام فى وجهها من أقدم واجبات الشعب بأسره ، ورأت أن يكون حق الانتخاب عاما وضرورة تأصيله فى وجدان الجماهير استعدادا لبناء المجلس النيابى الحقيقى ، كما التفت الى أهمية الاهتمام بالقيود فى جداول الانتخاب مع دعوة الكفاء لترشيح أنفسهم خدمة لمصر . والحفاظ على الدستور ضمانا لحرية الأمة وفى غيابه يستحيل أن يأمن الناس على حريتهم أو يتمتعوا بها لأن ما أصاب حرية الاجتماع وحرية الصحافة من الاضطهاد والمصادرة لأقوى برهان على أن الحرية بلا دستور عرض زائل ! وطالب الهيئات النيابية باستمرار احراجها للحكومة لنيل الدستور .

ومع أن موضوع الكتاب اجتماعي ، وصاحبه ليس أديبا
الا أن أسلوب المعالجة كان فنيا يستهوى القارئ مطالعته .
ولاشك أن عمل صاحبه بالصحافة افاده في عملية الاقناع .
فبعد الرحمن الرافعى لم يعتمد على مجرد الاجتماعات الدورية
في القرية لشرح المبادئ الدستورية للشعب بل أخذ يرتب
اللقاءات بحكمة فنية تبعد الرتابة ، كما تمثل كذلك في الرسائل
الواردة من أوروبا بما تحمل من لقطات عن الحياة الأجنبية
المغايرة ، كما تستفيد مجموعة الأصدقاء أحيانا من الوقت بين
ندوة وأخرى في عطلة سريعة يقضيها البعض في الاسكندرية في
السباحة ، والبعض في قرية مجاورة لممارسة الفروسية
والقنص !

ويستكمل الرافعى عنصر التشويق ، بتصوير الأحداث التي
وقعت في فترة غياب الأصدقاء ، من تجسيد معارضة عمدة القرية
لمجموعة الطلاب ، فيوحى لأحد أتباعه المنافقين بعقد ندوات
مضادة تشجع على الاستكانة والالتفاف حول الحكومة غير
الوطنية فيقاطعها الجمهور من أصحاب الجلايب الزرقاء الى أن
يعود الأصدقاء !

كما كان لا تتقال القضايا من داخل الحدود الى خارجها من
خلال الشاب المصرى الذى يزور فرنسا أثرا في تعميق ما يدعو
اليه الرافعى ، ولاشك أن هذا الاتجاه هو أثر لثقافة المؤلف

الفرنسية • ولقد وفق الرافعى فى دعوته الى الاقتراب من القرية، ومعايشة أهلها والاعتراف بحقوقهم والحقيقة ان تجربته كانت فريدة ولقيت فى ذلك الوقت المبكر - سنة ١٩١٢ - اعجابا كبيرا وقبولا طيبا • فنجد مثلا فى العدد الصادر من جريدة « العلم » بتاريخ ٢٨ يونية ١٩١٢ بامضاء طالب فلاح ، ردا على بعض الشباب الذين كانوا يسخرون من دعوة الرافعى واضاعة الاجازات الصيفية فى خدمة القرية بأنها نوع من الازعاج وتنغيص العيش ، فيكتب صاحب هذا القلم محببا صدور كتاب « حضرة الأصولى عبد الرحمن أفندى الرافعى » •

٣

كان من مبادئ الحزب الوطنى الأساسية الربط بين السياسة والاقتصاد ليكتمل الجهد الوطنى وتخليص البلاد من براثن الاحتلال الذى بدأ اقتصاديا وهو يخطط فى أواخر القرن الثامن عشر للقضاء على اقتصادها وبيع مصانعها التى أنشأها محمد على لتكون نواة الصناعة المصرية بأبخس الأسعار • فأنعدمت المشاريع وساءت حال المزارع المصرى ، والمرابى الأجنبى يستلب الأرض من الفلاح بعد رهنها بأبخس الأسعار ، حتى ارتفعت الأصوات بمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٤ داعية للحد من بيع الأرض للأجانب حيث بلغت قيمة الأراضى المرهونة

للبنوك العقارية الأجنبية وللأجانب مبلغا يزيد على عشرين مليون جنيه •

وفي سنة ١٩١٤ أصدر الرافعي كتابه « تقابلات التعاون الزراعية • نظامها وتاريخها وثمراتها في مصر وأوربا » أسهاما في معركة تضع المصلحة غير الوطنية فيها ثقلها ، يقول في مقدمة مؤلفه بتواضع عرف عنه •• « هذا وأناى لست مدعيا في هذا الكتاب أننى أملت بكافة المسائل التعاونية فان كتابا واحدا يقصر دون ذلك وانما قصدت أن يكون محتويا على أول ما يجب على المتعاونين معرفته في مسائل التعاون • فان رأى القارئ منى تقصيرا فليحمله على هذا المحمل لا سيما وأن مجال الكتابة والتأليف في التعاون لا يزال فسيحا لمن شاء من الكتاب والمفكرين » •

وقدم هذا الكتاب من كتب الرافعي الى القراء أحمد لطفى المحامى ومستشار النقابة العامة للتعاون الزراعى والمنزلى بمصر •• « جاء الكتاب من أندر الكتب التى وضعت في التعاون الزراعى اذ قليلا ما رأينا تأليف في التعاون شملت كل هذه المعلومات وجمعت في بعض مئات من الصحف أهم المسائل التعاونية ، فهو جدير بأن يكون مؤلفا عاما ينتشر في مصر وفى الخارج لينتفع به كافة المتعاونين من غير هذه البلاد وليقرأه بالذات جميع الذين تهمهم الحالة والحركة الاقتصادية بمصر » •

ويبدأ المؤلف عرضه بالخطوات الأولى للحركة التعاونية في أوروبا في القرن التاسع عشر وغرضها الأساسى الوقوف ضد مستغلى أعمال الزراعيين والصناعيين ، فانشئت الجمعيات التعاونية لحمايتهم • الا أن نظام التعاون لم ينجح في البداية في نطاق الصناعة كما حدث في المجال الزراعى وذلك لتعدد أنواع جمعياته • ثم ازدهرت الجمعيات الزراعية في منتصف القرن التاسع عشر ••• واشتهر منها تاريخيا في ألمانيا جمعيات شولس وليس ورايقيزن ، وانتشرت الأولى في المدن الصناعية والثانية بين الزراع والبيئات الزراعية • وقد ساعدت الحكومة الألمانية جمعيات التعاون عامة والزراعية خاصة • وبعد ألمانيا ظهرت الحركة التعاونية في ايطاليا في مجال الصناعة أولا ثم في الزراعة ، واشتمل التعاون على البنوك والصناديق الزراعية الكاثوليكية وجمعيات التعاون الاتجائى وجمعيات شراء حاجيات الزراعة بالجملة ، والتأمين على الماشية والحرائق والاصابات والطوارئ وحماية المزروعات من البرد • أما في النمسا فقد بدأ التعاون ببطء سنة ١٨٥٠ ثم زاد نشاطه بفضل أحد دعاة التعاون وهو هرمان زيلر حيث وحد جمعيات التعاون في نقابة واحدة عرفت بنقابة اتحاد جمعيات التوفير والتسليف • وقد شملت الدولة التعاون برعايتها واهتمامها فأصدرت قرار سنة ١٩٠٢ بجعل التعاون الزراعى اجباريا • وتتابعتم الحركة في فرنسا والمجر والدانمرك التى وجدت في الأخيرة ازهى مراحلها

وعد التعاون فيها من أعظم وأرقى النماذج في العالم ، حتى أصبحت محط انظار العالم ، والى التعاون يرجع الفضل الكبير في رقى الدانمرک وشهرتها التجارية ، لأن التعاون في البلد الزراعى يعد من الضروريات • بدأ الاهتمام به بين صغار المزارعين بعيدا عن الاستعانة بالدولة ، معتمدين على أنفسهم تماما • وناقست سويسرا الدانمرک في هذا المجال ، حتى عدت في مقدمة البلاد التعاونية التى قدم فيها النظام التعاونى مزيدا من الرفاهية والخير للمزارع السويسرى حتى أصبح أسعد مزارع بأوروبا مع عدم خصوبة أرضه • وتصل الحركة التعاونية الى انجلترا سنة ١٩١٤ ، ثم الى ايرلندا ازدهرت الحركة في ظل نظام بلنکت • كما عرفت روسيا القيصرية النظام التعاونى ، وكذلك بولندا •

وينتقل عبد الرحمن الرافعى من الخارج الى الداخل فيدرس الحركة التعاونية في مصر ، ويناقش عيوب النظام الزراعى بشطريه ، نظام التسليف الحكومى وشراء الحاجيات الزراعية وبيع الحاصلات للأجانب • وما جره هذا النظام على البلاد من خسائر لم تتحرك الحكومة لملاقاتها • • بينما تحرك الوطنيون لمجابهة ما أصيب به الاقتصاد المصرى ، وبدأت بشائر التعاون الزراعى في مصر بفضل عمر لطفى سنة ١٩٠٨ ، ثم خلفه اخاه أحمد لطفى ، وينتقد المؤلف عيوب القانون الذى أصدرته

الحكومة سنة ١٩١٣ والمسمى بقانون الخمسة أفدنة ، وكذلك مساوىء التشريع الجديد للتعاون الصادر سنة ١٩١٤ الذى ضيق الخناق على الحركة التعاونية !

واحدى القضايا الجديدة بالنظر فى هذا الكتاب ، احتفال عبد الرحمن الرافعى الكبير بالبلاد التى تتشابه ظروفها وظروف مصر من احتلال وانهياء ، كإيرلندا وبولندا وفنلندا فى السنوات الأولى من القرن العشرين • وكأن الكاتب يعطى درسه بطريق غير مباشر للمتخاذلين أو المتشائمين من المصريين •

وقد عدد الرافعى مساوىء التدخل الرسمى فى النشاط التعاونى • واختلف معه أحمد لطفى ورد على تخوفه فى مقدمة الرافعى بأن التعاون فى بدايته يحتاج الى مساندة الحكومة !

ولكن نعرف بعد ذلك ان الرافعى غير رأيه فى هذا الصدد ، فوافق على مشاركة الحكومة فى ميدان التعاون • ويروى الدكتور ابراهيم رشاد فى كتابه « مذكرات مجاهد تعاونى » ان عبد الرحمن الرافعى فى عام ١٩٢٠ ، أيده فى ضرورة مساهمة الحكومة فى المجال التعاونى عندما كتب أبو التعاون الدكتور رشاد تقريره عن انشاء ادارة التعاون بوزارة الزراعة التى كلف بإنشائها وإدارتها بعد عودته من إيرلندا وكمبردج ، وقدم نسخة من هذا التقرير للرافعى •• كتب الأخير : « فقد

اتتهيت الآن من قراءة مذكرتكم في تنظيم حركة التعاون ، فأعجبت بها اعجابا كبيرا ، لأنها في الحقيقة جمعت بين المبادئ والنظريات الفنية الصحيحة ، والطريقة العلمية النافعة . واني أهنتك بهذه الخدمة الكبرى التي قمت بها بالتعاون بوضع هذه المذكرة . واني موافق على اقتراحك في الخطة التي رسمتها « (٣) » .

٤

وانتظر القارئ ثمانى سنوات ليصدر عبد الرحمن الرافعى كتابه الثالث « الجمعيات الوطنية » عام ١٩٢٢ . عندما أعلن الرئيس الأمريكى ويلسن فى يناير سنة ١٩١٨ عند دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الأولى ، مبادئه الأربعة عشر . ونادى بحرية الشعوب جميعها فى تقرير مصيرها ، كانت غبطة الرافعى لا تقدر لعاملين : الأول اتفاق كاتبنا مع ويلسن فى نظرتة للسلام ، والثانى اطمئنانه الى أن اقرار مبدأ تقرير المصير ، هو الذى سيضع النهاية لاحتلال الانجليز لمصر . ولكن هذه المبادئ العظيمة لم تلبث أن تبخرت فى الهواء ، وتهرب منها صاحبها نفسه . كما أن المجتمع الدولى المتمثل فى عصبة الأمم ، رفض أن تعرض قضية مصر على مؤتمر السلام المنعقد بباريس بل وأيد الاحتلال الانجليزى لمصر فى معاهدة فرساي بتاريخ ٧ مايو سنة ١٩١٩

وكانت صدمة للملايين ومنهم الرافعي الذي تأكد أنه لا يزال أمام استقلال بلاده الكثير من النضال في الكثير من الميادين . فعكف في عام ١٩٢٠ على نشر سلسلة مقالات بجريدة « الأخبار » تحت عنوان « جهاد الأمم في سبيل حريتها » . وشارك في تعميق الصدمة « حادث » عام يبدو بعيدا ، ولكنه بالنسبة للرافعي كان شديد الوطأة عليه وهو استقبال الشعب المصري لسعد زغلول استقبال الأبطال عند عودته من أوروبا بعد نفيه الى مالطة ثم الافراج عنه وذهابه الى باريس لمؤتمر السلام الذي رفض ادراج القضية في جدول أعماله . « وفي أوائل عام ١٩٢١ عاد سعد الى مصر ، فقامت البلاد نساؤها وشيوخها وشبابها تستقبل زعيمها البطل رافع علم استقلالها ، وكان ذلك اليوم المشهود يوم دخل سعد القاهرة في موكب لم يحلم به قيصر ، ويوم ازدحمت شرفات المنازل والفنادق بالمتفرجين وبلغ ايجار المقعد فيها عشرين جنيها » (٤) . ألمه هذا الحادث ، اما باعثه الحقيقي فهو تأكيد قيادة سعد للجماهير في مصر الذي يجعل زعماء الحزب الوطني في الظل . . اما الباعث الآخر الذي أقنع نفسه به فهو خداع الساسة للشعوب ا على أية حال في يناير سنة ١٩٢٢ جمع عبد الرحمن الرافعي مقالاته التي نشرها في صحيفة « الأخبار » التي كان يرأس تحريرها أخوه أمين الرافعي واستعان بها في اصدار كتابه « الجمعيات الوطنية » . صحيفة من تاريخ النهضة القومية » (٥) . والقارئ الذي

يطالع هذا الكتاب اليوم بعد مرور أكثر من نصف قرن يشعر
جيذا بما كان يعتمل في كيان الرافعى وهو يكتب كلماته متغنيا
بحب مصر ورغبته فى تقديم عصارة وتاج فكره الحر لمواطنيه
ليساهم معهم فى تحرير وطنه من الغاصب المحتل .. » هذه
هى الجمعيات التى عنيت ببحثها وعزمت أن أقدم للقراء صورة
صغيرة من تاريخها ونظامها وأعمالها وجهودها وآثارها فى
النهضات القومية والتقلبات التى تعاقبت عليها والحوادث التى
اتصلت بها . اخترت الكلام عن أهم هذه الجمعيات وأكبرها
أثرا فى تاريخ الشعوب وهى نموذج لما تبذله الأمم من الجهود
فى سبيل تحريرها من رق العبودية ومقاومة الاخطار التى
تتهدد كيانها وتدعيم حياتها المستقلة على أرقى القواعد السياسية
والاجتماعية » (ص ١) .

ويقدم فى الكتاب ، الثورة الفرنسية ، ومراحلها التى
حفظت للمواطن الفرنسى حريته ، ثم استقلال الولايات المتحدة
سنة ١٧٧٤ ، والجمعيات الوطنية الألمانية التى تكونت عقب
هزيمتها فى الحرب الأولى وأحالت الهزيمة والانكسار الى صمود
وثبات وتقدم . » هذه الأمة المجيدة التى كانت عظيمة فى عزها
ظهرت أيضا عظيمة فى هزيمتها ومصابها » (ص ١٩٩) . ويتابع
الكتاب الأحداث التى ألمت ببولندا وهى تحت سيطرة المحتلين ،
 وجهود أبنائها فى استغلال كل فرصة مواتية لمناهضة

الاستعمار مع كل ما تعرضوا له من اضطهاد وإبادة ، فينشئون الجمعيات السرية والأحزاب السياسية للحفاظ على وحدتهم في الداخل والخارج •• نعم فقد استطاع البولنديون المهاجرون الى أمريكا أن يرفعوا صوت بلدهم في العالم الجديد لتصل الى كل أنحاء المعمورة •• « فان قلب الانسانية كان ينبض اشفاقا على تلك الأمة العظيمة التي برهنت للعالم على أن السياسة اذا أفلحت في القضاء على الممالك والدول • فانها لا تستطيع أن تنال من الأمم • وأن المعاهدات والمؤتمرات اذا استطاعت أن تمحو الحدود الجغرافية للممالك وتبدلها وتغيرها • فانها لا تستطيع أن تمحو الحدود المعنوية للشعوب الحرة اليقظة • أجل كانت بولونيا المثل الأعلى لثبات الأمم في جهادها الوطني اذ برهنت على تلك الحقيقة الأزلية وهي أن الحكومات تمر وتزول والأمم تبقى وتدوم » (ص ٢٧١) •

وتكون آخر لمسات الجمعيات الوطنية متصلة بالحركة الوطنية في الأناضول والجمعية الوطنية في انقره ، ومقارنته بينها وبين الحركات التحريرية الأخرى •• « ولكن يجب أن لا ننسى ان موقف الأمة التركية أصعب بكثير من موقف فرنسا في عصر الثورة الفرنسية ذلك أن فرنسا كانت ترد عادية أعدائها وهي مستجيبة لقواها وفي يدها عاصمتها وحكومتها وجيشها وأسطولها • أما الأمة التركية فقد نهضت وهي محرومة عاصمتها

وأسلحتها وجيوشها وحصونها • قامت والعدو محتل أهم مواقعها الحربية قابض بيده على عاصمة ملكها ومفاتيح بلادها ومستول على حكومتها • وكانت فرنسا تحارب دولا أضعفها الاستبداد وفساد الحكم • أما الأمة التركية فقد قامت في وجه دول راقية منظمة قوية خرجت فائزة رابحة من الحرب العامة • فالفرق بين الموقنين كبير • • وهناك أيضا شبه كبير بين الحركة التركية وحرب استقلال أمريكا في القرن الثامن عشر • والجمعية الوطنية في أنقره تشبه في كثير من الوجوه المؤتمر الأمريكي الذي أعلن الاستقلال وتولى تنظيم الجهاد الوطنى • • أما تركيا فقد نهضت منفردة وحاربت وحدها أعداءها الكثيرين • ومن أجل ذلك نالت احترام العالم المتمدنين والشرق والغرب » (ص ٣٧٥) •

ويشير فتحى رضوان الى أهمية هذه الكتب الثلاثة لعبد الرحمن الرافعى التى باتت مجهولة للعامة والخاصة بقوله « ولسنا نحب أن نجارى هذا الاتجاه العام ، الذى قصر دور عبد الرحمن الرافعى على التأريخ لبلاده ، ونرى أن من حق تاريخه وتاريخ مصر الحديثة علينا أن نتحدث عن كتبه الأولى التى لو اتصل صدور مثلها ، وراجت الأفكار التى انطوت عليها بين صفوف الشباب وسهل عليهم أن يحصلوا على زاد منها ويتأملوا فيها ، ويفيدوا منها ، لانحسرت موجة الأمية السياسية

التي سادت بلادنا منذ كمل الاجهاض الوطنى فى أعقاب ثورة
١٩١٩ ، هذا الاجهاض الذى جعل غداء الشباب المصرى
الثقافى ، ومعينه الفكرى مجلات تكتب بالعامية السوقية وتملأ
صفحاتها وأنهارها بأخبار الزعماء الخاصة ، وبالفكاهات
الجافية والتعليقات المبتذلة ، الى آخر سمات هذا الجذب
الروحى الذى لانزال نعانى من آثاره حتى اليوم » (٦) •

المراجع

- ١ - دكتور عبد العزيز محمد الشناوى : قنائة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بانشائها ج ١ ط ١ ص ١٤٢ .
- ٢ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ط ١ ص ٢١ .
- ٣ - دكتور ابراهيم وشاد : مذكرات مجاهد تعاونى ط ١ ص ١٢٨ .
- ٤ - محمد التابعى : ألوان من القصص ط ١ ص ١١٧ .
- ٥ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ص ٤١ .
- ٦ - فتحى رضوان : مشهورين منسيون ط ١ ص ٨٩ .

اهتماماته الوطنية

بالرغم من سيطرة الاحتلال البريطانى على مصر فى بداية القرن التاسع عشر وقضائه على المقاومة الوطنية التى انتهت بهزيمة عرابى ورفاقه ، ومحاكمتهم وتفويض خارج البلاد ، وما تسرب الى النفوس من يأس من انبلاج نور الحرية (١) ، الا أن كثيرين دفعتهم الوطنية الى مهاجمة الاستعمار .. فى الصحافة والاجتماعات والندوات وتطعيم النشء فى المدارس بمقاومة الدخلاء وبيت روح النضال فى نفوسهم لأنهم أمل المستقبل بعد أن نكب الآباء فى يومهم •

وواحد من هذه النماذج ، كان أستاذًا للتلميذ عبد الرحمن الرافعى فى مدرسة رأس التين الثانوية (١٩٠١ - ١٩٠٤) وهو عثمان لبيب (بك) مدرس الرياضة ، الذى كان يث فى

نفوس تلاميذه القيم الوطنية مبينا لهم آثام وجرائم الاحتلال .. « كان يقول لنا خلال أحاديثه » افهموا يا أولاد كويس « ، فكنت أستشعر معاني هذه الأحاديث ، وآنس لها وأعجب بها ، وأحببت من أجلها هذا الأستاذ ، وكنت ألاحظ أنه حين يبدأ بالحديث في السياسة يقلل بنفسه باب الفصل لكى لا يسمع حديثه ناظر المدرسة عند مروره بين الفصول ، فكان أقفال الباب اشارة الى بدء دروسه الوطنية ، وقد أفدت منها كثيرا » (٢) • وأصبحت أحاديثه المنبع الأول الذى يستقى منه تلميذنا الصغير حروف الأبجدية الوطنية • وفى سن الخامسة عشر يبدأ يتحسس طريقه فى مطالعة لصحف ولكنه لم يكتشف دور الزعيم الشاب مصطفى كامل الا عندما انتقل من المدرسة الثانوية بالاسكندرية الى مدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة سنة ١٩٠٤ ، فجذبتة صحيفة « اللواء » بعد « المؤيد » و « الأهرام » • واستفاد منها دروسا فى الوطنية ، ساعده فى ذلك الجو الحماسى الوطنى فى الحقوق حيث كانت هذه المدرسة العليا مرفأ اليقظة الوطنية فى البلاد ، حيث أذكى شعلتها الزعيم بأرائه وأفكاره • وحين أنشأ الوطنيون بدءا بطلبة الحقوق وبمشاركة طلبة المدارس العليا سنة ١٩٠٥ « نادى المدارس العليا » وضم الطلبة والخريجين وأنشأ به مكتبة جامعة ، أخذ الرافعى يشارك فى نشاط النادى ، الذى أصبح مركزا للاشعاع الفكرى والوطنى (٣) •

ويحدث لقاء الرافعى بمصطفى كامل متأخرا قليلا ، فشغف به اعجابا وتقديرا ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن زميله عبد الرحمن الرافعى الطالب بالحقوق فى هذه الفترة « والرافعى متحمس منذ كان طالبا بمدرسة الحقوق ، لمبادئ الحزب الوطنى ، متطرف فى نصرتها ، شديد الايمان بخلافة آل عثمان » (٤) •

وتقع حادثة دنشواى فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ وتبنى الصحافة الوطنية الدفاع عن ضحاياها ، ويشذ ممثل النيابة المصرى ابراهيم الهلباوى فيتشدد فى معاملة المتهمين الأبرياء وينعتهم بأقسى النعوت ، مطالبا فى النهاية باعدامهم • وقد بلغت قسوة تنفيذ الأحكام منتهى الضراوة ، حيث تم نصب المشنقة فى ساحة القرية ، وتفذت الأحكام بها شنقا وجلدا أمام أسر المحكوم عليهم • واهتز الوجدان المصرى لهذه القسوة الاجرامية ، وتأثر عبد الرحمن الرافعى بالحادثة تأثرا كبيرا •• « كنت عام وقوعها طالبا بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق ، وكنت أطلع نأها فى (اللواء) ، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين ، وتساءلت ما فائدة ما تتلقاه من الدروس والقواعد القانونية اذا كانت لا تطبق على الناس كافة • ولما تلوت وصف تنفيذ الحكم فى (اللواء) بقلم الأستاذ

أحمد حلمى أحد محرريه ، اقشعر بدنى من هول ما قرأت ، وأدركت مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال ، وتحققت ان لا كرامة لأمة ولا لآى فرد من أبنائها بغير الاستقلال ، وخفزتنى هذه الحادثة الى أن أخصص حياتى للجهاد فى سبيل الاستقلال « (٥) • وكانت هذه هى البداية الحقيقية التى دفعته أكثر الى الاهتمام بالقضايا العامة واستقلال الوطن التاع مع وحدة مصر والسودان •

واستمرت حملة الصحافة الوطنية على ممثل الاحتلال اللورد كرومر ، وأكثرى الصحافة الأجنبية أيضا من الحديث عن فظاعة الحادث مما أدى فى النهاية الى استقالة كرومر المندوب السامى البريطانى فى أبريل سنة ١٩٠٧ ، والذى انهى خدمته فى مصر بامتهان الكرامة المصرية فى كلمته التى القاها يوم الاحتفال بوداعه ممتدحا الخديو توفيق والمتعاونين معه • وعندما يعلن الزعيم الشاب مصطفى كامل عن تكوين الحزب الوطنى فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ يكون الرافعى من أوائل المنضمين اليه ، وبعد حوالى أربعة أشهر بموت مصطفى كامل تهتز مصر لوفاته •

ورغم أن عبد الرحمن الرافعى كان يعرف بخطورة مرض الزعيم التى تزداد يوما بعد يوم وأن لا أمل يرجى من الشفاء ، الا انه روع بوفاته المبكرة « واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال ، وأخذ

المرض يشتد ويلج عليه حتى أعىى الطب والأطباء ، الى أن حم
القضاء ، وأسلم الفقيد الروح في الساعة الرابعة من عصر يوم
الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦) ، فانتشر
نعيه بسرعة البرق في العاصمة والأقاليم ، وطيرت الأسلاك
البرقية خبره الى الخارج ، وملا النبأ الفاجع جنبات وادي
النيل ، ويالها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعي ونحن في مدرسة
الحقوق ، فقابلناه بالذهول والوجوم ، وفاضت دموعنا حزنا
وأسى على الفقيد الذي كان لنا اماما وطنيا ، وأبا روحيا ، وما كاد
يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر ، فكان له في كل نفس
مناحه ، وفي كل قلب مأتم « (٦) » .

صدم الرافعي بموت مصطفى كامل صدمة اذهلته وكاد ان
ينهار ، لولا أنه التمس العزاء من قرارين أخذهما على نفسه وهو
في قمة ألمه ، الأول أن يهب ذاته لخدمة بلاده على خطى
مصطفى كامل ، والثاني أن يتوفر على دراسة شخصية هذا
الزعيم الشاب وتقديمها الى الأجيال الجديدة ، ولاشك أن
عبد الرحمن الرافعي بر بوعده في قسميه . تفرغ لكتابة التاريخ
المصري الحديث بما لم يقم به أحد قبله واستمر يكتب عن
زعيمه وعن مبادئه المقالات الطوال ، ليصدر في سنة ١٩٣٩
مجلدا ضخما في ٥٢٥ صفحة من الحجم الكبير عن « مصطفى كامل
باعت الحركة الوطنية » - في سلسلة تاريخ مصر القومي -

« فهذه الشخصية الكبيرة التي حملت عبء الجهاد ، ودعت الأمة الى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال ، في وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود ، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة لكي تستطيع أن تشق لدعوتها طريقا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم » (٧) .

ولم يختلف الوضع بالنسبة لدور الرافعى داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل ، فقد كان وثيق الصلة أيضا بخليفته محمد فريد ، الذى نشر له لأول مرة بجريدة « اللواء » وهو طالب ، وعمل معه فيها عقب تخرجه . « انى اذا أعدت نفسى تلميذا لمصطفى كامل ، فانى كذلك تلميذ لمحمد فريد ، بل ان صلتى بفريد ، كانت أطول مدى من صلتى بمصطفى ، فانى لم أدرك مصطفى الا فى أوقات محدودة ، حين كنت أستمع الى بعض خطبه ، أو أقابله فى (اللواء) منذ سنة ١٩٠٦ ، مرات معدودة ، أما فريد فقد اتصلت به عن كثب ، وعملت معه وتحت لوائه سنين عديدة . لقد كنت سنة ١٩٠٨ طالبا بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق ، حين تولى زعامة الحركة الوطنية ، وكنت أتردد عليه كثيرا فى (اللواء) ، وتلقيت عنه مبادئ الوطنية ، كما تلقيتها من قبل عن مصطفى ، فصادت فى نفسى موضع العقيدة والايمان ، واتخذته بعد مصطفى أستاذا واماما لى فى الوطنية ، وبدأت اكتب فى اللواء على عهد ، وأنا طالب بمدرسة الحقوق » (٨) .

ولما انشأ الحزب الوطنى مدارس الشعب الليلة بالقاهرة
فى أواخر سنة ١٩٠٨ - فى أقسام الخليفة وبولاق وشبرا
والعباسية تحوى كل مدرسة نحو مائة وعشرين تلميذا - لتعليم
العمال والفقراء القراءة والكتابة والدين والصحة وتربية الأطفال
والحساب وتاريخ مصر وجغرافيتها والتاريخ الإسلامى والآداب
والأخلاق والقوانين الخاصة بالمعاملات اليومية ، شارك الرافعى
متطوعا فى التدريس مع زملائه الشبان الوطنيين وكبار رجال
الحزب الوطنى مثل محمد فريد نفسه وأحمد بك لطفى .

وعندما أعلنت الحرب الأولى ، استغلت انجلترا دخول
الدولة العثمانية بجانب ألمانيا ضد الحلفاء ، وأعلنت الحماية
على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وعزلت الخديو عباس حلمى
الثانى الذى كان يصطاف فى الآستانة وخلفه السلطان حسين
كامل . ونشطت الحكومة فى اعتقال الوطنيين وخاصة رجال
الحزب الوطنى بعد أن فتشت بيوتهم واستولت على أوراقهم .
واعتقل عبد الرحمن الرافعى فى المنصورة فى أغسطس سنة ١٩١٥
مع مجموعة من الوطنيين (٩) . وكان قد تم اعتقال أخيه أمين
الرافعى قبله فى سجن الاستئناف بالقاهرة (١٠) الذى أودع فيه
أيضا فى البداية قبل أن ينتقل منه الى معتقل الجماميز ثم ليمان طره .
وعن أسباب الاعتقال التى أغفلها الرافعى فى مذكراته ، يقول
الدكتور محمد حسين هيكى بعد أن فشلت القوات التركية التى

وصلت قناة السويس في فبراير سنة ١٩١٥ في تحقيق أغراضها
وشتتها الانجليز : « فت تقهر القوات التركية في اعضاد أنصار
الأتراك وأنصار الألمان وأنصار الخديو • وبدأت السلطات
العسكرية البريطانية بعد قليل حركة (تطهير) ان شئت أن
تسميها ، فنفت عددا غير قليل من المصريين المشتبه في ميولهم
الى الخديو أو ضد انجلترا الى مالطة ، ونفت شوقى بك شاعر
الخديو الى الأندلس ، واعتقلت كثيرين من بينهم صديقى
عبد الرحمن الرافعى » (١١) •

ويضيف الدكتور عبد العظيم رمضان ما وراء الجيش
العثمانى المهزوم « وقد أخذ عباس حلمى يستعد للعودة الى
مصر على رأس جيش عثمانى ، ويرافقه محمد فريد ، ولكن
هذا الجيش العثمانى هزم أمام قناة السويس ، واضطر الى
الانسحاب ، وضاعت تماما فرصة العودة الى مصر من يد
الخديو عباس حلمى » (١٢) •

ولم يطل تنقل الرافعى في السجون والمعتقلات فأفرج عنه
وعن أخيه بعد عشرة أشهر دون محاكمة وذهبا سويا لشكر
رئيس الوزراء حسين رشدى باشا الذى سعى للإفراج عنهما ،
فدعاهما لزيارة السلطان حسين كامل الذى التقى بهما في
الاسكندرية •

وقبل أن تنتهى الحرب الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كان الدكتور ويلسن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى ٨ يناير سنة ١٩١٨ مبادئه الأربعة عشر للسلام وأهمها حق تقرير المصير • ويسعد عبد الرحمن الرافعى بذلك ويظن مع الكثيرين ان الانجليز سيحققون وعودهم فى الجلاء عن البلاد •

ولم يكن الرافعى وحده الذى صدق بل صدق كثيرون معه فى مصر والعالم كله خاصة الشعوب التى ترزح تحت نير الاحتلال • يقول أحمد شفيق باشا : « لبثت مصر تنتظر تطبيق هذه المبادئ العادلة عليها مع المنتظرين وهى آمنة مطمئنة • على أتم يقين من أنها أولى الأمم بهذا المستقبل الزاهر الباهر • كيف لا ؟ وهى التى قدمت من المساعدات والخدمات الى الحلفاء ما اعترف به قوادهم ولم ينكره ساستهم وملوكهم » (١٣) •

ويسجل الدكتور محمد حسين هيكى حوارا دار بينه وبين الرافعى فى ذلك الوقت : « مساء اليوم الذى نشرت فيه صحف مصر شروط الدكتور ولسن قابلنى صديقى عبد الرحمن الرافعى مغتبطا متهللا ، وقال : اتنهينا يا سيدى ! لنا حق تقرير المصير ، وعلى ذلك سيخرج الانجليز من مصر ويتم الجلاء • وأجبتة وهل تصدق يا صديقى أقوال الساسة ؟ ! ألسنت تتحدث ، أنت وزملاؤك رجال الحزب الوطنى ، عن وعود انجلترا الرسمية بالجلاء وعودا لم يتحقق منها الى اليوم قليل ولا كثير ؟ فما بالك

ترى اليوم أن شروط الدكتور ولسن يجب أن تتحقق ؟ أولا يقتضينا الحذر أن ننظر اليها كأنها بعض وعود انجلترا بالجلاء ؟ وكان رد عبد الرحمن الرافعى أن قال فى حماسة : كلا !! فالولايات المتحدة هى التى انتصرت فى الحرب ، وهى ليست دولة استعمارية • وهى تريد صادقة الا تقوم حرب ثانية • وهى لذلك ستفرض حق تقرير المصير وتفرض الجلاء • وعبثا حاولت أن أقنعه بأن يخفف من غلوائه ومن حماسته • وعبثا حاولت أن أؤكد له أن السياسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشر شتى التأويلات والتفسيرات • وقد كانت آخر كلمة له : لقد أصبحت لنا قضية يمكن أن تترافع فيها ، ونجد الحجة القاطعة • وكان آخر رد لى على كلمته هذه ان قلت : انك حين تترافع فى قضية أمام قاض تجد الصيغة التنفيذية التى تلزم البوليس والجند ورجال الضبطية القضائية أن ينفذوا الحكم • ولست أصدق أن الولايات المتحدة تحارب انجلترا لتحملها على الجلاء عن مصر » (١٤) •

ويلتقى سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى بالمندوب السامى البريطانى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بالاستقلال وتحقيق وعود الجلاء •• الا أن اللقاء انتهى بالمرأوغة (١٥) • ويكتشف الزعماء أن لا فائدة من انتظار تنفيذ الوعود ، وأن لا سبيل لمصر الا بعرض قضيتها على مؤتمر الصلح

المزمع عقده في باريس ويتكاتف الشعب حول زعمائه ، وتؤيد الحكومة سعد ، ولكن الاحتلال ينكر على زغلول ورفاقه المطالبة بحق مصر لأنهم غير منتخبين أو ممثلين للجماهير ، فانهالت آلاف التوقيعات تأكيدا لاختيار سعد زغلول متحدثا وحيدا باسمها • وكان عبد الرحمن الرافعي يتردد كثيرا على القاهرة في هذه الفترة اذا كان يقيم بالمنصورة • وقد شارك أيضا في اختيار ممثلي الحزب الوطني ضمن الوفد المزمع تشكيله لحضور مؤتمر السلام في باريس ، ويقع الاختلاف بين الحزب الوطني وسعد حول الأشخاص ويختار سعد زغلول عضوين فقط من المتعاطفين مع الحزب الوطني هما مصطفى النحاس والدكتور حافظ عفيفي •

ويرفض الانجليز سفر سعد زغلول ورفاقه الى باريس لحضور مؤتمر الصلح ويقبضوا عليهم وينفوهم الى مالطة في ١٩ مارس سنة ١٩١٩ ، الأمر الذي يرفع درجة الغليان الشعبي ، وفي نفس اليوم تقوم الثورة • ويقابلها الانجليز باطلاق الرصاص ، ويسقط الشهداء ، يقول الرافعي بعد ذلك عن الثورة في كتابه الذي صدر عام ١٩٤٦ « ومن الحق أن نعد ذكاء الأمة المصرية وسبقها الأمم الشرقية في مضمار التقدم والنهوض ، من أسباب ثورة سنة ١٩١٩ وكانت مصر أيضا أسبق الأمم الشرقية قاطبة الى وضع لواء النهضة الجديدة وخوض غمار الجهاد عقب

اتهاء الحرب الأولى مباشرة ، فانه لم يكذ يعود السيف الى غمده حتى رفعت مصر صوتها عاليا ، فهزت الانسانية بثورة سنة ١٩١٩ التى لفتت الى ارض الكنانة أنظار الشعوب فى الشرق والغرب » (١٦) •

ويلعب الرافعى دورا بارزا فى المنصورة - وهى بلد ثائر على الدوام - فى تلك الأيام العصيبة ، ويحدث أن يسافر يوما الى القاهرة ، وفى نفس اليوم تهب المنصورة جميعها متظاهرة ، ويسقط من أبنائها تسعة عشر شهيدا • ويقرر قائد القوة الانجليزية بها - كانت عاصمة الدقهلية أحد معاقل جيش الاحتلال البريطانى - انذار أهلها بأنه فى حالة تكرار التظاهر ، فسيعاقب مدبريها وهم محمود نصير والدكتور محمود سامى وعبد الوهاب البرعى وعبد الرحمن الرافعى باطلاق الرصاص عليهم فى ميدان عام ١ ولما بلغ خبر الانذار الرافعى فى القاهرة وكان يستعد للعودة الى المنصورة عن طريق النيل بعد قطع المواصلات ومنع السلطات الانجليزية المرور بها الا بتصريح ، لم يعبأ وأصر على العودة وكانت وسيلته فى السفر مركب شراعى قطعت المسافة فى ثلاثة أيام (١٧) ١

وتتابع الأحداث فالثورة التى غمرت البلاد من أقصاها الى أقصاها أخذت تكبد قوات الاحتلال خسائر فادحة ، وتعمق أكثر الكراهية ضد الانجليز • وهكذا فبعد أقل من شهر يضطر

المستعصر الى الافراج عن الزعماء والسباح لهم بالسفر الى باريس ، والأسلوب الذى اتخذه الانجليز للاسراع فى اعلان هذا النبأ ، يبين الى أى مدى ركب الذعر الاحتلال البريطانى من امتداد الثورة ، فقد عمد الانجليز الى توزيع المنشورات التى تحمل خبر الافراج ، الى الطائرات تقوم بتوزيعه واسقاطه فى القاهرة والأقاليم على السواء وعلى القرى فى أعماق الريف ؛ كما قال أحمد شفيق : « وطارت الطيارات ليلا الى الجهات وألقت عليها البلاغ » (١٨) • ويسافر الزعماء الى فرنسا ويلحق بهم وفد من مصر • ولكن مؤتمر الصلح لا يسمح لهم بعرض القضية المصرية ، بل ويحدد اقامة الوفد المصرى ؛ ثم تعلن قرارات المؤتمر الموافقة على الحماية الانجليزية على البلاد ؛ وتعود الاضطرابات مرة أخرى • وتوفد الحكومة الانجليزية لجنة ملتر لتقصي الحقائق ويقاطعها الشعب بأجمعه ، ولم تظفر اللجنة الا بلقاءات الرسميين • وقد ابدع يرم التونسي فى تصوير سعى ملتر الفاشل وهو يكتب (١٩) :

دخل السفير ملتر على مصر شارى

قالت بنى الأحرار حدانا البضايح

لم يلتق ملتر خلاف المصادى

أمير بنى الأحرار فى مصر بايع

بيحسب المصرى - أمير الديالم -

يصبح بحد السيف والرمح طابع

فرشت فرش الليف ذوات العرايب
في السجن والطرايح حريد للتبايع
واتفريت اشرافنا عن ديارهم
بهم يضيق الملك والملك سايح
واتيمت اطفال ومن كان عاقر
أخذ النصيب والحزن في مصر شايح
دار الزمان وأن دار على دي التخايين
خفض موازينها وعلى الرفايح
يا آكلين الحق رحتم في نايبه
والحق ده يتعاد ولو كان ضايح

هذا الغليان الشعبى العارم يبلغ حجمه الكبير في نفس
عبد الرحمن الرافعى فلم يستطع أن يحتفظ بهدوءه المعروف
وايثاره للعمل المسالم ، فاذا به يتحول مرة واحدة الى العنف
وأعمال العنف • يقول على أمين : « اختار سعد زغلول
عبد الرحمن الرافعى عضوا في الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ مع
أحمد ماهر والنقراشى وحسين كامل الشيشينى وغيرهم من
أساتذة الجامعات الذين اختارهم سعد لتدريب فرق الفدائيين
التي تهاجم أفراد القوات الانجليزية بالمسدسات والقنايل •
وعاش عبد الرحمن الرافعى تحت الأرض في الثورة سنوات
طوالا ، وعرف أسرار الثورة ولكنه دفنها في صدره حتى بعد
أن خاصم سعد زغلول » (٢٠) •

ومع أن الرافعى لم يشر فى مؤلفاته الى هذا الدور ولم يعترف فى مذكراته بهذا التحول الا أن الباحث المدقق يستطيع أن يلمح فى أحد كتبه التى أصدرها بعد الثورة ، سنة ١٩٢٣ تلميحا وان كان بأسلوب غير مباشر فى الحقيقة - « وأما الشرق فقد هزت الحركة المصرية أعصابه وكانت لشعوبه مثالا يحتذى فى اعتماد الأمم على نفسها واستعانتها بقوتها وعدم تعويلها على الوعود الكاذبة التى كان الحلفاء يعلنونها وينادون بها قبل أن تضع الحرب العامة أوزارها • فليس تست شك فى أن الشرق كان مسترسلا للأمال والأحلام مصدقا للوعود والمبادئ المزيفة التى أعلنها أقطاب الحلفاء ولا سيما ويلسون الذى خدع الأمم بمبادئه الأربعة عشر المشهورة • فكانت الحركة المصرية وما انطوت عليه من الأقدام والمبادرة بالجهاد دليلا على بعد نظر الأمة المصرية واعتقادها فى وعود الحلفاء ومبادئ ويلسن انها كلام وأوهام وأنها أكاذيب لا يقصد منها الا تخدير أعصاب الأمم » (٢١) •

وعند هذا التغيير الجذرى ثجاجاً بشيء مثير هو اغفال الرافعى لهذا التحول فى كيانه ومواقفه • فلم يشر اليه أو يسجله مفسرا أو منكرا • الى الدرجة التى أبدته على العكس فى بعض ما كتب ضد أعمال العنف فى الثورة ، مما عرضه لاتهام أكثر من واحد من الدارسين باهمال الدور البطولى لعمليات

الاغتيال ضد الانجليز • يقول المستشار حلمى شاهين : لقد حاولت كثيرا أن اكتشف الدور العنيف لأستاذى فى هذا المجال، ولكننى لم أظفر الا بجواب شديد الایجاز ••• يرفض صاحبه الاسهاب ونحن يومذاك بالاسكندرية وأنا أسأله مداورا : هل شاركك أخوك أمين الرافعى فى الاغتيالات ؟ فرد بسرعة : لا ••• « كان ملهوش دعوة بالحكاية دى » • ويتابع المستشار : فربطت توا بين قوله وبين اعجابه واشادته الدائمين بزميلى الجهاز السرى والاغتيالات محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر • وتأكيذا لما يرويه المستشار شاهين يقول الرافعى عن مقتل أحمد ماهر والقاتل محمود العيسوى كان يعمل محاميا بمكتب عبد الرحمن الرافعى نفسه بالقاهرة - ولم يشر مؤرخنا فى كتاباته عن عمل القاتل بمكتبه - « أطلق عليه محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى الرصاص فأصابه اصابات قاتلة أودت بحياته • كان لهذا الاعتداء المنكر وقع أليم فى النفوس ، ولقد علل القاتل فعلته الشنعاء بأن أحمد ماهر تسبب فى اعلان مصر الحرب على ألمانيا • ولعمري ان ماهر لم يرتكب بذلك اثما ، بل كان عمله هو السبيل الى قبول مصر عضوا فى مؤتمر سان فرانسيسكو الذى أنشئت فيه هيئة الأمم المتحدة ، ذلك أن أقطاب الحلفاء الذين اجتمعوا فى مؤتمر القرم اشترطوا لقبول أى دولة فى هذا المؤتمر أن تعلن الحرب على المحور قبل أول مارس سنة ١٩٤٥ ، وكانت الحرب العالمية قد اشرفت

على نهايتها ، ولم يكن اعلان الحرب الا اجراء شكليا ، وقد بادرت كل دولة غير محاربة وقتئذ الى اعلان الحرب على ألمانيا واليابان ، وفي مقدمة هذه الدول تركيا وسوريا ولبنان ، لكى تظهر بعضوية المنظمة الدولية الجديدة ، فلا جرم كان عمل الفقيد وسعيه فى أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا واليابان عملا قوميا سليما ، لم تخسر مصر فيه شيئا ، بل أفادت منه بقبولها عضوا فى هيئة الأمم المتحدة لها من الحقوق (نظريا) مثلما لبقية الدول الأعضاء . ولكن الوفدين استغلوا هذا الموقف ، وأثاروا النفوس على أحمد ماهر ، موهنين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وارسال المصريين الى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة ، ونشر النحاس بيان بهذا المعنى احتوى على شر أساليب الاغراء واثارة الأحقاد فى النفوس ، فافتتن الأغرار من هذه الدعاية المغرضة ، وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر وعلم من أعلام الجهاد » (٣) . ويقول عبد الرحمن الرافعى فى موضع آخر عن زميلى الاغتيالات .. « حزنت وجزعت لمقتل الشهيد أحمد ماهر ، وحزنت وجزعت لمقتل الشهيد النقراشى ، لقد كانت تجمعنى بهما منذ الشباب صلات الود والصداقة الخالصة ، كان أحمد ماهر زميلا وصديقا لى منذ كنا فى مدرسة الحقوق ، وتخرجنا منها معا سنة ١٩٠٨ ، وترجع صداقتى للنقراشى الى أواخر سنة ١٩١٨ حيث جمعتنا

الحركة الوطنية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كنا زملاء في الجهاد وقتا طويلا ، ولئن اختلفنا في بعض الاتجاهات السياسية ، فإن صداقتي لهما لم تنقطع ، وظلت احفظ لهما على مر السنين تقديرا خالصا ، وأرى في شخصيهما ومواهبهما ركنا مكينا في صرح الحياة السياسية والقومية في البلاد ، وكانا رحمهما الله يبادلانتي الشعور والتقدير ، وإن أنس لا أنسى يوم دعوت في أواخر سنة ١٩٣٩ الى اكتاب عام لاصلاح ضريح « مصطفى كامل » ، فكان أحمد ماهر في مقدمة من لبوا دعوتي وظهر اسمه في أول قائمة للمكتبين في المشروع ، وكان وقتئذ رئيسا لمجلس النواب . كان أحمد ماهر يمتاز منذ أن كان طالبا بمدرسة الحقوق بشجاعته وصراحته واقدامه ، وذكائه المتوقد ، ومنطقه السليم ، وأفقه الواسع ، وصفاء نفسه ، ورحابة صدره ، وقد لازمته هذه الصفات طول حياته . وكان النقراشي يشاركه في هذه المزايا ، وخاصة في الشجاعة والصراحة والاقدام ، ولئن كان يقل عنه في الذكاء والألمعية ، فانه يفوقه في صلابته في الحق ، وصرامته في العدل والاستقامة ، كلاهما مكمل لصاحبه ، وهما في ميدان الجهاد صنوان ، وفرسا رهان ، ليس من السهل ظهور رجال كثيرين من طراز ماهر والنقراشي ، لقد آلمني وحز في نفسي أن يلقي المجاهدان الشهيدان مصرعهما من أيدٍ مصرية ، وهما اللذان طالما عرضا حياتهما للخطر واستهدفا للموت في سبيل مصر والمصريين ، فما أقسى تصارييف القدر !

وما أقل الوفاء في هذه الدنيا ، وما أشد ما يعيث الضلال
بالعقول والافهام ، رحم الله الشهيدين ماهر والنقراشي ، وإلى
روحهما الفاتحة « (٣٣) » .

وهناك شهادة أخرى على مشاركة الرافعي في أعمال عنف
الثورة ، يقدمها محمد ابراهيم جمعه عن أبيه صديق الرافعي ،
ان هذا الأب ذكر لابنه أنه شاهد الرافعي المحامي بالمنصورة ،
يسلم بمكتبه مسدسات ألمالية لمجموعة من الشباب الفدائي ا
ويؤكد هذا الدور العنيف أكثر أول من قدم رسالة جامعية
عن ثورة ١٩١٩ وحصل بها على درجة الماجستير من جامعة
جورج تاون بالولايات المتحدة وكاتت عن « سعد زغلول
وثورة ١٩١٩ » وهو الصحفي المعروف الأستاذ مصطفى أمين .
« وأذكر أنني رأيت في أوراق سعد زغلول الخاصة أوراقا
فهمت منها أن الأستاذ عبد الرحمن الرافعي كان عضوا في
المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ ا وذهلت ا فأننى
قرأت كل الكتب التى ألفها المؤرخ الكبير ، ولم أجد اشارة
واحدة الى هذا الموضوع . وكنت أعرف عبد الرحمن الرافعي
معرفة عائلية ، فقد كان شريكا لوالدى فى مكتب للمحاماة فى
المنصورة ودمياط ، وكانت تربطنا صداقة عائلية ، وكثيرا
ما حضرته وهو يتبادل ذكرياته ، ولم يذكر مرة واحدة أنه كان
عضوا هاما فى الجهاز السرى للثورة ! وذهبت اليه وسألته :

هل كان حقيقة عضوا في المجلس الأعلى للاغتيالات ؟ قال :
نعم . قلت : لماذا لم تذكر هذا في كتبك ومذكراتك ؟ قال :
لأننى أقسمت اليمين ألا أفتح فمى مادمت حيا ! قلت : لماذا
لا تكتب هذه الأسرار وتطلب الا تنشر الا بعد موتك ؟ قال
ضاحكا : لو كتبت ذلك أكون قد حشنت في اليمين (٢٤) ! .

وحكاية أخرى يذكرها مصطفى أمين في موضوع آخر ،
عندما استقل أبوه وأمه وصغيريهما ابان ثورة ١٩١٩ أيضا مركبا
شراعييا من القاهرة للتوجه الى دمياط حيث كان يعمل محمد أمين
يوسف محاميا بها ، بعد أن قطع الثوار خطوط السكك الحديدية
وأقامت الأسرة ليلة في بيت عبد الرحمن الرافعى بالمنصورة ،
وتسلم الرافعى جزءا من المنشورات التى كانت والدته مصطفى
وعلى أمين تربطها حول بطنها . وكما يقول الابن « ونقص وزن
أمهما وأصبحت لأول مرة ، منذ بداية الرحلة ، تستطيع أن تمشى
وتتحرك بسهولة ! » ثم استأنفت الأسرة السفر بالقطار الى
دمياط ، وكان الانجليز قد استطاعوا في اليوم السابق اصلاح
الخط الحديدى بين المنصورة وبور سعيد ، وسمع الطفلان -
مصطفى أمين وعلى أمين - عبد الرحمن الرافعى يقول لأبيهما
وهو يودعهما على رصيف المحطة ، هذا القول ذو الدلالة
« ان هذه هى آخر رحلة لهذا القطار ، لأن الثوار سيحطمون
القضبان في أثناء الليل » (٢٥) ! .

واذا كانت هذه السطور قد كشفت النقاب عن دور عبد الرحمن الرافعي وعنفه المستكن في الأعماق والذي لم يظهر الا ساعة الشدة ، فان الدراسات الحديثة توصلت الى ما هو أبعد من ذلك ، فوضعت أصابعها على أن الرافعي كان صالحا من وجهة نظر زعيم الثورة سعد زغلول ليكون أول الكفاءات الصالحة للقيام بالعمل الوطني العنيف السري .. هو أولا ثم أخوه أمين الرافعي ثانيا ! يكتب مصطفى أمين في الجزء الثاني من دراسته « ولقد دهش عبد الرحمن الرافعي عندما علم أخيرا أن الكشف الذي كتبه سعد زغلول وسلمه في ديسمبر سنة ١٩١٨ لعبد الرحمن فهمي رئيس الجهاز السري لثورة ١٩١٩ عن الأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم » كان أول اسم فيه (في هذا الكشف) هو اسم عبد الرحمن الرافعي .. والاسم الثاني هو اسم أمين الرافعي .. ولكن اذا كان عبد الرحمن الرافعي وأمين الرافعي لم يقبلا عضوية الوفد - لأن اللجنة الادارية للحزب الوطني لم توافق على ذلك - الا أنهما اشتركا في الثورة من يومها الأول .. » (٣٦) .

ومع ذلك ، فلا يزال هناك سؤال يتردد وهو .. ما الذي دفع عبد الرحمن الرافعي الى العنف والاشتراك في اليد السوداء ؟ هناك أكثر من سبب ، فلاشك أن ضراوة المحتل الانجليزى في ضرب ثورة ١٩١٩ بإطلاق الرصاص حتى على

المظاهرات السلمية عمل يخرج الحليم عن هدوئه ، ويؤكد انه لا يمكن مقابلة العنف برفع أغصان الزيتون ، بل بالعنف . خاصة اذا كان غضبة جماهيرية . كما لم يكن مفهوما بالنسبة للمثقف المصرى كيف تهبط الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس صاحبة الحضارة العصرية العظيمة المتنورة الى أن تقتل النساء والأطفال ، لقد أدرك الرافعى ان القوة التى ستمنع من أن تتحول البلاد كلها الى داشواى أخرى وستلحق الاستعمار الانجليزى درسا لن ينساه عندما يتعرض رجاله وممتلكاته للخطر . يشجع على ذلك أن الشعب المصرى قد أقبل على التضحية بحياته بفدائية منقطعة النظير ، وكان الفلاحون وأولاد البلد أسبق الجميع الى هذه التضحية العالية ، فهل يعقل الا يشارك هو فى قمة العنف والخطر ؟ وباعت رابع يستخلص من كتابات الرافعى المبكرة ، فهى جميعا تحفل بلا استثناء بالاشارة الى مقاومة الشعوب الأجنبية المختلفة مثل الفنلندية والبولندية والتركية وغيرهما لمستعمرها والعمل على نيل استقلالها ، يجد القارئ ذلك فى كتاباته الأولى فهو يكتب : « فنلندا ولاية ممتازة من الولايات الروسية ، حافظ أهلها على استقلالهم الداخلى وقاوموا كل اعتداء من الحكومة الروسية على دستورهم فهم من الشعوب الحية التى عرفت كيف تدافع عن حريتها وتحافظ عليها » (٢٧) . ويسطر فى موضع ثان . « واغتصبت روسيا وبروسيا أجزاء من بولونيا سنة ١٧٩٣ ،

وحيال هذا الاغتصاب دافع البولونيون عن بلادهم دفاع الأبطال وأعلنوا الجهاد الوطنى فى ٢٤ مارس سنة ١٧٩٤ ولما فشلت من دفع العدوان ، بقيت بولونيا ترزح تحت نير الاضطهاد السنين الطوال على أن الروح البولونية لم تتزعزع أمام الشدائد ولم تضعف أمام المصائب بل بقيت الأمة ثابتة فى يقينها قوية بحقها تتحين الفرص لتحقيق آمالها « (٢٨) » . وفى موضع ثالث يقول « ان القوة تحكم الآن كما حكمت فى بلجيكا وفى الصرب ورومانيا وفى شمال فرنسا أثناء الحرب العامة . ولم يطعن أحد فى حيوية تلك الأمم لأن مظاهر التدمير والاستياء والألم كانت تحفظ لها حقها وتصون كرامتها » . . وفى جانب آخر يقول : « ان الاستقلال والاحتلال الأجنبى لا يتفقان ولا يلتزمان . هذه الحقيقة فهمها الأتراك عندما احتل الحلفاء الآستانة فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ فقد عطل البرلمان العثمانى جلساته اذ رأى من العبث أن ينعقد ويعمل وسلطة الاحتلال الأجنبى قائمة بجانبه وانتقل النواب الوطنيون الى الأناضول حيث أخذ المجلس الوطنى الكبير يشهد فى أنقره ويعمل بعيدا على نفوذ الاحتلال » (٢٩) . وعامل خامس يكر بتاريخ مشاركة الرافعى فى الأعمال الفدائية ، يشير اليه أحد الأصوات الوطنية المصرية الذى يعرف صاحبه الكثير عن الرافعى وهو فتحى رضوان المحامى الذى يقول عنه : « ومحمد فريد هو فى واقع الأمر مؤسس مدرسة العمل السرى ضد الاحتلال البريطانى ، وكان

عبد الرحمن الرافعى بحكم صلته الوثيقة وتأثره الشديد
بشخصيته وبأسلوبه فى العمل الوطنى أحد أركان هذه المدرسة
التي ضمت فيما ضمت : شفيق منصور المحامى الذى حكم
عليه بالموت شنقا فى قضية مقتل السردار ، وأحمد ماهر ،
ومحمود فهمى النقراشى وعبد البرقوقى وحسن كامل الشيشينى
وسليمان حافظ وغيرهم • وقد آلت زعامة هذه المدرسة الى
عبد اللطيف الصوفانى فاستمر يديرها بشجاعة واستهانة بالمخاطر،
مع دأب ومثابرة وحرص الى آخر أيام حياته « (٣٠) •

فليس من قبيل الصدف اذن أن ينضم الرافعى الى اليد
السوداء •• ساعده كثيرا من ذلك الانضباط الذى يأخذ نفسه
به فى كل أعماله كما أن مبدأ التضحية فى سبيل الوطن عقيدة
فى دمه ويكفى تفرغه المثالى لكتابة تاريخ مصر الوطنى • يقول
عبد الرحمن الرافعى فى كتيبه الذى ظهر بعد ثورة ١٩١٩ « هذه
المنزلة التى نالتها حركتنا المصرية يجب أن نحتفظ بها لأنها
أصبحت فى حكم التاريخ انموذجا صالحا لنهضة الشعوب التى
تجاهد فى سبيل حريتها جهادا سليما • ولا يجمل بنا بعد أن نالت
بلادنا تلك المنزلة أن تقف فى منتصف الطريق ونقبل الهوادة فى
حقوقنا ونرضى بالنكوص على الأعقاب والرجوع الى الوراء
بل يجدر بنا كلما تضاعفت العقبات وتعددت الصعاب أن نروض
أنفسنا على مقاومتها وتذليلها والمضى فى سبيلنا لأننا عندما

أخذنا على أنفسنا تبعة الجهاد القومى لم نكن نعتقد أن نجد السبل أمامنا مذلة والغاية سهلة المال بل وطننا النفس على استمرار الكفاح وانفضال والتذرع بالثبات والمثابرة » (٣١) •

ثم أخذت الأعمال الفدائية والاعتيالات تنحسر شيئاً فشيئاً ، انى أن كف عبد الرحمن الرافعى يده منها كما أكد ذلك أيضاً اعترافات شفيق منصور أحد المتهمين فى قضية السردار لى ستاك باشا بعد ما انتهى الحكم بإعدامه (٣٢) ، وعاد الى هدوئه الخارجى والداخلى مرة أخرى • كيف ؟ يقول الرافعى سنة ١٩٤٦ • • كنت سنة ١٩١٩ لا أزال فى الثلاثين من عمرى ، أزاول مهنتى (المحاماة) فى المنصورة ، وكانت تغلب على نزعة الشباب ، وأتوق الى أن تسلك الأمة سبيل العنف فى جهادها ، أما الآن فانى أميل الى مبدأ عدم العنف ، وأراه أقوم السبل وأقربها الى النجاح والتقدم ، وبعبارة أخرى لست من دعاة الثورة Revolution وأوثر عليها التطور فى النهضة Evolution ، ومع ذلك لم تتغير وجهة نظرى فى الجهاد ، فانى أشعر والحمد لله بأن الشعلة التى تضطرم فى نفسى لا تزال كما كانت ، لم تهبط لها حرارة ، ولم يضعف لها أوار ، فالمقاومة الوطنية هى سبيلى فى الحياة ، وهى السبيل التى أدعو اليها ، وأنشد للوطن المزيد منها ، والثبات عليها ، وهى سبيل كل أمة تريد المحافظة على كيانها ، فى خضم هذا المعترك

العالمى ، اذ لا بد لها من ذخيرة من المناعة تدافع بها الحادثات ،
على أن المقاومة أو المناعة شيء ، والعنف شيء آخر ، وقد
يكون عدم العنف أدعى أحيانا لدوام المقاومة واستمرارها ،
وأجدى عليها من عنف يعقبه فتور ، ثم تراجع وخمود (٢١) .

فالرافعى كما نرى قد أسقط بواعث ارتداده عن الثورية ،
ولكن المتابعة لكتاباتهِ والظروف السياسية التى احاطت بالبلاد
فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، تساعد على تفسير موقفه ،
فالأجراءات العنيفة للسلطات الانجليزية للاغتيالات السياسية ،
وتعاون الحكومة المصرية فى فرض الهدوء الداخلى ، وتخاذل
بعض الفدائيين بعد القبض عليهم أو بعد الحكم عليهم بالاعدام
واعترافهم على زملائهم ، والانقسام الوطنى الذى أصاب
البلاد . والاضطهاد بالشبهة ، جميعا دفعت الرافعى الى التوارى
والبعد . وغالى فى ذلك الى درجة اغفاله الكتابة عن هذه
الاغتيالات فى أعماله التى تناولت الثورة ، الأمر الذى سحب
ظله على قضية الاغتيالات ككل ، مما عرضه لنقد عنيف . يكتب
الدكتور حسين مؤنس فى إحدى دراساته « ومن الغريب أن
عبد الرحمن الرافعى لم يعط العمل الفدائى حقه من الأهمية ،
بل هو يستنكر أعمال الفدائيين ويعتذر عنها إيرادها ،
يقول : « وأنا - مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه -
نذكر فيما يلى تسجيلا للوقائع التاريخية من حوادث الاعتداء

بترتيب وقوعها - ثورة ١٩١٩ جزء ثان صفحة ٨٤ - وهو يقول
هذا بعد أن يسرد محاكمات الثورة ، ويعدد الأحكام الجائرة
التي أنزلتها المحاكم العسكرية البريطانية بكل مواطن ثبت
اشتراكه في الثورة ، أو قيامه بأي عمل عدائي ضد المحتلين ، وفي
قضية واحدة منها أصدرت المحكمة العسكرية حكما بإعدام
٥١ مواطنا من أهل دير مواس بمديرية أسيوط . وأعدم ثلاثة
من المصريين في قضية قتل فيها انجليزى في الواسطى ، وفي
القضية نفسها حكم على ثلاثة آخرين بالاشغال الشاقة المؤبدة .
وهذه كلها كانت اعتداءات اجرامية على المواطنين المصريين - وان
تمت على يد محكمة عسكرية - لأن قضاتها جلادون . ومثل
هذه الأحكام تصدرها اليوم سلطات الارهاب الصهيونى على
أهالى الأراضى المحتلة في فلسطين ، والغرض منها إبادة شعب
بأسره . ومع هذا يستنكر عبد الرحمن الرافعى أعمال
الفدائيين المصريين ، وكأنه كان ينتظر أن تظل تطرق أبواب
الانجليز في أدب مبالغ حتى ينجلوا من أنفسهم ويرحلوا » (٣٤) .

وتسير الحياة السياسية في مصر كما رسمها الاحتلال ،
في ظل حكومات عميلة تختمى بالأحكام العسكرية التي كانت
رأس الحربة المسددة الى قلب الشعب ، ولا تعدم مصر من أبنائها
من يجاهر بصوته داعيا للاهتمام بها ، ويظل الدعاة يجاهدون
من أجل الديمقراطية والحرية والجلاء ، الى أن تنتصر كلمة الحق

ويخضع الاحتلال للارادة الشعبية فيمنح البلاد استقلالا داخليا
بإصداره تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فيعلن الملك فؤاد
الدستور المصرى الثانى - بعد دستور شريف ابان حكم
توفيق - فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ وتبعه بالدعوة للانتخابات
لمجلس النواب والشيوخ (٢٠) • ورأت الجساهر ان هذا
الاستقلال الداخلى المشوب بتعفظات مقدمة للاستقلال التام
لأن النضال الشعبى هو السبيل لتحقيق الأمانى الوطنية •
ويتقدم للترشيح كبار السياسيين والشباب من مختلف الأحزاب
القائمة فى ذلك الوقت • ويرى عبد الرحمن الرافعى ان يخوض
المعركة الانتخابية عن مركز المنصورة ، متابعة للخط الوطنى الذى
ينتجه منافسا لمرشح حزب الوفد عن نفس الدائرة على بك
عبد الرازق • وكان حزب الوفد قد شكل لجانا من الطلبة
فى كل دائرة لتأييد مرشحيه والدعاية لهم ، الا أن لجنة الطلبة
العامة بالدقهلية خالفت القاعدة بالنسبة الى دائرة مركز المنصورة
اعجابا وتقديرا لعبد الرحمن الرافعى وعزفت عن تأييدها لمرشح
الوفد مزكية الرافعى • الذى لم ينس هذا التأييد أبدا ••
« وكان لطلبة الدقهلية لجنة تسمى (لجنة الطلبة العامة بالدقهلية)
ساهمت فى المعركة الانتخابية ، وكان أعضاؤها يزكون مرشحي
الوفد فى دوائر المديرية ، ولكنهم استثنوا دائرة مركز المنصورة ،
فمع انهم كانوا من الغالب وفدين ، آثرونى على مرشح الوفد •
وعملوا ذلك بوازع من ضميرهم ووجدانهم ، وكان لانضمامهم

الى جانبى أثر محمود فى نجاحى ، وحفظت لهم هذا الجيل
على مدى السنين ، وقد صاروا الآن من رجالات القضاء
أو المحاماة أو الطب ، وأذكر منهم : الأستاذ أحمد كمال
(بك المستشار بمحكمة الاستئناف) • والأستاذ حسين حسنى
المحامى • الأستاذ على السعدنى (القاضى الآن) • الأستاذ
عبد الحميد خلاف (القاضى) • الأستاذ محمود البحرى
(رئيس النيابة) • الدكتور زكى منتصر • الأستاذ بدوى حمودة
(بك المستشار بمجلس الدولة الآن) • الأستاذ محمد عاشور
سكرتير عام شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى • الأستاذ
عبد الخالق الطنطاوى المفتش بالأوقاف • الأستاذ عباس رمزى
وكيل النيابة ... الخ » (٣٦) •

ويذكر المستشار بدوى حمودة رئيس المحكمة العليا
بالقاهرة السابق عن هذه الواقعة ... » عرفت المغفور له الأستاذ
عبد الرحمن الرافعى عندما كان محاميا فى مدينة المنصورة مسقط
رأسى • وكان علما من أعلام المحاماة بلغ مكانة مرموقة جدا
بشخصيته النبيلة الكريمة وبماضيه الناصع فى الكفاح فى صفوف
الحزب الوطنى عندما كان الحزب الوحيد فى ذلك الوقت وكان
نشاطه فى مجال السياسة نشاطا ملحوظا وقد ساهم فى جميع
حركات الحزب الوطنى التى لم يتح لى أن أعاصرها فى ذلك
الوقت ولكنى أعلم أنه ساهم فى الحياة السياسية منذ بدأت فى
عام ١٩٢٤ أثر صدور الدستور الأول سنة ١٩٢٣ وقد رشح

نفسه في دائرة مركز المنصورة التي يقع فيها موطنى الانتخابى ،
وقد ألف الوفد برياسة المغفور له الزعيم سعد زغلول في ذلك
الحين لجانا من الطلبة لتأييد مرشحى الوفد بالانتخابات وقد
كنت سكرتيرا للجنة الطلبة الوفدية في مديرية الدقهلية وكان
رئيسها زميلى الأستاذ أحمد كمال المستشار السابق وكانت تضم
طلبة الكليات والمعاهد العليا في ذلك الوقت وكانت رسالة
اللجنة كما قلت تأييد مرشحى الوفد والدعاية لهم في جميع دوائر
المديرية ما عدا دائرة مركز المنصورة التي رشح فيها المغفور له
عبد الرحمن الرافعى وقد كان خصم الرافعى الذى رشحه الوفد
رجلا لا يبلغ مبلغ عبد الرحمن الرافعى في تاريخه الطويل في خدمة
الوطن ، ومن أجل هذا عقدنا اجتماعا خاصا لبحث موقف
اللجنة بالنسبة لهذه الدائرة بالذات .. هل تؤيد خصم
عبد الرحمن الرافعى رغم انه أقل منه أهلية بالنهوض لعمل وطنى
جليل بالنيابة عن الأمة ، وكان عملا جليلا مشرفا لهذه اللجنة
ان أجمعت آراءها على عرض الأمر على هيئة الوفد برياسة
سعد زغلول بعد اجراء استفتاء في الدائرة لمعرفة رأى الناخبين
فيها هل هو الى جانب هذا المرشح أم ذاك وفعلا قمنا بجولة
في هذه الدائرة ، واتصلنا بجميع العائلات وكثرة الناخبين فيها ،
قمنا بعمل شبيه باستفتاء شعبى ، وكانت نتيجة هذا الاستفتاء
أن أغلبية ضئيلة تؤيد المغفور له عبد الرحمن الرافعى ، ولكن
اتجاه اللجنة كان تصميما على تأييد عبد الرحمن الرافعى فأعدنا

تقريراً رفعناه الى هيئة الوفد بنتيجة هذا الاستفتاء واقترحنا ترك هذه الدائرة دون ترشيح أحد من الوفد وأخلائها لعبد الرحمن الرافعى ، وكان رد الوفد عنيماً بعث الينا بحسلة يرأسها المغفور له حمد باشا الباسل والمغفور له الأستاذ محمود غنام وبعض أعضاء الوفد الآخرين واجتمعوا بنا فى مقر اللجنة فى نادى بشارع البحر لايزال قائماً الى اليوم بجوار فندق الاكربول ، ودارت مناقشة بين أعضاء الوفد وبين أعضاء اللجنة ، وكانت حجة أعضاء الوفد انه حزب وان النظام الحزبى يقتضى من أعضائه وانصاره وأتباعه تأييد مرشحيهم مهما كانوا ، وكانت مناقشتنا تدور حول تغليب الأهلية والكفاية على اعتبار الحزبية ، خاصة وان أكثرية النواب المرشحين من قبل الوفد فى هذه المديرية كانوا ذوى الكفاية ولم يكونوا فى حاجة الى غيره ولم يكن كثيراً على الوفد أن يترك دائرة واحدة فى مديرية تضم ٢٥ دائرة على ما أتذكر لمرشح ممتاز ذو ماضٍ مجيد مثل عبد الرحمن الرافعى ، وانهى الاجتماع باعلان فصل طلبة اللجنة وحلها ، وكان الرد أن انقلبت اللجنة كلها الى جانب عبد الرحمن الرافعى تؤيده علناً حتى اننا أخذنا أجازات من دراستنا فى أيام الانتخابات وخصصنا هذه الأجازة للعمل لتأييد عبد الرحمن الرافعى والدعاية له حتى نجح ولو أن النجاح كان بصوت واحد ، واعتقد أن المغفور له عبد الرحمن الرافعى لم يكن يتوقع هذه النتيجة لأن قوة حزب الوفد فى ذلك الحين برياسة سعد زغلول كان لا قبل لأحد

بمغالبتها والوقوف في وجهها ، ونجح عبد الرحمن الرافعي وكان
علما في أول برلمان اختير سنة ١٩٢٤ وكان موضع تقدير
سعد زغلول نفسه عندما تولى رئاسة الحكومة « (٣٧) » .

ويروى على عبد الله قرمد عن ذكرياته مع الرافعي ابان
الانتخابات فيقول : « التقيت به ابان شبابي عندما كنت أدرس
بالمعهد الدينى بطنطا وطالعت كتاباته العديدة في صحافة هذه
الفترة وعرفت ثوريتيه التى أدت الى اعتقاله فى المنصورة
سنة ١٩١٥ ، كما شارك فى لجان جمع التبرعات لحزب
الوفد - وهو رجل الحزب الوطنى ابان وجود سعد زغلول فى
باريس ولندن . بالاضافة الى مساعدته لأسر ضحايا الثورة
والعمال المصريين ، كما شاهدت تطوعه للدفاع مجانا عن
المسجونين المتهمين فى قضايا مظاهرات سنة ١٩٢١ ضد وزارة
عدلى يكن ، وقد ساهم فى تأسيس لجنة مقاطعة البضائع
الانجليزية ، وجمعية المواساة الخيرية ، لذا فقد سعت اليه
أتعرف به وأتسرب من وطنيته ، وكنت من شباب المنصورة
الذين ساندوه فى أول انتخابات مصرية . فعندما تشكلت لجنة
تنفيذية للدعوة له ، كنت ممن خطب وألف القصائد ومن
الذكريات التى تذكر بنزاهته واتزائه ، ان منافسه الوفدى
على عبد الرازق أصدر بيانا يسيء اليه فعكفت على الرد عليه
ونظمت قصيدة قلت فيها :

إليك عنا فلسنا نبتغي بدلا
من نابغينا بأحجار وأخشاب

أنا اعتزمننا وعين الله شاهدة
أن لا نبيع ضمائرنا لكذاب

القول للشعب لا للوفد فأنصرفوا
لسنا دعاة آقاويل وأحزاب

أنا نطالبكم بالعلم يصحبه
ما لا يدع حجة تبقى لمرتاب

أين الكفاءة والاختلاص أين هما
ما أن نطالبكم يوما بالقباب

دعوا ملابس سعد خاب فالكهو
لا يوجد المجد في الدنيا بأثواب

واتوا بأعمالكم أن صبح انكهو
جئتم لمصر بأعمال وأسباب

وذهبت بالأيات الى الرافعي في مكتبه ولكنني لم أجده
لأنه كان دائم التجوال في الأقليم ، فتركت القصيدة على مكتبه
الى أن يجيئ ويقرأها • وفوجئت بعد قليل برسالة يبعث بها
الى على جناح السرعة غير صابر حتى اجيء اليه • يقول فيها
« ... اسمح لي أن أقول أن عنوان القصيدة من جهة - الى
مرشح الوفد كلمة رد موجزة - وبعض أياتها من جهة أخرى
ربما يتخذها خصومي سلاحا ضدي ومع أني في الواقع
لست مسئولا عن احساس أصحابي وأنصاري فإن خصومي

كما تعملون لا يتركون فرصة الا واتتهزوها للنيل منى والايقاع بينى وبين زعماء الوفد مع ما بينى وبينهم من الصلات الودية والروابط الوثيقة العرى . وأنى لذلك ارجوكم رجاء خاصا أن لا تضيعوا هذه القصيدة ويكفى أنى سأحفظها عندى فى سجل الوثائق التى احتفظ بها » (٢٨) .

فما حكاية الصوت الواحد الذى أصبح به عبد الرحمن الرافعى نائبا بمجلس النواب عن دائرة مركز المنصورة ؟ لقد أجريت الانتخابات صباح يوم ١٢ يناير سنة ١٩٢٤ بعد معركة حامية الوطيس وتوافد الناخبون على صناديق الانتخاب . . . ويقترب موعد اغلاق الصناديق ويتقدم رجل مسن فيسأله رئيس اللجنة عن مرشحه فينطق باسم الرافعى ويسجل له رئيس اللجنة ما يطلب ، ولكن العجوز يتراجع راغبا فى تعديل اختياره للمرشح الوفدى وانه أخطأ فى الاسم ، ويرفض رئيس اللجنة الاستجابة الى طلبه . ويكتب عبد الرحمن الرافعى « فزت على منافسى بصوت واحد ، اذ نلت ١٧١ صوتا ونال هو ١٧٠ ، وكان عدد المندوبين الذين أعطوا أصواتهم ٣٤١ مندوبا . كان هذا الصوت الواحد حديث الناس فى مجلسهم ، وتحدث الناس كثيرا عن نجاحى بصوت واحد ، وقال لى بعض الصوفية انه صوت الله ، فحمدت لهم هذا التعبير ، وقلت لهم اننى فعلا كنت ومازال (ولا ازال)

معتددا على الله • وقد لعن في انتخابي أمام مجلس النواب ،
واكتنف الطعن بحوث فقهية طويلة في نصاب الأغلبية ،
ودمارليا ، وفي قيسة هذا الصوت الذي رجح كفتي في الميزان ،
وكان سببا لنجاحي ، وكان محور الطعن أن الأغلبية هي نصف
الأصوات زائدا واحدا ، وبما أن عدد الأصوات التي أعطيت
٣٤١ فيكون نصفها ١٧٠ ١/٢ زائدا واحدا ، وتكون الأغلبية
١٧١ ١/٢ لا ١٧١ ، وأنتى على هذا الحساب ينقصني نصف
صوت ! ولكن لجنة الطعون رأت أن طريقة الحساب بهذا الشكل
غير معقولة ، وأن الأغلبية في هذه الحالة تكون بجبر الكسر ،
وأقر المجلس وجهة نظر اللجنة ، وقرر رفض الطعن » (٣٩) •

ويفتح البرلمان باجتماع أعضاء مجلس النواب والسيوخ
صباح ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وكان حدثا كبيرا « ••• وكان يوما
مشهودا في تاريخ مصر الحديث ، فلأول مرة منذ وقع الاحتلال
سنة ١٨٨٢ اجتمع نواب البلاد وشیوخها المنتخبون انتخابا حرا
في برلمان تتمثل فيه سلطة الأمة • وقد أعاد هذا الافتتاح الى
الازدهان حفلة افتتاح مجلس النواب الأول الذي اجتمع
سنة ١٨٨١ في عهد الثورة العرابية ، وكان أول مجلس نيابي
كامل السلطة شهدته مصر الحديثة ، ثم عصفت به يد الاحتلال
فالغى سنة ١٨٨٣ ، وظلت البلاد بلا دستور أربعين سنة متوالية ،
الى أن ظفرت به سنة ١٩٢٣ » (٤٠) •

ويتولى الرافعى زعامة المعارضة بمجلس النواب على هدى مبادئ الحزب الوطنى ، ولا شك انه أثرى الحياة السياسية بمواقفه الوطنية ، الى أن انقض المجلس باستقالة الوزارة •

وخلفت وزارة أحمد زيور الوزارة المستقيلة ، وتكرر اعتداؤها على الحياة السياسية فى البلاد ، فشارك الرافعى فى الاحتجاج عليها مرات فى الصحافة اليومية • واستمرت الحياة النيابية معطلة قرابة عام الى أن دعا أمين الرافعى رئيس تحرير « الأخبار » الى جمع شمل الأحزاب فى اجتماع موسع للبرلمان لمواجهة التسلط ، فاجتمع من تلقاء نفسه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، واتفقت الأحزاب برئاسة سعد زغلول على توزيع الدوائر الانتخابية فيما بينها ، وأجريت انتخابات مجلس النواب فى مايو ١٩٢٦ ولم يتقدم الرافعى لترشيح نفسه كما قال فى مذكراته « ييدى لا بيد عمرو » نظرا لأن الوفد لم يخصص له دائرته السابقة ، بل نافسه فيها مرشح قوى من الوفدين • ويرجع الرافعى ذلك الى اعتراض سعد زغلول عليه لتزعّمه المعارضة ضد الوفد فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ •

وبعد أن ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الحياة النيابية قرابة ثلاثة عشر عاما ، يعود اليها فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ عضوا (بالتزكية) بمجلس الشيوخ عن دائرة كفر بداوى دقهلية ، والحقيقة انه منذ انتخابه بالمجلس الى أن انتهت عضويته به

في مايو ١٩٥١ حفلت مناقشاته واقتراحاته فيه كما اعتاد
بالموضوعة والاتزان وهو يطالب بـ (٤١) :

- تسوية ديون الفلاح •
- حماية الملكية الزراعية الصغيرة •
- الاهتمام بتعزيز الجيش •
- تبسيط النظام الداخلى للحكومة واهتمام
الموظفين بواجباتهم •
- اثناء مصنع مصرى جديد للورق بدلا من
الاستيراد •
- تمصير البورصة •
- زيادة عدد الملحقين التجاريين فى القنصليات •
- تحديد النسل •
- محاربة المسكرات •
- تمجيد ذكرى الزعماء المصريين جميعا •
- تأليف موسوعة المذاهب والأحكام الشرعية
بمعرفة وزارة المعارف العمومية •
- تبادل البعثات بين الأزهر والجامعة •

— تجنب مصر ويلات الحرب الثانية باعلان
حيادها •

— عدم تخفيض سن مستشارى النقض للاحالة
للمعاش من ٦٥ الى ٦٠ •

— حماية المعتقلين السياسيين •

— احياء الصناعات الوطنية وفق برنامج زمنى •

— اهتمام بالاقتصاد المحلى والنهضة الصناعية
والصناعات اليدوية •

— استقلال مصر المالى عن انجلترا ، مع مقابلة
الصادرات التجارية بواردات بدلا من سداد
القيمة نقداً لأن ذلك هو السبب الحقيقى
للتضخم النقدى •

— نشر الجمعيات التعاونية لمكافحة الغلاء •

— حرية الصحافة •

— ضرورة عرض الاتفاق الذى تم بين الحكومة
المصرية والحكومة الأمريكية بشأن اعفاء قواتها
أثناء الحرب الثانية على البرلمان •

— تقليل مدة خبرة المرشحين لتولى وظائف القضاء

من حملة الدكتوراه ودبلوم معهد العلوم
الجنائية •

— اشتغال القضاة بالسياسة وكانت الحكومة قد
قدمت اقتراحا بمنعهم •

— عدم تعيين خير اقتصادى بريطانى فى حكومة
النحاس فى مايو سنة ١٩٤٣ •

— توحيد الصفوف •

— مراقبة النقد الأجنبى •

— انشاء بنك للتعاون •

— تحقيق أهداف البلاد القومية وفى مقدمتها
الجلاء ووحدة وادى النيل •

— رفض المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦
بجواز اختيار شيخ الأزهر من غير أعضاء هيئة
كبار العلماء ومن يعين شيخا للأزهر من غير هذه
الهيئة يعتبر عضوا فيها بحكم القانون •

— عدم حبس الصحفيين •

— منع تملك الأجانب للأراضى الزراعية والعقارات
المبنية أو المعدة للبناء فى الديار المصرية • وفعلا

صدر القانون رقم ٣٧ بتاريخ ١٠ مارس
سنة ١٩٥١ « يمنع غير المصريين من تملك الأراضى
الزراعية فى المملكة المصرية » •

— عدم الاقالة الضمنية للوزير •

وابان عضويته بلجنة العمال والشئون الاجتماعية بالمجلس
واختياره مقررا لها صدرت القوانين الهامة التالية : قانون
نقابات العمال رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٢ ، وقانون عقد العمل الفردى
رقم ٤١ لسنة ١٩٤٤ •

وفى الحقيقة لقد أثرى عبد الرحمن الرافعى الحياة النيابية
بفيض هائل من الأفكار البناءة ، واستطاع فى نضاله داخل
البرلمان أن يكون مثالا عظيما ، يذكر فيحمد دائما • • • هى سمة
الشخصية الوطنية الأصيلة •

المراجع

- ١ - الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر
ج ٥ ط ١ ص ٥٣ .
- ٢ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ٨ .
- ٣ - عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ط ٤ ص ١٩٣ .
- ٤ - الدكتور محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية
ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٥٥ .
- ٥ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٢ .
- ٦ - عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .
- ٧ - المرجع السابق ص ٢٤٣ .
- ٨ - عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد ط ٣ ص ٤٩٧ .
- ٩ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ٢٧ .
- ١٠ - صبرى أبو المجد : أمين الرافعي ط ١ ص ٦٦ .
- ١١ - الدكتور محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية
ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٦٣ .
- ١٢ - الدكتور عبد العظيم رمضان : أوراق عباس حلمي الثانى
الخاصة . صباح الخير العدد ١٣٠٦ ١٥ يناير
سنة ١٩٨١ .

- ١٣ - أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ج ١ ط ١
ص ١٣٤ .
- ١٤ - الدكتور محمد حسين هيكل : مذكرات في السياسة
المصرية ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٦٧ .
- ١٥ - أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية ج ١ ط ١
ص ١٣٧ .
- ١٦ - عبد الرحمن الرافعي : ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ط ٢
ص ٦٠ ، ٦١ .
- ١٧ - المرجع السابق ص ٢٤٠ .
- ١٨ - أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية (تهيد)
ج ١ ط ١ ص ٣١٠ .
- ١٩ - يرم التونسي : المجموعة الكاملة لشاعر الشعب ط ١
ص ١٩٥ .
- ٢٠ - الأخبار عدد ٢٠ أغسطس ١٩٧٤ .
- ٢١ - عبد الرحمن الرافعي : مجموعة رسائل وخطب ومقالات
ج ١ ط ١ ص ١٠٩ .
- ٢٢ - عبد الرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ٣
ط ١ ص ١٥٢ .
- ٢٣ - المرجع السابق ص ٢٧٢ .
- ٢٤ - مصطفى أمين : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩
ج ١ ط ١ ص ٧ .
- ٢٥ - مصطفى أمين : من واحد لعشرة ط ١ ص ٢٠٣ .
- ٢٦ - مصطفى أمين : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩
ج ٢ ط ١ ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

- ٢٧ - عبد الرحمن الرافعى : نقابات التعاون الزراعية ط ١
ص ١٣٦ .
- ٢٨ - عبد الرحمن الرافعى : الجمعيات الوطنية ط ١
ص ٢٤٠ ، ٢٤٣ .
- ٢٩ - عبد الرحمن الرافعى : مجموعة رسائل وخطب ومقالات
ج ١ ط ١ ص ١١ ، ٩١ .
- ٣٠ - فتحى رضوان : مشهورون منسيون ط ١ ص ٨٢ .
- ٣١ - عبد الرحمن الرافعى : مجموعة رسائل وخطب ومقالات
ج ١ ط ١ ص ١١٠ .
- ٣٢ - مصطفى امين : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ ج ٢
ط ١ ص ٢١٩ .
- ٣٣ - عبد الرحمن الرافعى : ثورة سنة ١٩١٩ ج ١ ط ٢
ص ٢٣٥ .
- ٣٤ - الدكتور حسين مؤنس : دراسات فى ثورة ١٩١٩ ط ١
ص ١٥٥ .
- ٣٥ - عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ١
ط ١ ص ١١٢ .
- ٣٦ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ط ١ ص ٤٥ .
- ٣٧ - حديث خاص .
- ٣٨ - حديث خاص .
- ٣٩ - عبد الرحمن الرافعى : مذكراتى ط ١ ص ٤٦ .
- ٤٠ - عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ١
ط ١ ص ١٥٠ .
- ٤١ - عبد الرحمن الرافعى : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١
ص ١٠٧ .

تعاونيسا

كانت حدة التنافس الدولي على امتلاك المستعمرات قد بلغت الذروة في القرن التاسع عشر ، واستطاعت بريطانيا أن تحتل مصر ، وفرضت سيطرتها على مقدرات البلا حتى دانت لها بالولاء بعد أن صدم الشعب بنهاية الثورة العرابية • وقامت الأبواق بدورها تشبط من عزيمة الشعب ومقاومته حتى بات أمر وجود الاحتلال كأنه لا يعنيه ، وبدأت مصر بقرّة حلوبا لكل أجنبي وطأت قدمه أرضها •

وصارت النتيجة الحتمية لكل هذه التراكمات ان انهارت الصناعات المصرية أمام المعروضات الاستهلاكية الأجنبية التي تطلع اليها المصريون بافتنان ، وأصبحت الأرض الزراعية مزرعة لامدات مصانع لانكشير بالقطن •

وكما كان الفلاح المصرى غير سعيد الحظ فى ظل حكم محمد على الذى قام اقتصاده على الاحتكار (١) ، استمر الحال على ما هو عليه أيام خلفائه ، حتى أن المبعوثين المصريين الذين ذهبوا للدراسة بالخارج لم يهتموا عند عودتهم بتطوير حال الفلاح المصرى ، وهكذا بقى الوضع الى أن جاء القهر الانجليزى وتسلط أكثر الفساد الأوربى فدفع الفلاح المصرى الى القاع السحيق •

ولما كان مصطفى كامل الذى شغف بالدفاع عن وطنه المغتصب ، وشغلته الأحداث السياسية طوال عمره القصير (٢) ، فلم يستطع أن يعطى الناحية الاقتصادية مع علمه بخطورتها نفس الاهتمام • فقد جاء خليفته محمد فريد وتمكن من أن يوازن بين الجانبين ، فاهتم رجال الحزب الوطنى بالكتابة فى الشئون الاقتصادية للبلاد والعمل على وضع الحلول لعلاجها •• بل والمشاركة فى النشاط الاقتصادى أيضا وتفجير الدعوة التعاونية فى أنحاء مصر لانقاذها من المرابى الأجنبى الذى كان يشكل ظاهرة بشعة وخطرا داهما •

وعندما اجتاحت البلاد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٠٧ التى طحنت فى فلكها الفلاح المصرى ، اندفع الوطنيون سعيا من واقع أهدافهم السياسية للمشاركة فى رفع المعاناة عن الفلاحين والفقراء، وقد تبلورت هذه المشاركة الفعالة فى العجل على نشر التعاون

من أقصى البلاد الى ادناها ، وتولى الدعوة عمر لطفى مؤسس التعاون فى مصر ورئيس نادى الطلبة فى ذلك الحين ، فسافر الى ايطاليا لدراسة نظم التعاون بها حيث وجدها أقرب الى التطبيق فى مصر وأفضل من نظام التعاون الألمانى . وعقب عودته سنة ١٩٠٨ ابتداء فى نشر دعوته والقاء المحاضرات فى المدن والنوادر التى ارتادها (٣) ، وقد استجابت الجمعية الزراعية الخديوية بالقاهرة الى دعوته ، فدرست اقتراحاته وتقدمت للحكومة سنة ١٩٠٩ بمشروعى قانونى للتعاون واللائحة التنفيذية له ولكن الحكومة تجاهلتها . ولم يسلم الداعية المناضل عمر لطفى من مضايقات الحكومة لمحاربته سوء حال بنوك التسليف الحكومية ؛ فلم يملك غورست المندوب السامى البريطانى فى تقريره السنوى لحكومته عن مصر لعام ١٩٠٩ الا الاعتراف فعلا بفشل تجارب بنك التسليف (٤) .

وعلى الرغم من موقف الحكومة المعادى أو المتجاهل من الدعوة التعاونية الشعبية ، فقد ساهم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى ورجال حزبه ومن بينهم عبد الرحمن الرافعى بجهودهم فى النشاط التعاونى منذ سنة ١٩٠٨ وعملوا على انتشار الجمعيات الزراعية بالقرى وشركات التعاون المنزلية بالمدن (٥) .

وللرافعى مبادرة حميدة فى هذا المجال فعندما ألف كتابه « حقوق الشعب » سنة ١٩١٢ الذى يشتمل على محاضرات

يلقيها مجموعة من الطلاب أثناء العطلة الصيفية على أبناء قريتهم في المساء لتعليمهم ما لهم وما عليهم اتجاه الوطن • نراه في الاجتماع الثامن يشير الى رسالة وردت من أحد أعضاء الفريق الذى سافر لفرنسا للسياحة والدراسة ، ذكر فيها انه يقيم بإحدى القرى الفرنسية « ليدرس أخلاق الفلاح الفرنسى وعاداته فى معيشته وفى بيته وفى غيطه وهو يدرس على الأخص وسائل الاقتصاد الزراعى لأنه عازم على أن ينشئ فى بلده نقابة زراعية ويلقى على أعضائها دروسا فى الاقتصاد والتعاون » (١) •

وقد أنشأ أحمد لطفى خليفة عمر لطفى سنة ١٩١٢ نقابة عامة للتعاون المنزلى والزراعى للإشراف على هذه النقابات والشركات المنشأة والعمل على نشرها فى كافة أنحاء البلاد ، حتى ارتفع عددها سنة ١٩١٤ نتيجة لجهود الوطنيين فبلغت ٢٣ نقابة زراعية ، و ١٧ شركة تعاون (٢) •

وكان محمد فريد بالنسبة للرافعى قمة الوطنية بعد مصطفى كامل ، فاتجه الى الأخذ بفكره واتباع هديه ومداومة الاتصال به مضجيا بسنيه بكل ما يمكن أن يتعرض له من اضطهاد وسجن ، ولا تنقطع الصلات بين الرافعى وأستاذه محمد فريد بعد مبارحة الأخير مصر سنة ١٩١٢ ، فirasله بشكل منتظم وتحمل رسائله الى زعيمه ، فى هذه الفترة صورة قاتمة للأحداث السياسية ، واضطهاد السلطات البريطانية للوطنيين

مما أدى الى عزوفهم عن المشاركة فى الأنشطة السياسية وابتعادهم عن الأضواء وهو من بينهم ، بعد أن رأوا التنكيل الذى حدا بزعيمهم - أى فريد - الى النفى الاختيارى ، ولكن محمد فريد فى رده على عبد الرحمن الرافعى .. يدعو الى عدم اليأس ويخطط له مسارا وطنيا آخر ، بجانب السياسة ولا يقل نفعا عنها بل يساويها وهو العمل فى المجال الاقتصادى ، ايمانا بأن استقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى . فى هذه الرسالة التى بعث بها فريد فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٣ من الآستانة الى تلميذه يقول فيها « .. فاذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين الى عدم اظهار احساسهم الوطنى ، فما يمنعهم من صرف همتهم الى المشروعات الاقتصادية ، كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمالى ، وقد برهن ما أسس منها على نجاح عظيم ، وعلى استعداد الأمة للقبال على مثل هذه المشروعات ، هذا ميدان واسع للجميع ، فادخلوا فيه بهمة ونشاط ، فاستقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى » (٨) . وكان هذا بمثابة نقطة الانطلاق للرافعى حين يأخذ بنصيحة رائده ، وهو يضع النقاط الاساسية لموضوع التعاون . ويتحدث عبد الرحمن الرافعى عن هذا الأمر فيقول : « وقد عملت بنصيحتة ، وضاعفت جهودى فى خدمة الحركة التعاونية والحركة الاقتصادية ، وصرفت سنة ١٩١٣ فى وضع

كتابتى عن (التعاون) ، والمساهمة فى تأليف بعض النقابات الزراعية ، ودراسة بعض الشؤون الاقتصادية » (٩) .

وفى سنة ١٩١٤ يصدر الرافعى كتابه الثانى عن « نقابات التعاون الزراعية » فى فترة افتقدت فيها المكتبة العربية ، الأبحاث والمراجع فى هذا المجال . ويهنئه محمد فريد على ذلك فى رسالة بعث بها من جنيف فى ٢٣ يولية سنة ١٩١٤ بقوله : « .. فقد وصلنى كتابكم فى تاريخ النقابات ومستقبلها فى مصر ، وقرأته من أوله لآخره ، فألفيته أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام ، فشكرا على هذه الخدمة الوطنية التى لا تقدر ، وفقكم الله للاستمرار فى هذا الطريق المفيد . وأفاد البلاد بآرائكم . والأمل الآن أن كل النقابات التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه أو تضطر هى لتعديله » (١٠) .

وفى يولية سنة ١٩١٩ يؤسس عبد الرحمن الرافعى مع مجموعة من أصدقائه بالمنصورة ، جمعية لنشر وتعميم جمعيات التعاون الزراعية فى قرى الدقهلية ، مساعدة للفلاح المطحون ، ويستمر الرافعى حاملا لواء التعاون فى المنصورة والعمل بجد على نشر جمعياته المختلفة وذلك بمساعدة الشباب الوطنى المهتم بالتعاون ، مثل الدكتور محمد حسين هيكل ، وإبراهيم الطاهرى ، وحسين هلال ، وعبد الوهاب البرعى ، والدكتور إبراهيم الوكيل ،

ومحمود نصير ، وعبد الفتاح نور ، ومحمود مرسى • ولذلك ما أن حلت سنة ١٩٢٠ إلا وأسسوا - بعد الجمعيات التعاونية الزراعية - جمعيات التمويل الخيرية في المنصورة وغيرها من المدن في فبراير • يكتب الراقى مفصلا هذا الجهد بقوله « • • ولكن الحالة التي واجهناها سنة ١٩٢٠ اضطررتنا أن نعفى جمهور المستهلكين من الفقراء ومتوسطى الحال من عضوية جمعيات التعاون ، وعلى هذا الأساس انشأنا جمعية التمويل الخيرية بالمنصورة ، والغرض منها مشتري المواد الغذائية والحاجات الضرورية وبيعها لأعضاء الجمعية ولطبقة صغار المستخدمين والعمال والفقراء بدون ربح ، بقصد تخفيف وطأة الغلاء عنهم ومساعدتهم على الحصول على حاجتهم بأرخص الأسعار الممكنة ، وجعلنا رأس مال الجمعية مقسما الى حصص قيمة الحصص الواحدة خمسون جنيها ، توزع على الموسرين من أهل المدينة ، وجعلنا مهمة مجلس ادارة الشركة شراء الأصناف بالجملة وقت نزول أسعارها ، وعليه أن يسعى لدى الخيرين من أصحاب المزارع والتاجر من أعضاء الجمعية أو من غيرهم في مديرية الدقهلية أو غيرها للحصول على تعهدات منهم بتوريد بعض الأصناف الضرورية للتمويل بأسعار تقل عن الأسعار التي يبيعون بها في الأسواق ، مساعدة منهم لصغار المستهلكين الذين أنشئت الجمعية لدفع الضرر عنهم ، وعلى مجلس الادارة أيضا أن يجتهد في الحصول من جهات الحكومة على توريد بعض

الأصناف للجمعية بأسعار مخفضة ٠٠٠ وقد أدت هذه الجمعيات خدمات جليلة لصغار المستهلكين ، وانخفضت بفضلها أسعار الحاجات ولأصناف الضرورية ، فكانت من خير الوسائل لمكافحة الغلاء » (١١) •

وفي هذه الأثناء ينشر عبد الرحمن الرافعي المحامى ، عدة مقالات في جريدة « الأخبار » - التى أسسها أخوه أمين الرافعى - بتاريخ ٣ و ١١ و ١٨ مارس سنة ١٩٢٠ عن « تطبيق مبادئ التعاون لمكافحة الغلاء وجمعيات التموين الخيرية » ، وقد ساعده صديقه محمد أمين يوسف - والد على ومصطفى أمين - فى عقد اجتماع بدار الأوبرا بالقاهرة يوم ٥ مارس سنة ١٩٢٠ للدعوة الى تشجيع اقامة جمعيات التموين الخيرية (١٢) •

وكان انتخاب عبد الرحمن الرافعى عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة مركز المنصورة فرصة لمطالبة الحكومة من موقع المسئولية البرلمانية ، فى المساهمة فى دفع عجلة التعاون الى الأمام بعد أن أصدرت قانونه سنة ١٩٢٣ وانشأت فى نفس السنة لأول مرة قسما للتعاون بوزارة الزراعة • فأيناه يقترح بجلسته ٢٤ مارس سنة ١٩٢٤ تأليف لجنة جديدة بالاضافة الى اللجان القائمة تسمى « لجنة التعاون والشئون الاجتماعية » تتولى بحث الاقتراحات والمشروعات الخاصة بالتعاون الزراعى والمنزلى والمالى (١٣) ، وتوافق الأغلبية

الوفدية على اقتراحه بجلسة ٣٠ مارس سنة ١٩٢٤ ، وتشكل اللجنة من خمسة عشر عضواً ويصبح هو من بينهم سكرتيراً لها (١٤) . وتبدأ باكورة عملها في نظر قانون التعاون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣ ، وتقدم اللجنة مقترحاتها لاضافة تعديلات عديدة عليه ليصبح أكثر ايجابية وجدية في مجال التطبيق التعاوني في البلاد ، ولما كان مجلس النواب قد حل في ديسمبر سنة ١٩٢٤ عقب استقالة سعد زغلول ، فلم ييسر النظر في التعديلات . وتمر سنوات ويقر البرلمان في سنة ١٩٢٧ قانون التعاون الجديد بعد الأخذ بغالبية تعديلات « لجنة التعاون والشئون الاجتماعية » بمجلس النواب التي اقترحتها سنة ١٩٢٤ (١٥) .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٩ يعود الراقى للحياة النياية مرة أخرى عضواً بمجلس الشيوخ . ولما كان يعد من أقطاب التعاون في مصر ، فقد اختير في سبتمبر ١٩٣٩ عضواً بلجنة التعاون التي أنشأتها وزارة الشئون الاجتماعية ، هدفها العمل على النهوض بالحركة التعاونية . وتقدم اللجنة نتائج مقترحاتها للوزارة للعمل على انشاء بنك تعاوني مستقل أو تحويل بنك التسليف الزراعي القائم الى بنك تعاوني ، وتتولى مصلحة التعاون الاشراف على الجمعيات القائمة التي بلغت أربعة آلاف جمعية بالاضافة الى انشاء تفتيش للتعاون في كل مديرية على

أن يكون هناك مراجعا لكل ثلاثين جمعية ، وتدعيما لزيادة العمالة بالتفتيش ينقل اليه بعض العاملين من الوزارات الأخرى من مختلف المؤهلات اما لمراجعة الحسابات أو لنشر الارشاد الزراعى ومقاومة دودة القطن (١٦) •

ويشير الرافعى الى ما انتهت اليه هذه اللجنة بقوله : « قدمنا تقرير اللجنة بهذه المقترحات الى الوزارة فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ وقد نوهت الى هذا التقرير ومقترحاته فى كلمتى بمجلس الشيوخ بجلسته ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٩ وأهبت بالحكومة أن تعمل بمحتوياته ، وأظن أن هذا التقرير صار مع الزمن موضع التنفيذ تدريجيا ، مما كان له أثره فى اطراد النهضة التعاونية » (١٧) •

ويواصل مؤرخ مصر الحديثة كلما سنحت له الفرصة فى مجلس الشيوخ الحديث عن التعاون ، فنراه فى جلسة ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ يطالب الحكومة بالعناية بالجمعيات التعاونية والاشراف عليها على أن تمددا وزارة التموين بكافة احتياجاتها لأن فى ذلك مساعدة جدية على نمو أعمالها (١٨) •

وتقيم مصلحة التعاون فى ٥ يونية سنة ١٩٤٣ أول مؤتمر عام للتعاون فى المنصورة عاصمة الدقهلية تكريما لها باعتبارها من أوائل العواصم التى ساهمت مبكرا منذ سنة ١٩٠٨ فى انشاء

النقابات والجمعيات التعاونية ، ورأس المؤتمر فؤاد سراج الدين وزير الشؤون الاجتماعية ودعى عبد الرحمن الرافعى للمشاركة فيه . ويسجل الرافعى هذا الحدث فى مذكراته قائلا : « اقيم المؤتمر فى سيماء « ركس » بالمنصورة بالسكة الجديدة ، وكان المكان غاصا بالمدعوين من كبار الأعيان والموظفين والمتقنين من مختلف الطوائف ، وكان من خطبائه مدير الدقهلية وقتئذ محمود حسيب بك ، وقد أشار فى خطبته الى من خدموا التعاون فى مصر ، وذكرنى منهم ، فما أن سمع الجمهور اسمى حتى ضج المكان بالتصفيق الحاد المتكرر حتى اضطرت أن أقف وأشكرهم مبتسما ، فزاد التصفيق حدة وتكرارا ، فاغتنبت فى خاصة نفسى لهذه الظاهرة المفاجئة ، وعلمت أن منزلتى فى النفوس أكبر مما ظننت وأنه لا يجوز للمجاهد أن ييأس من أن هذه الأمة تقدر يوما عمله وجهاده » (١٩) .

ويختتم الرافعى مشاركته الفعالة وهو فى سن الخامسة والخمسين فى مجال التعاون ، عندما حولت الحكومة فى سنة ١٩٤٤ مشروع قانون الجمعيات التعاونية من مجلس النواب لمجلس البىوخ لدراسته ، فيحال الى لجنة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وتختار اللجنة عبد الرحمن الرافعى مقرا لها مع تكليفه بوضع تقرير واف عنه ، وبناء على التقرير المقدم تتم الموافقة عليه وتصدر الحكومة القانون رقم ٥٨ فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤ .

ويشير مؤرخنا الى ذلك بقوله : « ساعد هذا القانون على نشاط الحركة التعاونية ، وجاءت الحرب العالمية الثانية حافزا جديدا على اطراد هذا النشاط ، وخطا خلال سنى الحرب خطوات واسعة موفقة ، وتضاعف عدد منشآته ومنظماته ، وبخاصة جمعيات التعاون المنزلى ، اذ تبين من التجارب أنها وسيلة فعالة للحد من الغلاء الفاحش وحماية الجمهور من تلاعب التجار واستغلالهم حالة الحرب لرفع أسعار الحاجيات ، وساعد على انتشار هذه الجمعيات تقدم الوعى القومى والشعور بالواجبات الاجتماعية ، وادراك الطبقة المثقفة فى المدن والقرى روح التعاون ومراميه ، واضطلاع المثقفين بإدارة الجمعيات ، فنجحت منشآت عديدة صار بعضها مضرب المثل فى الانتظام وحسن الادارة ، نعم أن هناك جمعيات تألفت على عجل أو قام عليها أشخاص لا يؤمنون بمبادئ التعاون والاستقامة والنزاهة ، فلم تلبث أن سرى اليها الخلل والبوار ، ولكن الروح التعاونية سائرة فى الجملة فى سبيل التقدم والنمو . يدل على ذلك ان عدد الجمعيات التعاونية القائمة فى القطر على اختلاف أنواعها بلغ نيفا و ٢٠٠ جمعية ، وعدد أعضائها نيفا و ٨٠٠٠٠٠ عضو ، وبلغت قيمة معاملاتها فى السنة نحو ثمانية ملايين جنيه ، ومن مقارنة هذا الاحصاء بالاحصاءات القديمة يتضح ان الحركة التعاونية سنة ١٩٥١ — قد زادت الى ما يقرب من عشر أمثال ما كانت عليه قبل خمسة أعوام » (٢٠) .

المراجع

- ١ - الدكتور أمين مصطفى عفيفي : تاريخ مصر الاقتصادية والمالية في العصر الحديث ط ٣ ص ٥٣ .
- ٢ - الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية في مصر ج ٥ ط ١ ص ٧١ .
- ٣ - عبد الرحمن الرافعي : نقابات التعاون الزراعية ط ١ ص ١٨٧ .
- ٤ - المرجع السابق ص ١٩١ .
- ٥ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ٢٤ .
- ٦ - عبد الرحمن الرافعي : حقوق الشعب ط ١ ص ٩٧ .
- ٧ - عبد الرحمن الرافعي : نقابات التعاون ص ٢٣٣ .
- ٨ - عبد الرحمن الرافعي : محمد فريد ط ٣ ص ٥٠٦ .
- ٩ - المرجع السابق ص ٥٠٧ .
- ١٠ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ٢٦ .
- ١١ - المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤١ .
- ١٢ - المرجع السابق ص ٤٠ .

- ١٣ - عبد الرحمن الرافعي : أعماله في مجلس النواب سنة ١٩٢٤
ط ١ ص ٩٦ ، ٩٨ .
- ١٤ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان
ط ١ ص ٧٤ .
- ١٥ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٠٥
- ١٦ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان
ط ١ ص ١١٨ .
- ١٧ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٠٦ .
- ١٨ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان
ص ٢٨١ .
- ١٩ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ص ١٠٨ ،
- ٢٠ - عبد الرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ٢
ط ١ ص ٣٣٩ .

زعيماء للمعارضة

لعبت المعارضة دورا بارزا لا ينكر فى الحياة المصرية قبل يولية ١٩٥٢ ، فلم ترهب العناصر الوطنية بطش سلطات الاحتلال الانجليزى أو اذنا به ، أو تسلط الحاكم المستبد ومراكز قواه ولقد بدأ هذا الدور فى الظهور منذ وقت بعيد فى التاريخ الحديث خاصة فى أيام الخديو اسماعيل الذى ابتليت مصر فى عهده بالديون مما جعله يسمح بسيطرة الدول الأوربية ودخول الأجانب أعضاء فى الوزارة المصرية • وتحركت العناصر الوطنية لمجابهة التدخل الأجنبى وساندتها الصحافة • مما اضطر الخديو الى الاستجابة الى هذا التيار القوى وأسسند الوزارة الى شريف باشا الذى جعلها مصرية لحما ودما • يقول الراقى : « • فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، وكانت أول

وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية في تاريخ مصر الحديث ،
وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأنًا أنها وضعت دستوراً على
أحدث المبادئ العصرية • وقدمته الى مجلس شورى النواب
لينال اقراره ، وخولت ذلك المجلس سلطة جمعية تأسيسية تملك
حق اقرار الدستور وتعديله « (١) » •

وعندما وقع الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ ، بقيت بعض
القوى الوطنية تقاوم تسلطه حتى فى داخل مجلس شورى
القوانين - الهزيل - وجدت المعارضة عندما طالب أعضاؤه
سنة ١٨٩٤ من الحكومة بمنع تملك الأجانب للأراضى الزراعية
بعد استئدانة أصحابها وعدم قدرتهم على السداد •

ومنذ سنة ١٩٠٨ بدأ فى الأفق نجم شاب وطنى ثائر فطالعا
بمجموعة مقالات وطنية فى صحف الحزب الوطنى ، فى جريدة
« الأخبار » مقالة حماسية « لماذا لا نحترم ارادة الأمة » (٢) •

وما أن يصدر الملك فؤاد قانونا بفتح باب الانتخاب بعد
أن أعلن أول دستور للبلاد فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ حتى يفكر
عبد الرحمن الرافعى فى ان يطور جهاده الوطنى بمحاولة دخول
البرلمان ، ويقرر أن يخوض المعركة الانتخابية مع مجموعة
من زعمائه أعضاء الحزب ، وتختاره جماهير مركز المنصورة
نائباً عنها بمجلس النواب •

وقبل أن نتحدث عن مواقف الرافعي داخل أول برلمان
مصرى ، نشير الى تصوره للحياة النيابية ومسئولية النائب وذلك
من خلال كتابه « حقوق الشعب » الذى اصدره لتوعية الشعب
بحقوقه وواجباته السياسية ، كان الرافعي يرى أن وجود الحياة
الديمقراطية فى مصر كفىل بانقاذها من الاحتلال الانجليزى
وتحقيق أهداف البلاد الوطنية • • • فأحسن وأسهل طريقة
لوضع القوانين بمعرفة الأمة هى أن يختار أهالى كل جهة من
جهات البلاد رجلا منهم يحبونه ويحترمونه ويشقون بعلمه وفضله
فيكون هذا الرجل نائبا عنهم ومعبرا عن رغباتهم وارادتهم
فيجتمع هذا النائب ونواب الجهات الأخرى ويتكون منهم مثلا مائتا
أو ثلاثمائة نائب • وتكون وظيفة هؤلاء النواب أن يجتمعوا
جميعا ويتباحثوا فى وضع القوانين النافعة للبلاد والسهر على
تنفيذها ومراقبة الحكام مراقبة شديدة ومحاسبتهم على كل عمل
يأتونه مخالفا لتلك القوانين • هذا ما يسمونه بمجلس النواب •
فمجلس النواب هو مجموع الرجال النائبين عن الأمة أى الذين
أنابتهم الأمة للتعبير عن رغباتها وتقرير كل ما تريده • هؤلاء
النواب تنحصر وظائفهم كما قلنا فى التعبير عن رغبة الأهالى
وارادتهم » (٣) •

ويقول فى مكان آخر « • • • وعلى من يشتغل بالسياسة
سواء تحت لواء الأحزاب أو مستقلا - على أن يكون هذا

الاستقلال استقلالاً حقيقياً - أن تكون له مبادئ عامة يعتنقها،
ويعمل على تحقيقها ، ويصدر عنها في أعماله وتصرفاته ، لا أن
يكون هدفه الوحيد أن ينال لنفسه مركزاً ممتازاً في المجتمع
فحسب » (٤) •

ولهذا لم يكن غريباً أن يكون منهج الرافعي متسماً
بالموضوعية التي ظهرت في مناقشاته ، فهو يزن أعمال الحكومة
الوفدية بميزان دقيق ، وكأنه يقف على منصة القضاء ،
فيساندها فيما يراها مصيبة فيه ، ويعارضها فيما يختلف وإياها
حوله .. وهو موقف ينبع أصلاً من عدم تعارضه مع مبادئ
الحزب الوطني قبل كل شيء •

وفي البداية يحمل مشعل المعارضة نواب الحزب الوطني ،
مع أن عددهم كان أربعة هم عبد اللطيف الصوفاني
وعبد الرحمن الرافعي وعبد العزيز الصوفاني والدكتور
عبد الحميد سعيد • وقد جعلهم أسلوبهم الجاد غير المهاتر في
المناقشة يكسبون احترام وتقدير بقية أعضاء المجلس وأغلبيته
الوفدية ، مما دفع نواب حزب الأحرار الدستوريين وبعض
النواب المستقلين بل والوفديين أيضاً إلى الانضمام لجبهة
المعارضة حتى ارتفع عددهم إلى عشرين نائباً (٥) •

ومع ارتياح الرافعي إلى اهتمام النواب الوفدين بالمعارضة
الا أنه كان يرى- أن موقف حكومتهم يختلف عنهم ، ولعل نائباً

كان يطالب بأكثر مما يجب .ويطبق النظريات لا الواقع يقول
الرافعى : « .. فمع أن مجلس النواب كان فى الجملة واسع
الصدر بازاء المعارضة فالوزارة نفسها لم تكن على هذا الفرار ،
ويلوح لى أنها كانت تنظر الى المعارضين بعين الحق ، وبدا ذلك
فيما اضمره الوفد لنا من المحاربة فى الانتخابات اللاحقة ،
وكان واجبا على الوزارة أن ترحب بالمعارضة الدستورية ..
وكان يضيق صدرها أيضا بالصحف المعارضة ، فتعقيتها بالاضطهاد
والتحقيق والمحاكمة ، كانت المظاهرات العدوانية تقوم ضد
الصحف المعارضة فلا تبذل الوزارة أى جهد لمنعها ، وقد طلب
مرة من سعد أن يمنع اعتداء وقع على جريدة « الأخبار » التى
كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعى اذ كان المتظاهرون
يقذفونها بالطوب والحجارة ، فقال لمحدثه : أتريد منى أن أحمى
خصومى ؟ .. وأسرفت الوزارة فى التحقيق مع الصحفيين
المعارضين وتقديمهم الى المحاكمة ، وقد قضت المحاكم فى معظمها
بالبراءة » (٦) ♦

كانت الجلسة الأولى التى اعتلى فيها عبد الرحمن الرافعى
منصة الخطابة فى مجلس النواب فى ٢٩ مارس سنة ١٩٢٤ ، حيث
اشاد بخطاب العرش وحكومة سعد ورغب مع زملائه المعارضين
الثلاثة ادخال تعديلات على الخطاب بعدم تقييد مصر بتحفظات
تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ ، ولم يقبل المجلس ♦

وعلقت جريدة « المحروسة » الوفدية في عددها الصادر بعد يومين بقولها : « ... رأيت في ارافعى الأدب في التعبير • وخفة الروح في الاشارة والايماء • ولطف الدخول في الاخلاص للعرش والثقة بوزارة الشعب التى يرأسها الزعيم الجليل سعد زغلول باشا مما استدعى الهتاف وحسن الاستعداد للسماح، ثم التدرج الى طلب تعديل ، ولو كان المجلس مستعدا لسمعت كلمته وارجت دعوته • ولكن سلطان الرئيس • رئيس السلاطين » • • ١

وشرت جريدة « الأهرام » في عددها الصادر في ٣١ مارس سنة ١٩٢٤ « سمعنا في الجلسة التاسعة من جلسات مجلس النواب أربعة خطباء ينقدون خطاب العرش اطلقوا عليهم تسامحا كلمة « خطباء المعارضة » وقبلوا هذا الوصف تسامحا • ولما سئل المجلس هل يوافق على الرد الذى وضعته اللجنة على خطاب العرش أم يوافق على ادخال التعديل على ذلك الرد ، وقف الجميع الا أربعة قالت الغالبية « أربعة فقط » وبقينا أن هؤلاء الأربعة لو لم يكونوا خطباء المعارضة لوقفوا مع الواقفين • — لأن نفسية خطباء المعارضة ليست نفسية معارضة أو مقاومة للوزارة أو نفسية مشادة — بل هى نفسية آمال وآمانى دل سعد باشا المجلس على احترامها كل الاحترام عندما صفق هو ذاته للأستاذ الرافعى بك وعندما وجه كلامه خاصة

الى الصوفانى بك وعندما صافح الصوفانى بك وهو يهم بالخروج
من القاعة « (٧) •

ويواصل الرافعى نشاطه داخل المجلس فنراه - عندما
يرفض المجلس النظر فى اقتراح أحد النواب - البدر اوى عاشور
نائب نبروه - بنقل مركزى طلخا وشرين من مديرية الغربية
الى الدقهلية بحجة انه موضوع ادارى ، يثير قضية هامة وهى
أحقية المجلس بوصفه الممثل لسلطة الأمة فى مطالبة الحكومة
باستصدار قوانين بناء على رغبات النواب ، الا أن المجلس ينتهى
بأغلبية الآراء الى أن تكون الرغبات التى يقرها المجلس غير
ملزمة للحكومة مع عدم المساس بمسئولية الوزارة (٨) !

وتقف جريدة « الأهرام » بجانب عبد الرحمن الرافعى
مؤيدة موقفه ومفهومه ومنذدة بقرار المجلس « ... فاذا كانت
الهيئة النيابية القائلة فينا الآن قررت مبدأ نحن نراه خطأ بعد
ما رأته غالبيتها صوابا ، فان فى الهيئة النيابية حكمة مستكنة
تصلح دائما الخطأ ولا تصر عليه ، فلنولها ثقتنا ولتول هى
الصحافة اتباعها يتم التعاون والتآزر بين الأفكار والعقول
وتمحص الحقائق فلا يبقى الا الصحيح ، والهداية من
الله » (٩) •

وتحقيقا لمبادئ الحزب الوطنى يولى الرافعى اهتمامه
لوحة مصر والسودان والأحداث الدائرة فى السودان ، فنراه

بتاريخ ٧ أبريل ١٩٢٤ يقدم ستة أسئلة لوزير الأشغال العمومية
مرقص حنا باشا عن حقيقة مشروعات الري في السودان المدرجة
بكتاب (ضبط النيل) التي تصممها وزارة الأشغال المصرية
بشراكة المستشارين الانجليز ، والتي يقيمها الانجليز في الجزيرة
وسد النيل الأبيض في السودان واضرارها على الري في بلادنا
حيث تتحكم في كمية المياه لري مصر ومناسيبيها . فيقوم الوزير
بالرد على الأسئلة بجلسة ١٣ أبريل سنة ١٩٢٤ ولا يقتنع الرافعى
الذى يكرر مطالبته بتاريخ ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ بتأليف لجنة
فنية لدراسة الموضوع ، وعندما يناقش اقتراحه في جلسة
٢٤ مايو سنة ١٩٢٤ يكون سعد زغلول رئيس الوزارة ضمن
مناقشيه . وتعد هذه الجلسة واحدة من أعنف الجلسات التي
شاهدتها قاعة النواب ، فقد ارتفعت درجة غليانها حدة مناقشتها،
خاصة عندما وافق الوزير على تأليف اللجنة . ولا يكتفى
الرافعى بذلك بل يطالب الوزارة بالتدخل بحزم لاييقاف المشاريع
حتى تعرض اللجنة الفنية تقريرها ، وأن يكون اهتمام الوزارة
المصرية بهذه المشروعات لا يقل عن اهتمام الحكومة الانجليزية
بها . فيرد مرقص حنا قائلاً : . . . ان لاحق للرافعى في هذا الكلام
فلا علاقة له بسؤاله . ويتدخل رئيس المجلس أحمد مظلوم باشا
ويعد اشارة الرافعى خروجاً عن الموضوع . ويشارك سعد زغلول
في المناقشة في هذا الحوار الساخن مع عبد الرحمن الرافعى .
ويذكر أحمد شفيق الحوار الآتى :

رئيس الوزارة - الحكومة تقول أن المشروعات مضرّة اذا
اختلف المالك ، فهل تدلنا على الطريقة التي بها
يكون المالك واحدا ؟ ان ما نريده هو هذه الطريقة
ولسنا بمقصرين في شيء بل نريد حيازة السودان
دون الانجليز فما هي الطريقة العملية التي توصلنا
الى ذلك ؟

عبد الرحمن الرافعي - الوزارة يمكنها وقف هذه الأعمال •

رئيس الوزارة - المسألة ترجع الى أمر واحد وهو من الذي
يجب أن يضع يده على السودان ونحن أم الانجليز ؟
فما هي الطريقة التي بها نحوز السودان دون
الانجليز ؟ أما سياسة وخز الابر فلا أعرفها ، ونحن
قوم عمليون ، نحن نقول • ونكرر ونؤكد • ونقيم
الحجج على اننا ما لكون للسودان • وهم لنا
معارضون • ان كنت تعرف هذه الطريقة ولا تريد
أن تقضى بها علنا فتعال وأخبرني بها سرا • نحن
لا نفرط في حقوق الأمة ولا نتهاون في أمر السودان •
انما قوة وزارة الشعب مستمدة من قوة الأمة •
فما هي الطريقة التي بها نحوز السودان بدون منازع
وكلنا نسعى لهذه الغاية • كلنا يقول بأن السودان

لنا وهذا حقنا ففكر وتعال اتفق معنا على أحسن
طريقة • أما الكلام فكل واحد يمكنه أن يتكلم •

عبد الرحمن بك الرافعى - أنا عملى أيضا وأطلب من الوزارة
وقف المشروعات •

رئيس الوزراء - لقد طلبت الوزارة السابقة وقف الأعمال •
فكان الرد وقف الأعمال النافعة لمصر على النيل
الأبيض • واستمر العمل فى مشروعات النيل
الأزرق • وسمحت لهم الحكومة بالاستمرار فى
العمل على حسابهم وتحت مسئوليتهم •

عبد الرحمن الرافعى بك - هناك فرق بين الحكومة والشعب
والحكومات السابقة •

رئيس الوزراء - وإذا قلنا لهم أوقفوا العمل فقالوا لنا لا •
كما سبق • • دعونا ندير الأمور كما تقضى به
مصلحة البلاد •

عبد الرحمن الرافعى بك - ولكن المهندسين تابعون لوزارة
الاشغال •

رئيس الوزراء - تعال نولك الوظيفة التى تعجبك ونفوض لك
أمر وقف هذه المشروعات •

عبد الرحمن الرافعى بك - أنا لا أريد وظيفة وأطلب من
الوزارة أن تقوم بعملها لأن معالى الوزير يعلن أن
مصلحة الرى فى السودان تابعة لوزارة الاشغال
وعمالها تابعون لها •

رئيس الوزراء - أتريد سحبهم أتشير بذلك ؟

عبد الرحمن الرافعى - هذه اللهجة لم نكن لنتظرها من دولة
الرئيس فمنه ينتظر الأمل لا اليأس •

رئيس الوزراء - لا تقف موقف المعجز فقوتى من قوتك ، وقل
لى ما يمكننى تنفيذه • انك تسأل فما هو الغرض ؟
وهل تتوقف نحن عن عمل ما هو فى خير الامكان
اذا نريد السودان • ومحال أن تتركه غنيمة باردة •
وان ما تراه يابنى ليس تقصيرا •

عبد الرحمن الرافعى بك - واللجنة الفنية ، لماذا لا تعين فهل
ينتظر حتى تنتهى المشروعات فتعين وتصبح أمام
الأمر الواقع ؟

رئيس الوزراء - نحن نعرف ونقول بأن المشروعات مضرّة •
اذا اختلف المالك فما فائدة اللجنة وهى لن تقرر
أكثر مما نعرف » (١٠) •

ومن أشهر مناقشات الرافعى معارضته فى جلسة ٢٤ يونية

سنة ١٩٢٤ لتنفيذ قانون تعويضات الموظفين الأجانب الذين تركوا خدمة الحكومة الصادر في ١٨ يولية سنة ١٩٢٣ - قبل تولى سعد الحكم - حيث يكلف ميزانية الدولة مليوناً وثلاثمائة ألف جنيه • ويكون رد سعد زغلول رئيس الوزراء متفقاً في الجوهر مع الرافعى ومؤيداً له ، ولكن للسياسة منطقها ولصاحب القرار مسئوليته « والنار لا تحرق الا من يقبض عليها » كما يقول المثل الشعبى • ويشير الزعيم المصرى الى موقفه المعارض من القانون قائلاً :

- لا أقول الى أول شخص انتقده ولكنى من الذين انتقدوه بكل شدة واستنكروه • وقد بينت عيوبه ولا أزال استنكره وأعده ضربة على الخزانة وثكبة على أموال الأمة وانه سابق لأوانه • بل أقول أيضاً انه مخالف للدستور ولم أقل هذا الآن فقط بل قلت هذا قبل الآن بزمان طويل وقبل خطبة العرش قلته رسمياً وكتبت به للحكومة الانجليزية فأنا بصفتى منكم وبصفة كونى رئيس الحكومة أعتبر هذا القانون باطلاً ومخالفاً للدستور ومجحفاً بحقوق الخزانة وسابقاً لأوانه • أعتبر كل هذا واستنكره من قلبى وجوارحى ولكن فرقاً بين أن يستنكر الانسان شيئاً ويحتج عليه ويعتبره باطلاً وبين أن يتوقف عن تنفيذه • مثل ذلك حكم يصدر على

نافذ المفعول • قد استنكره واحتج عليه ولكن أتقذه
رغما عني • مكره أخاك لا بطل فهذا القانون الذي
هذه صفاته اعتبره معاهدة واتفاقا مأذونا به من
السلطة الشرعية في البلاد وبهذا انعقد الاتفاق بين
الطرفين واني أوافق حضرة الرافعي بك في أن هذا
ما كان ينبغي أن يعمل • ولكنه عمل وارتبطنا به
فمهما كان في هذا الارتباط من البطلان القانوني
فقد انعقد سياسيا ولا يمكن لأحد الطرفين أن يتحلل
منه الا باتفاق مع الطرف الآخر • ولا يمكننا أن
نتهى الأمر بيننا وبين الطرف الآخر بمجرد القول
ببطلان هذا بل ينبغي أن تتحدث مع الطرف الآخر
وتتفاهم معه حتى نصل الى الاتفاق على بطلانه
والامتناع من تنفيذه هناك دولة ارتبطت معنا فإذا
تشبثنا بالبطلان وامتنعنا عن التنفيذ وقالت لنا هذه
الدولة ليكن ذلك • ولنرجع الى الحالة التي كنا عليها
قبل هذا الارتباط فهل يمكن أن نحتمل عودة الموظفين
الأجانب الى مصالح الحكومة اهل منكم من يقول
هذا ؟

أصوات - حاشا

رئيس الوزراء - ما كنت أريد أن أقول ذلك ولكن الضرورة

الجأتني اليه ، نعم أن المبلغ باهظ ولكن العودة الى الحالة الأولى أصعب لقد اشترينا بهذا المبلغ الباهظ سعادتنا الداخلية لأن الموظفين الانجليز كانوا سادة وحكاما لذلك لما جاءت طريقة أخرى للحكم قالوا لا يمكننا أن نعيش كمحكومين أو مسودين ويجب أن نخرج ونأخذ تعويضا • فهذا منشأ قانون التعويضات • وتقرر الأغلبية اعتماد المبلغ (١١) •

ولاشك أن كثيرا من الاقتراحات التي قدمها عبد الرحمن الرافعى فى مجلس النواب ، تؤكد الجهد الكبير الذى قام به والدراسات التى أعدها ، وقبل ذلك ايمانه بالخدمة الوطنية وهذه بعض اقتراحاته (١٢) :

— ايفاد بعثات علمية للتعاون فى ايطاليا وبلجيكا وهولندا وايرلندا • وعده نائب وزير الزراعة بقرب تقديم الوزارة لقانون خاص بذلك •

— استثمار الأموال المودعة بالبنوك لفائدة الجامعة المصرية بافتتاح أولى كلياتها •

— تكليف المطبعة الأميرية بطبع مؤلفات والمحاضرات العلمية بالاضافة الى ما تقوم به من أعمال نظرا لطاقاتها الكبيرة المعطلة • وهذا يلفت الى اهتمامه المبكر بالثقافة ونشرها • ويجيبه وكيل وزارة

المالية أن المطبعة كانت تقوم بطبع احتياجات دار الكتب الى أن أقامت الدار لها مطبعة خاصة والمطابع الأميرية على استعداد لطبع النافع .

— تأجير أطيان الحكومة للأهالى المقيمين ببلادها وتفضيلهم على غيرهم خدمة للصالح العام ، وقامت الحكومة بذلك مع الوعد بالتوسع فيها .

— انشاء اسطول تجارى مصرى بدل الاعتماد على بواخر الشركات الانجليزية . . استعادة لعظمة الملاحة البحرية المصرية التى ازدهرت أيام محمد على وباع الاستعمار البريطانى بواخرها . وعندما اعتذر وزير المواصلات بضيق الوقت وقلة المال ، طلب الرافعى البدء بشراء مركب أو ثلاثة كنواة ، اتفق فى هذا مع اللجنة التى شكلت لترتيب زيارة الحجاج ووعدت الوزارة بتدبير المبالغ المطلوبة .

ولاشك ان موقف عبد الرحمن الرافعى أحد قادة الحزب الوطنى من معاهدة ١٩٣٦ ، تستأهل وقفة خاصة . لم تكذ تذايع نصوص معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ التى وقعتها هيئة المفاوضة المصرية المؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عدا الحزب الوطنى ابان حكومة النحاس باشا ، حتى اهتم الرافعى

سكرتير الحزب الوطنى يبحثها وتحليلها فى مقال حاد نشره بعد عشرة ايام من اعلان بنودها فى جريدة « الأهرام » فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦ • ولم يكتف الرافعى بذلك بل طبع نصوص المعاهدة ورأيه فيها فى كتيب صغير على حسابه مرتين متتاليتين وكل طبعة فى خمسة آلاف نسخة فى ٦٤ صفحة من القطع الصغير وزعها بالمجان وكان عنوان الكتيب (قواعد المعاهدة استقلال أم حماية - بحث وتحليل -) مشيرا فى المقدمة الى « الآن وقد نشرت نصوص المعاهدة ، وانقضت فترة كافية لمن أرادوا الابتهاج بها ، يجب على الأمة أن تبحثها وتفهمها على حقيقتها • لأنها لا ترتبط بحقوق الأفراد وحدهم بل تتعلق بحقوق الوطن • فى حاضره ومستقبله • ولا تقتصر نتائجها على الجيل الحاضر فحسب • بل تتعدى الى الأجيال جملة • واذا كانت عقود التصرفات بين الأفراد كالبيع والايجار والرهن وما الى ذلك لا يرمها أصحاب الشأن الا بعد بحثها وتمحيصها وانعام النظر فى شروطها ومحتوياتها • فأجدر بالعقود التى يرتبط بها مصير أمة أن تكون موضع الدرس والعناية من طبقات الأمة كافة حتى تتبين أى مصير هى قادمة عليه اذا هى قبلت المعاهدة » •

وكان أهم جوانب نقد الرافعى لها ، ان الشروط العسكرية فيها والتى تعد من أهم بنودها ، قد اشتملت على مزايا للانجليز تفوق ما رفضه سعد زغلول سنة ١٩٢١ ورفضه النحاس نفسه سنة ١٩٣٠ فهى قد اتاحت للمحتل :

— رقعة أوسع ، حيث تستوعب منطقة القناة كلها وشبه جزيرة سيناء كلها والجزء الجنوبي من الشرقية لحدود القاهرة وحدود الجيزة •

— لم تحدد عدد القوات الانجليزية • كما أنها فرضت على الجانب المصرى لانتقال قوات الاحتلال انشاء المعسكرات والطرق الحربية اللازمة وتحسين المواصلات •

— ابقت الطيران الانجليزى فى القناة قريبا من السكك الحديدية واشترطت على الحكومة المصرية انشاء مطارات جديدة — وقد تبين ان هذه الانشاءات لن تقل عن عشرين مليون كراى المهندسين •

— قيام الحكومة المصرية بتقديم جميع المساعدات داخل حدودها فى حالة قيام حرب •

وكان من عيوب المعاهدة أيضا فى نظر الرافعى ، انه لا يصح النظر فيها الا بعد عشرين عاما • وكذلك فى حالة عدم اتفاق الطرفين بعد ثلاثين عاما من ابرام المعاهدة ، يعرض الأمر على الأمم المتحدة • كما أصبح السودان من خلال المعاهدة مستعمرة انجليزية تحرسها القوات المسلحة المصرية تحت سيطرة الحاكم العام البريطانى •

ولم تفد المعاهدة في الغاء الامتيازات الأجنبية والمحاكم
المختلطة كما كان متوقعا بل اساءت الى مصر حيث لن تستطيع
أن تلغى الامتيازات من جانبها فقط بل التزمت بالاتفاق مع
الدول المعنية •

ورأى الرافعى أن شروط المعاهدة تتمثل فيها قواعد
الحماية ، فالمحالفة أبدية • كما أنها حولت الاحتلال غير المشروع
الى احتلال مشروع بالسيطرة على السودان وبقاء القوات
المسلحة المصرية تحت تأثير البعثة العسكرية البريطانية وكان من
رأيه أيضا ان الاعتراف بأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ،
المقترن ببقاء القوات البريطانية في مصر ، لا ينتج استقلالاً •

ويختتم عبد الرحمن الرافعى تحليله بقوله « ان الأمم
لا تتعاقد وعلى الأخص لا تتحالف ولا تتصادق على قاعدة
التسليم في حقوقها وقبول الحماية عليها • ان الحماية قد تفرض
على الأمة رغما عنها بحكم القوة • وفي هذه الحالة يبقى حق
الأمة ثابتا وروحها سليمة • أما قبول الحماية وجعلها أساسا
لصدقة ومحالفة • فهذا عمل أمة تعبت من الجهاد القومى
وانصرفت عنه • وآثرت التسليم في استقلالها • وهذا
ما لا ترضاه أمة تقدر قيمة الاستقلال وتحافظ على حقوق
الوطن المقدسة • ورحم الله المغفور له محمد بك فريد اذ يقول

(انا نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لا نعرف التسليم
في حقوقنا وانتازل عن مطالبنا » (١٣) •

وظل الرافعى يندد بالمعاهدة كلما وجد الى ذلك سبيلا ،
وطوال عضويته بمجلس الشيوخ (١٩٣٩ - ١٩٥١) فعل ذلك
أيضا ، حتى بدا الأمر حيناً غير طبعى • ومن أطرف المواقف
ما حدث فى جلسة ١٢ يونية سنة ١٩٤٠ وهو يتحدث عن
دخول ايطاليا الحرب الثانية وقطع الحكومة المصرية علاقتها
الدبلوماسية معها ، ورغبته فى اعلان حياد مصر •• قال :
« •• قطع العلاقات قد يؤدى بنا الى مشاكل والى الاستهداف
الى ويلات الحرب • قد يقال اننا مرتبطون بالمعاهدة ولا يسكننا
أن نبقى على الحياد مع وجود نصوص هذه المعاهدة • وهنا
أستسمحكم ولا أقصد توجيه اللوم الى أحد أن أقول أن
المعاهدة قد ألقت علينا تبعات ثقيلة كنا فى غنى عنها » • فينبى
لرافعى رئيس المجلس (محمد محمود خليل) بقوله : ارجو من
حضرة الزميل أن يتكلم فى الموضوع فالمعاهدة قد صدق
عليها البرلمان ولا محل الآن لنقدها فى هذا المقام ! ولكن
الرافعى يتابع هجومه على المعاهدة ، فيرد عليه هذه المرة رئيس
الوزراء على ماهر قائلاً : لقد نصت المعاهدة على ان نعاون
الحليفة داخل حدود الأراضى المصرية بجميع التسهيلات
والمساعدة التى فى وسعنا • ولكن الرافعى يشير الى أن الأحكام

العرفية المعلنة في البلاد فيها الكفاية • فيعقب العضو يوسف أحمد الجندي قائلاً : لزم علينا في هذا الموقف العصيب أن نصارح أنفسنا بالحق والواقع فيجب أن نقول ان بلادنا في مركز يرثى له ولا يحسد عليه في مركزها هذا سواء أكانت المعاهدة قد عقدت أم لم تعقد • اذ ليس بصحيح ما قاله زميلي الأستاذ عبد الرحمن الرافعي من أن المعاهدة ألقت علينا أعباء ثقيلة • فهذه الأعباء موجودة حتما • ولا بد من أن توجد ما دام في هذه البلاد جندي انجليزي واحد • وهذه هي حالة البلاد قبل ان تعقد المعاهدة ووقت ان لم تكن متمتعة باستقلالها • فنحن في مركز دقيق غاية الدقة • وكل غيور على مصلحة هذه البلاد يجب عليه أن يعمل ويسعى بكل ما يستطيع ليخفف عنها الولايات التي قد تتعرض لها بسبب الحرب » (١٤) •

ومن أشهر مناقشات الرافعي حول المعاهدة أيضا ، ما وقع في جلسة ٣ يونية ١٩٤٢ وهو يناقش خطاب العرش في عهد وزارة مصطفى النحاس فما كاد يتكلم عن الحياد والجملاء والسودان ، حتى أخذ ينتقد المعاهدة فعارضه وزير العدل وتدخل بهي الدين بركات رئيس المجلس لتخفيف حدة الرافعي (١٥) •

وفي جلسة ١١ أكتوبر ١٩٤٥ قدمت الحكومة مشروع قانون بالموافقة على ميثاق الأمم المتحدة الذي وقعته ٥٣ دولة

من بينهم مصر في مؤتمر سان فرانسيسكو في ٢٦ يولية ١٩٤٥
فيعرض الرافعى على هذا الميثاق ويربط بينه وبين نصوص
معاهدة ١٩٣٦ حيث رأى انه عبارة عن احياء وبعث
وتجديد لها ا

وفي جلسة ٦ أغسطس ١٩٤٥ يتحدث الرافعى في
استجوابه عن الأهداف القومية للبلاد ويطلب الحكومة بمطالبة
انجلترا بها ويعرج على المعاهدة « أنا بطبعي ميال الى الوسائل
السلمية في المطالبة بأهداف مصر » بقيت كلمة ربما وجهت
بها وهي أن يقال لى ان بين مصر وبريطانيا معاهدة فما رأيك
فيها ؟ وأنا فى الواقع لا أريد ان احاججكم بالمنطق الذى
تعودتموه منى فى هذه النقطة وهو اننى لم أقبل هذه المعاهدة
ولم أقرأها ، وهذه حجتى . ولكننى لن أتمسك بهذا المنطق
فى هذه الليلة بالذات ، لأننى أريد أن تكونوا راضين عن
أفكارى ولذلك فانى ألجأ الى منطق آخر أعتقد أنه يرضيكم
تمام الرضا ، وهذا المنطق هو أن العقود التى تبرم بين الدول
يجب أن يكون أساسها الحرية التامة لأن العقود بين الدول
كالعقود بين الأفراد اذا شابها اكراه أو ضغط فهى عقود غير
ملزمة . فالظروف التى وقعت فيها معاهدة سنة ١٩٣٦ ليست
ظروفا تدل على حرية تامة فى التعاقد . . ولذلك نرجو أن تستبعد
كل حجة تستمد من هذه المعاهدة ، ويجب أن تكون حججنا

مستمدة من حقنا الطبيعي في الاستقلال ، وهذه هي الحجة التي لا يمكن مطلقا لأحد أن ينكرها علينا (١٦) •

وكذلك رأينا في مناقشته لخطاب العرش في عهد وزارة النقراشي بجلسة ١٤ يناير سنة ١٩٦١ لا يمل من التردد أن الأمة تريد أن تتحلل من المعاهدة •

ومن أهم مناقشاته الوطنية في ظل تسلط حكومة صدقي، مطالبته في جلسة ١٢ يونية سنة ١٩٤٦ بتعويض أسر شهداء الاسكندرية الذين قتلوا في المظاهرات برصاص الانجليز يومى ٢١ فبراير ، ٤ مارس سنة ١٩٤٦ وبلغ عددهم ٢٨ شهيدا واصابة ٣٤٢ جريحا • وهذا جانب من المناقشة بين اسماعيل صدقي رئيس الوزراء وعبد الرحمن الرافعى عضو الشيوخ :

اسماعيل صدقي - قلت ان القانون لا يلزمنى بدفع تعويض ، وقلت كذلك انى سأعطى تعويضا للذين يستحقون ويكونون في حاجة تستدعى الاعانة والشفقة •

عبد الرحمن الرافعى - أريد أن أقول ان هناك ما يسمى بالواجب العام ، وهو ما يجب أن تقدمه دائما على القانون • وأضرب لحضراتكم مثلا بسيطا اتخذه حجة ذلك أنه في كثير من الأحوال يتوفى موظف في أثناء تأدية

وظيفته ، فترى الحكومة أن تساعد ورثته بالتنازل
عن نصيبها في المعاش أو تقرر لأسرته معاشا
استثنائيا ، وهى ترمى من وراء ذلك الى تشجيع
الموظفين المقيام بأعمالهم استنادا الى الواجب العام •

اسماعيل صدقى - ليس هذا تشجيعا ، بل هى اعانة تقوم بها
الحكومة فى بعض المناسبات •

عبد الرحمن الرافعى - أظن أن الذى سقط فى الشوارع وفى
ميدان الجهاد أولى بالعطف من ورثة الموظف •

اسماعيل صدقى - أليس هذا ميدان جهاد ؟

عبد الرحمن الرافعى - أما النقطة الثانية فأتنى أرغب أن تظهر
الحكومة عناية أكبر مما جاء فى أقوال دولة رئيس
مجلس الوزراء • فقد كنت أنتظر عقب الحوادث
مباشرة أن يخصص مبلغ ابتدائى لعائلات الذين
سقطوا فى ميدان الجهاد حتى يكون منظرا حقيقيا
للعطف على هؤلاء • أما انتظار تحقيقات أو استيفاء
بيانات أو تحريرات أو أبحاث ، فهذا أمر يطول بهم •
وقد يصل الى عام ولا يصرف شئ للأسر
الشهداء (١٧) •

المراجع

- ١ - عبد الرحمن الرافعي : عصر اسماعيل ج ١ ط ٢ ص ٨ .
- ٢ - الأخبار عدد ٢٦ يونية ١٩٢٢ .
- ٣ - عبد الرحمن الرافعي : حقوق الشعب ط ١ ص ١١ .
- ٤ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ١٤٥ .
- ٥ - المرجع السابق ص ٤٩ .
- ٦ - عبد الرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية ج ١ ط ١ ص ١٥١ .
- ٧ - عبد الرحمن الرافعي : أعمالى فى مجلس النواب ط ١ ص ٧ .
- ٨ - المرجع السابق ص ١٨ .
- ٩ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١ ص ١٩ .
- ١٠ - أحمد شفيق : حوليات مصر السياسية - الحولية الأولى سنة ١٩٢٤ ط ١ ص ١٩٠ .
- ١١ - عبد الرحمن الرافعي : أعمالى فى مجلس النواب ط ١ ص ٤٦ .

- ١٢ - المرجع السابق ص ٩٤ .
- ١٣ - عبد الرحمن الرافعي : قواعد المعاهدة استقلال
أم حماية - بحث وتحليل ط ٢ ص ٦٢ .
- ١٤ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان
ط ١ ص ١٦٩ .
- ١٥ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ٩٧ .
- ١٦ - عبد الرحمن الرافعي : أربعة عشر عاما في البرلمان
ط ١ ص ٤٣٨ .
- ١٧ - المرجع السابق ص ٤٨٦ .

يكتب عن الشعر والشعراء

كانت شخصية المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (١٨٨٩ - ١٩٦٦) مع بساطة صاحبها الظاهرية شديدة العمق متنوعة الاتجاهات ، وهكذا لم يقتصر اتجاhe الفكرى على التاريخ فقط بل تجاوزه الى السياسة والتعاون والأدب أيضا خاصة الشعر ، ولا غرابة فى ذلك وهو يملك رؤية شاملة للأشياء والانسان . وهذا الجانب الأخير الذى يبدو غير عادى فى شخصية شيخ المؤرخين ، هو الذى تعالجه هذه الدراسة .

ان اهتمام مؤرخنا القوى بالشعر لم يكن تابعا من فراغ ، فقد عرف منذ طفولته طريقه الى الثقافة الاسلامية والشعر أيضا

بفضل أبيه الشيخ عبد اللطيف الرافعي أحد علماء الأزهر ومفتي
الاسكندرية الذي كان يدرس لأولاده بعض العلوم . ثم كانت
مطالعة عبد الرحمن في صغره في مكتبة أبيه الحافلة ، الخطوة
الثانية في هذا الاتجاه . ولم يكن عبد الرحمن وحده الذي
يعشق قراءة الأدب والشعر بين أخوته . بل كانوا كلهم مثله . .
أحمد وإبراهيم وأخيرا أمين الرافعي الصحفي والسياسي والوطني
الذائع الصيت في العشرينات .

وقد انعكست اهتمامات عبد الرحمن الرافعي بالشعر في
أربعة أشكال ، الأول مختاراته من الشعر العربي القديم التي
كان يدونها في مخطوط لم ينشر بعد ولم يشر اليه في قصة
حياته ، والثاني التضمن الشعر الذي حفلت به كتبه بشكل
واضح . والثالث الإشارة الى أشهر الأدباء والشعراء الذين
برزوا خلال الفترة التي تتناولها كتاباته . وأخيرا كتابه عن
« شعراء الوطنية » .

لقد كان مؤرخنا منذ صباه يسجل ما يعجبه من الشعر
الذي يطالع في دواوين العرب القدامى ، في أوراق خاصة
يحتفظ بها . . . ويقرأها كثيرا . وتاريخ هذا المخطوط الشعري
يرجع الى سنة ١٩١٧ وتصل صفحاته الى ٥٩٤ صفحة من
القطع المتوسط . واختار له عنوانا هو « مختاراتي من دواوين
الشعراء في الجاهلية والاسلام » (١) ! ويتكون من جزئين

يشتمل الأول على أربعة أبواب ويشتمل الثانى على الباب الخامس حتى الثانى عشر •

يسطر الرافعى فى المقدمة التى كتبها لمختاراته هذه الكلمات : « هذا ما اخترته من دواوين الشعراء على اختلاف طبقاتهم جاهلين ومخضرمين ومولدين • وقد توخيت فى هذه المختارات أن أدون فيها خير ما يتمثل به من أشعار العرب فى الكتابة والخطابة » •

وأبواب كل جزء تشتمل على عدة فصول ، ونبدأ بالجزء الأول • ففصول الباب الأول هى (فى الاخلاقيات) الذى يضم (فى ابناء الضيم والنفور من الذل) • وتحمل الفصول من الثانى حتى الخامس والعشرين العناوين التالية : فى ايثار الموت الشريف على الحياة الذليلة ، المعالى محفوفة بالمكاره والشدائد خير مرب للرجال ، فى النفوس الكبيرة ، فى الشجاعة وامتداحها ، فى الحق ، فى الافتخار بالشجاعة وشدة البأس ، السجن لا ينضب الكرام ، الهجرة من دار الذل ، فى عزة النفس والعفة ، فى الاقدام والمخاطرة ، الطموح الى المجد والشهرة ، مغالبة الدهر ، الحرص على الحياة ، فى المثابرة ، فى الحذر ، فى الاعتماد على النفس والتعويل على الله ، الاضطلاع بعظائم الأمور ، العفو عند المقدرة وذم النفاق ، كتمان السر وافشائه ، المرء أسير طبعه وعاداته ، على المرء أن يسعى ، الارجاف بالكذب والالاء

ينضح بما فيه ، مواراة عيوب الناس ، متفرقات في الاخلاق
والحكمة •

أما عنوان الباب الثاني فهو (في العواطف) يضم فصولا
سبعة هي : محبة الوطن والحنين اليه ، تحية مصر عند القدوم
اليها ، الحنين الى الأهل والصديق ، مناجاة الاطلاع ومخاطبة
الآثار ، في الغزل النسيب ، الفراق وآلامه ، الأمل غذاء
النفوس •

والباب الثالث (الزمان وأحواله) يشمل ثمانية أبواب
هي : في شكوى الزمان ، الكرام عرضه لنوائب الزمان ، العظيم
المجهول قدره ، في الصبر على المصائب واطراح الهم ، ذم الدهر
وغرور الدنيا والزهد فيها ، في السفر والغربة ، تقلبات الأيام ،
لا مرد لقضاء الله ، الآمال والأمانى •

أما عنوان الباب الرابع فهو (في الفخر) بدون فصول •

ويحمل الخامس اسم (في الاخوانيات) وفصوله الثلاثة
تحتوى على : الغياب ومسامحة الاخوان ، الشكوى من قلة
الأنصار والاخوان ، مظاهر الأخاء والصداقة •

والباب السادس (في الاستعطاف والتشكى) ولم يقسم
الى فصول •

والسابع (في المديح والتهاني) وتشتمل فصوله التسعة على : امتداح السيادة والتفوق ، كرم المحتد ، امتداح الشباب ، امتداح البلاغة والافتخار بها ، مدح الكرم والجود ، مدح العدل ، مدح العظماء ، في التهاني ، في الشكر والثناء .

والباب الثامن (في الهجاء) ويضم فصول ستة هي : فيمن حياتهم جناية على الناس ، لوم الجاهل ، عدم الأمانة ، لا يكرم اللئيم ، ذم النفاق ، في الحسد .

والتاسع (في الرثاء) يتكون من ستة فصول : الحكمة والفلسفة في معرض الرثاء ، التوجع في الرثاء ، رثاء الزعماء والأبطال ، رثاء العزيمة ، رثاء أهل بيت النبوة ، رثاء الأمم .

والبابان العاشر والحادي عشر لم يقسمهما الى فصول وهما (في الوصف والتشبيه) و (في النصيح والارشاد والزجر والتقريع والتهديد) .

أما الباب الثاني عشر (شذور متفرقة في الاجتماعات) فيشتمل على ثلاثة فصول : الحق المقتوة والسيف والقلم ، اجتماع الكلمة والدعوة للوئام ، شذور متفرقة في الاجتماع . والأخير يشمل على : في الشعر السياسي ، في الغزل والتشبيب ، الحنين الى أهل والحمى والصديق .

ويشتمل الباب الأخير على طبقات الشعراء والأدباء والعلماء في الجاهلية والاسلام ، ويحمل هذه العناوين :

(أ) عصر الجاهلية : أصحاب المعلقة •

(ب) العصر الاسلامى : عصر الخلفاء الراشدين والعصر
الأموى ينتهى بسقوط الدولة الأموية •

(ج) المحدثون ، العلوم الدخيلة ، الشعراء فى ذلك
العصر ، العصر العباسى ، العصر الأول ، ظهور الدولة العباسية ،
كتاب الرسائل والكتاب والمؤلفون ، علماء الأدب ورواته ،
علماء العروض والقافية ، علماء النحو ، الطبقة الثانية ، الطبقة
الثالثة ، الطبقة الرابعة ، الطبقة الخامسة ، الطبقة السادسة •

(د) العصر العباسى الثانى : شعراء الحرب والسلام ،
كتاب الرسائل والكتاب المنشئون ، علماء الأدب ورواته •
علماء النحو ، علماء اللغة ، علماء البلاغة ، علماء التفسير ،
علماء الحديث ، علماء التاريخ •

(هـ) العصر المغولى :

وبهذا الشكل ضم مخطوط الرافعى الشعرى ،
عشرات الاسماء من شعراء العربية الكبار فى مختلف
عصورهم حتى العصر المغولى • وهذه المختارات التى انتقاها
الرافعى من دواوين العرب لا تمضى بلا دلالة ، فهى تعكس من
ناحية ايمانه العظيم بالله وبالقيم الاسلامية التى ظل وفيا لها طوال
حياته ، كما تعرض من ناحية ثانية طبيعة عبد الرحمن الرافعى
الهادئة التى تقاوم ما يصادفها من صعاب ليس عن طريق العنف

بل عن الطريق الأطول . . . الاعتماد على النفس . ومن ناحية
ثالثة تعكس رسوخ عقيدة مؤرخنا الكبير في المثل العليا التي
اختارها لنفسه ثم دعا اليها غيره عندما أمسك بالقلم .

٢

أما الشكل الثاني الذي يعبر عن عشق الرافعي للشعر ،
فهو استعائته بالتضمين الشعري في كتاباته البالغة القدم والبالغة
الحدثة وما بينهما على السواء .

فقد كان مؤرخنا شديد الاهتمام بالحديث في كل كتبه عن
الحياة الفكرية والثقافية ، ومشاركة الأدب وخاصة الشعر في
الأحداث الوطنية ولم يكن يكتفى باختيار بعض أبيات القصيدة ،
بل يعرض القصيدة كاملة . وقد بلغ اهتمامه بدور الشعر ان
كان يضع أسماء القصائد التي يختارها عناوين في فهرس
الكتاب .

في احدى كتبه المبكرة والثالث من حيث مؤلفاته وهو
« الجمعيات الوطنية » - الذي صدر سنة ١٩٢٢ - يعرض
مثلا لبیت من الشعر معروف يتفق مع اشارته الى الاضطراب
الذي يصيب الأنفس ساعة الشدة ، وذلك في عهد الارهاب في
فرنسا بعد ثورتها ، الذي قدم الى المقصلة مجموعة من

الشخصيات العظيمة مثل داتتون الخطيب الممتاز وكاميل ديمولان
أكبر كتاب الثورة وعدم تبين الشعب لخطائه الا بعد أن قضى
عليهم .. والبيت يقول :

يقضى على المرء في أيام محنة
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

(ط ١ ص ٦٤)

وفي جانب آخر من الكتاب يشير كيف سمع العالم عن
بولندا سنة ١٨٣٠ وهن ثن من نير الاحتلال ، بعد هجرة
علمائها وكتابها وشعرائها لعواصم أوروبا ليثيروا عواطف العالم
لوطنهم السليب ، وكان من بينهم أشهر شعرائهم وهم :
آدم ميكافكس ، وشوين ، وجول سلواكى ، وآدم كرازنسكى ،
ونمسينفكس .

وعندما يشير الرافعى في كتابه السابع « عصر محمد على »
الى الفارق بين قوة محمد على الذى لم تزل منه انجلترا شيئاً
لتحقيق أطماعها وبين عهد أحفاده الضعفاء حيث احتلت انجلترا
مصر . يذكر مؤرخنا الكبير البيت المشهور :

لم اكن من جناتها علم الله
وانى بحرهما اليوم صالى

(ط ٣ ص ٣٥٦)

وكان عبد الرحمن الرافعي من أوائل الكتاب الذين لفتوا
بقوة الى رفاعة الطهطاوى ، عندما درسه طويلا فى نفس المجلد
« عصر محمد على » مصورا الصعاب التى تعرض لها عندما
تفاه عباس الأول سنة ١٨٥١ الى السودان لتولى نظارة مدرسة
ابتدائية بالخرطوم ويقدم اتاجه الشعرى الذى يعكس حالته
النفسية ، كما تعرض قصيدته التى قالها وهو فى السودان :

فما انا للأيام غير محارب
أصاحبها مستبشرا متهللا

فان كان حظى رامحا كنت رامحا
وان كان حظى أعزلا كنت أعزلا

(ط ٣ ص ٥١٩)

« وفى الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » يصف
مؤرخنا حالة الزعماء المصريين عند محاكمتهم وتقيهم ويتوقف عند
قصيدة البارودى التى يصف فيها رحيله عن أرض مصر
ومطلعها :

محا البين ما أبقت عيون المهى منى

فشبت ولم أقض اللبانة من سنى

(ط ١ ص ٥١٠)

ويقدم نموذجا آخر لرب السيف والقلم يفيض تضحية
وبطولة فى قصيدة له فى منفاه :

لم اقترب زلة تقضى على بما
أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

(ط ١ ص ٥٢٥)

ومن الملاحظ بهذه المناسبة أن الرافعي لا يستشهد
إلا بالشعر الذي يتفق مع وجهة نظره هو في الأحداث التي
يعرض ، وإذا كان هذا الموقف يبدو متسقا مع المنهج ، إلا أنه
في الوقت ذاته لا يتفق مع الموضوعية في الدراسة التي تستوجب
عرض وجهات النظر المختلفة وعدم الاقتصار على التفسير الذي
يقدمه الباحث . ولكن مؤرخنا لم يفعل ، وكان التضمين الشعري
يحمل وجهة نظر واحدة . . وفي هذا الموضع وهو الثورة
العراقية المدانة في معظم الأحوال من عبد الرحمن الرافعي ،
لا يأتي كاتبنا إلا بما يؤكد هذه الادانة . ولذا فليس بمستغرب
أن يذكر مؤرخنا قصيدة الشيخ محمد عبده التي قالها تأييدا
لرياض حين يصف واقعة عابدين وذلك قبل أن ينصهر في الثورة
إبان وزارة البارودي ويقول الشيخ محمد عبده في قصيدته :

قامت عصابات جند في مدينتنا
لعزل خير رئيس كنت راجيه
ذاك الذي أنعش الآمال غيرة
وخلص القطر فارتاحت أهاليه

(ط ١ ص ٥٤٠)

وتشتمل بعض كتب الرافعى على قصائد كاملة لمشاهير الشعراء ، كما فى كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » الذى يعرض لنماذج وطنية لأشعار حافظ ابراهيم وأحمد شوقى و خليل مطران واسماعيل صبرى وأحمد محرم وكذلك فى كتابيه « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » و « ثورة سنة ١٩١٩ » •

ولاشك أن مواكبة الشعر المصرى للأحداث القومية ومساهمة الكثير من الشعراء فى المواقف السياسية ، ساعدتا الرافعى المحب للشعر ، فى استخدامه وهو يدرس لتاريخ مصر الحديث •• ففى كتابه الرابع عشر « فى أعقاب الثورة المصرية » نجد الرافعى وهو يدرس اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ متحدثا بالحكومة ، وكذلك اجتماع المؤتمر الوطنى عصر يوم الجمعة ١٩ فبراير سنة ١٩٢٦ بحديقة منزل محمد محمود باشا الذى رأسه سعد زغلول • يعرض للقصيدة التى نظمها شوقى تحية للدستور وتوحيد الصفوف وألقاها فكرى أبازة والتى يقول فيها أمير الشعراء :

صرح على الوادى المبارك ضاحى

متظاهر الأعلام والأوضاع

ضافى الجلالة كالمتيق مفصل

ساحات فضل فى رحاب سماح

(ج ١ ط ١ ص ٢٥٥)

وفي الجزء الثاني من « أعقاب الثورة المصرية » يقدم
الرافعى قصيدة حافظ ابراهيم التى هاجم فيها الانجليز
وصدقى باشا سنة ١٩٣٢ قائلا :

بنيتم على الأخلاق اساس ملككم
فكان لكم بين الشعوب ذمام
فمالى ارى الأخلاق قد شاب قرنها
وحل بها ضعف ودب سقام
اخاف عليكم عثرة بعد نهضة
فليس لك الظالمين دوام
(ج ٢ ط ١ ص ١٥٨)

ثم يعرض الرافعى قصيدة حافظ ابراهيم التى قالها فى
أبريل سنة ١٩٣٢ بعنوان « الى الانجليز » متحديا ظلم المحتلين :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا
واطمسوا النجم واحرمونا النسيما
واملاوا البحر ، ان اردتم ، سفيننا
واملاوا الجو ، ان اردتم ، رجوما
واقيموا للعسف فى كل شبر
(كونستبلا) بالسوط يفرى الاديما
(ج ١ ط ١ ص ١٦٠)

وفي الجزء الثالث من نفس الكتاب يشير الرافعى الى قرار
الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بتاريخ

٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وما حل بالشعوب العربية من ضعف
وتفكك مستشهدا بقول الشاعر :

ومن رعى غنما في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد
(ج ٣ ط ١ ص ٢٣٩)

وفي موضع ثان وهو اهمال وزارة الوفد الأخير
سنة ١٩٥٠ - من وجهة نظر الرافعي عضو الحزب الوطني
وخصم الوفد - للمشروعات الانتاجية ، يستشهد مؤرخنا
بقول الشاعر القديم :

ومكلف الأيام ضد طباعها
متقلب في الماء جذوة نار
(ج ٣ ط ١ ص ٣٠٥)

وكان الرافعي محبا للتضمين الشعري ، ففي « جمال الدين
الافغانى باعث نهضة الشرق » الذى صدر بعد وفاته بأيام .
يكتب جمال الافغانى يصف ثورة الأمريكيين على
الاستعمار الانجليزى بقيادة جورج واشنطن :

السيف اصدق انباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
(ط ١ ص ١٦٩)

وليست مختارات الشعر والتضمين الشعري ، هما وحدهما

الليدان يعكسان حب الرافعى للفن العربى الأول ، بل انه يناقش
أيضا بعض القضايا الشعرية مثل حاجتنا الى شعر الملاحم
نصور فيه تاريخنا النضالى الرائع .

فقى كتابة الحادى والعشرين « تاريخ الحركة القومية فى
مصر القديمة من فجر التاريخ الى الفتح العربى » يلتفت الرافعى
الى اهتمام شعوب العالم بأمجادها وبطولاتها فى ملاحمها الشعبية
منذ كتابات هومير اليونانى صاحب الألياذة والاوديسة ، فيتساءل
« فهل لنا أن نأمل فى تخليد بطواة المصريين فى حرب التحرير ضد
الهكسوس . وأن نمجد هذه البطولة فى ملحمة من نظم شاعر
عربى يشيد بالروح الوثابة التى انبعثت فى الشعب المصرى القديم
وجعلته يكافح الهكسوس من أجل حرية الوادى واستقلاله ؟
هل نجد فى شعرائنا هومير الثورة على الهكسوس ؟ اننا نأمل
ونرجو » .

(ط ١ س ٨٣)

وكان عبد الرحمن الرافعى يجد بعض الاجابة فى كتابه وهو
يذكر قصيدة أحمد شوقى المشهورة « كبار الحوادث فى وادى
النيل » التى يعدها البعض ملحمة حديثة مشيرا الى بسالة
المصريين فى طرد الهكسوس :

لا رعاك التاريخ يا يوم (قمبيز)
ولا طنطنست الانبياء

دارت الدائرات فيك ونالت
هذه الأمة اليد العسراء

فبمصر مما جنيت لمصر
أي داء ما أن اليه دواء

نكد خالك وبؤس مقيم
وشقاء يجد منه شقاء

(ط ١ ص ١٧٠)

ولم تكن الكتابة وحدها هي التي تستوعب التضمنين
الشعري عند الرافعي ، ففي خطبه القليلة كان يستعين به فيها
أيضا .. فعندما أقيم في دمنهور مساء الجمعة ٢٠ يناير
سنة ١٩٢٨ احتفالاً لتأبين شقيقه أمين الرافعي يقول عبد الرحمن :
ذهب يلقي وجه ربه راضيا مرضيا ولسان حاله يقول :

قد عذب الموت بأفواهنا
والموت خير من حياة الدليل

اننا الى الله واننا له
وفي سبيل الله خير سبيل (٢)

٣

والشكل الثالث الذي يعكس حب عبد الرحمن الرافعي
للشعر وهو تسليط الأضواء على الشعراء - ضمنا - في بحوثه
التاريخية .. في مجال عالم الثقافة والفكر الذي يعده عنصرا

هاما في دراسة المجتمع المصري الذي لا يقل ان لهم يزد على
دنيا السياسيين والمهندسين والعلماء والعسكريين وغيرهم •

ففى « عصر محمد على » يتوقف مؤرخنا طويلا عند
رفاعة رافع الطهطاوى • (ط ٣ ص ٤٩٨) وفى كتاب « عصر
اسماعيل » الجزء الأول يتحدث عن كثير من الشعراء مثل
محمود سامى البارودى ، وعائشة عصمت تيمور ، وعبد الله نديم ،
وأديب اسحق ، والشيخ على الليثى ، وعلى أبو النصر المنفلوطى ،
والسيد صالح مجدى ، وابراهيم مرزوق ، ومحمود صفوت
الساعاتى •

وهذا نموذج لمعالجة الرافعى لشخصيات الأدب والشعراء •
ويكتب عن عائشة تيمور (١٨٤٠ - ١٩٠٢) قائلاً : « طليعة
اليقظة النسوية فى تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من
المصريات فى الشعر والأدب ، نشأت من بيت كريم ، اذ كان أبوها
اسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام فى عصر عباس الأول
وسعيد واسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت
عليها ملكة الأدب والشعر وهى بين السابعة والثالثة عشرة ،
ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتثقيفها ، وأحضر لها
أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهى فى
الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحبب اليها اجادته • فأكبت
على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ،

وتزوجت وهى فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك
الاسلامبولى ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب حيناً ، فلما
سببت ابتتها (توحيدة) عهدت اليها شئون المنزل ، وبعد وفاة
والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب ،
وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا
العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت الى
نظم الشعر ، ثم توفيت ابتتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ،
وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عدداً ، ثم عادت الى
الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ . ولها من الآثار
الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربى ،
و « شكوفة » وهو ديوانها التركى والفارسى ، و « نتائج
الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب
المقامات » (ج ١ ط ٢ ص ٢٥٧) .

وفى كتاب « الثورة العراقية والاحتلال الانجليزى » تناول
الرافعى باهتمام بالغ الشعاعين محمود سامى البارودى
وعبد الله نديم . (ط ١ ص ٥٢٠ ، ٥٣٠)

وكذلك يفعل فى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظم
الحكم » الجزء الأول وهو يعالج الحياة الثقافية والأدبية
وتطورها فى عهد السلاطين البحرية والبرجية واطمحلالها فى
ظل الحكم العثمانى لأكثر من ثلاثة قرون . (ج ١ ط ٤ ص ٤٧)

ولكن من الملاحظ ان هذا العنصر ، أى الالتفات الى الشعراء والحياة الثقافية لم يتكرر دائما فى دراسات الرافعى التاريخية .

٤

والشكل الأخير لاهتمام عبد الرحمن الرافعى بالشعر يقدمه كتابه « شعراء الوطنية » - ٣٠٨ صفحة من القطع الكبير - الذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤ .

ويشير مؤرخنا فى مقدمته الى باعث اصداره « عندما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة ، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثها ، واذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين ، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى ، ومن يومئذ وأنا تواق الى أن أخصص لشعراء الوطنية سفرا منفردا ، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطنى ، مع التعريف بشخصياتهم ، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية »

ويوضح عبد الرحمن الرافعى منهج كتابه قائلا : « فانى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره ، فاذا كان قد فاتني أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين ،

فالأمر لا يعدو أن يكون رأيا تقديريا ، وأن يكون شعرهم
الوطني قد بدا الى مغمرا في بحر شعرهم الفياض ، وهذا
لا يغمض بداهة من منزلتهم في عالم الشعر والأدب ، وحسبى
عذرا لى أن رأى التقديرى فى تخير شعراء الوطنية كان نتيجة
دراسات مستفيضة ، عكفت عليها سنين عديدة ، ولم أقصر على
ما وعته ذاكرتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات ، ولا على
دواوين الشعراء ، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع
الصحف والمجلات ، عاما بعد عام ، قرابة نصف قرن من الزمان ،
بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية ، بعضها لم ينشر
من قبل فى كتاب أو ديوان • (ط ١ ص ٣ ، ٦)

والمتصفح للكتاب يكتشف أن غالبية الشخصيات قد سبق
أن قدمها الرافعى فى مجلداته التاريخية ، وأنه فى « شعراء
الوطنية » لم يفعل أكثر من تجميع ما كتب قبلا وإضافة بعض
القصائد الجديدة • وأغلب أصحابها كما نتظر من منتم الى
الحزب الوطنى ، هم من شعراء الحزب الوطنى أو من المتعاطفين
مع مصطفى كامل ومحمد فريد وبقية رجال الحزب •

والشعراء الذين عرض لهم الرافعى فى كتابه هم :
رفاعة رافع الطهطاوى ، عبد الله نديم ، محمود سامى البارودى ،
اسماعيل صبرى ، أحمد شوقى ، حافظ ابراهيم ، خليل مطران ،
أحمد محرم ، أحمد نسيم ، أحمد الكاشف ، محمد عبد المطلب ،

أحمد زكى أبو شادى ، عبد الحليم المصرى ، عزيز فهمى ،
على الغياتى • تناولهم بنسق واحد ، يكتب عن حياتهم ويعرض
أجزاء من قصائدهم مشيراً الى مناسباتها •

والشاعر الأول الذى يقدمه مؤلفنا هو رفاعة الطهطاوى
(١٨٠١ - ١٨٧٣) ذلك الواعظ الذى أوفده محمد على فى
أولى بعثاته سنة ١٨٣٦ الى باريس ليرعى المبعوثين فانتظم فى
الدراسة وتبوأ عند عودته ارفع الوظائف فى التعليم • ومن
الطريف أن القصائد التى جاء بها الرافعى فى كتابه ، سبق أن
نشرها فى « عصر محمد على » ، (ط ٣ - ص ٤٩٨) ! وقد
أعجب الرافعى من قصائد رفاعة بقصيدة « حب الوطن من
الايمان » التى يقول فيها :

هذا لعمري ان فيها سادة
قد زينوا بالحسن والاحسان

يا ايها الخافي عليك فخارها
فاليك ان الشاهد الحسان

ولئن حلفت ان مصر لجنّة
وقطوفها للفائزين دوان

وهذه القصيدة من وطنيات رفاعة الطهطاوى التى يقول
عنها الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كلمته عن « رفاعة الأديب »
ضمن مهرجان رفاعة الطهطاوى الذى اقامه المجلس الأعلى للفنون

والآداب : « .. ولكن الشيء الجديد الذى جاء به رفاعة هو هذه الأناشيد الوطنية التى وضعها حيناً على لسان الجيش ، يفتخر بتاريخه المجيد ، وبشجاعته الباسلة ، وحيناً بمجد مصر ، ويدعو الى فداؤها بالدم والمال ، وحيناً دعوة حارة الى العمل كى يسود الوطن ، ويتناسب حاضره مع ماضيه ، ورفاعة بذلك أول من نظم فى الشعر العربى هذه الأناشيد الوطنية » (٣) .

ويتفق فى هذا رأى الدكتور طه وادى ، الذى يقول فى كتابه « ديوان رفاعة الطهطاوى » : « لم تظهر بوضوح الحساسية المفرطة لانتفاء العربى لاقليمه الوطنى الا مع بداية النهضة الحديثة ، وظهور الشاعر الخاصة ازاءه . ذلك أن النهضة قد اعتمدت فى كل قطر عربى على جوهر كل ما يتصل بتراث العروبة . بيد أن اليقظة كانت تقوم فى كل وطن فى مرحلة متفاوتة - نسبيا - عن غيره ، مما حدا بالبعض الى أن يدعم نضاله الاجتماعى والسياسى ، الذى يعتمد - فى - الغالب على جهد فردى من أبناء شعبه . باثارة مشاعر الوحدة الوطنية والاقتماء المتميز . والطهطاوى يعد (أول) معبر عن هذا الأساس « الوطنى » فى الشعر العربى الحديث » (٤) .

والشخصية الشعرية الثانية فى كتاب الرافعى هى « عبد الله نديم » (١٨٤٥ - ١٨٩٦) خطيب وشاعر الثورة العرابية ومن أصدق أعوانها حتى نهاية عمره على الرغم مما أصابه

من أجلها من عداا السلطات الحاكمة • وأديب الثورة يعده
 عمر الدسوقي « في الطليعة من رواد الأدب الحديث » (٥) •
 ويقول عنه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي « وعلى الجملة
 فالسيد النديم يعد بحق من أعظم قادة الجماهير » (٦) • ومن
 المعروف ان النديم كتب كثيرا من الشعر ، ويشير جرجي زيدان
 الى ذلك بقوله « ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على
 نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المصيا •
 وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت • وروايتا « الوطن »
 و « العرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدي جامعي
 السلافة منها الا أربع عشرة رسالة بعد السعي الكثير ومكابدة
 العناية الجزيل ، وكان ويكون (وهو الذي طبع بعضه في
 الأستاذ) وواحد وعشرون كتابا في فنون مختلفة قطع لأجلها
 أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام • منها ديوان
 شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور
 عليه في الآستانة • ومنهما النحلة في الرحلة • والاختفاء في
 الاختفاء • والشرك في المشترك • وكتاب في المترادفات • وآخر
 في اللغة سماه موحد الفصول وجامع الأصول والفرائد في
 العقائد • واللالىء والدرر في فواتح السور • والبديع في مدح
 الشفيح • وأمثال العرب وغير ذلك • وقد فقد كثير من مؤلفاته
 ومنظوماته حرقا أو ضياعا أو اغتيلالا » (٧) •

ومن شعر النديم الذى أعجب به الرافعى قوله مخاطباً
المصريين مدافعا عن الثورة العرابية :

اليكم يرد الأمر وهو عظيم
فانى بكم طول الزمان وحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى
فمن أين يأتى الديار نعيم
وقوله فى قصيدة أخرى :

أحسبنا إذا قلنا بلينا
بلينا أو يروم القلب لينا
نعم للمجد نقتحم الدواهي
فيحسب خامل أنا دهي
تناوشنا فيقهرنا خطوب
تري ليث العرين لها قرينا
سواء حربها والسلام أنا
أناس قبل هدنتها هدينا

وشاعرنا الثالث من شعراء الوطنية هو « محمود سامى
البارودى » (١٨٤٠ - ١٩٠٤) الذى يعتبره الرافعى « امام
الشعراء المحدثين قاطبة ، وبأكورة الاعلام فى دولة الشعر
الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء
المتقدمين ، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول
الخمود » . وقد تخير له أبيات من قصائد « الحنين الى

الوطن - الصبر على الشدائد - الحنين الى الأهل والولد -
عظمة الأهرام - الفساد في عهد اسماعيل - عبرة الحوادث «
والقصيدة الأخيرة أنشدها بعد عودته لمصر من منفاه يقول فيها :

يا أيها السادر المزور من صلف
مهملًا فانك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالإيمان ينتفع

ان الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب اذا مارت ينخلع

لقد شارك البارودى مع استقراطيته فى الثورة العرابية
تحت تأثير بما ينفث التدخل الأجنبى من ذل ، وما يجتاح مصر
من مظالم • يقول الدكتور على محمد الحيدى : « ثورة
البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٧٦٨ ودعوته قومه الى
الثورة واستعمال القوة حدث وطنى يستحق الدراسة والاهتمام •
فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعاني ارهاق
الضرائب أو محنة السخرة ، ولم يمس عرضه بأذى من فجور
الخديو وبطائته ، ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية
أو المراكز المدنية ، بل كان على النقيض من ذلك ، يرفل فى
الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا للخديو ثم ياورا ، ويصاهر
الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت
محمد على ، ولو اننا تعمقنا دراسة « القصيدة العينية » التى

خرجت منها صيحته الأولى للثورة ، وما أحاط بها من ظروف
نفسية للشاعر لوجدناها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها
البارودى الشاعر ذو الاحساس المرهف ، والنفس الحرة الكبيرة
انبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه ، وللظلم
الذى يجثم على صدر مواطنيه ، وللارهاب الذى يفرى كرامة
المصريين وقلوبهم ، فيهب بهم ان يهبوا للثورة » (٨) •

ورابع المؤرخ لهم هو « اسماعيل صبرى »
(١٨٥٤ ١٨٢٣) الذى أشاد به المؤلف لوطنيته • • فهو
الموظف المصرى الوحيد من كبار الموظفين المصريين الذى لم يزر
انجليزيا ولم يسع لزيارة كرومر المندوب السامى البريطانى
الذى يعد الحاكم الفعلى لمصر ابان الاحتلال بالرغم من محاولات
الأخير استمالته • وكان هذا استثناء نادرا • وكان الشاعر من
أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن مناصريه • أما موهبته فيقول
عنها الرافعى : « انه شاعر موهوب من صغره ، صافى الذهن
والوجدان وأشعاره وطنية تنم على مدى حب الوطن وكرامته
وآمال الشعب وخزنه على مآسيه كما أنه من اعلام الطبقة
الأولى من الشعراء ، ويعد ثانيهم فى الترتيب بعد البارودى » •

ومن القصائد التى أشار اليها المؤلف « الدعوة الدستور -
حادثة دنشواى - رثاء مصطفى كامل - التنديد بالمستعمرين
لاعتداء ايطاليا على ليبيا سنة ١٩١١ - الامتيازات الأجنبية -

التوحيد والحرية - التنغى بعظمة مصر - الى شوقي في
منفاه » ويختار له الرافعى قوله المشهور :

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
ردوا الحجر كذا دون موردة
او فاطلبوا غيره ريبا لظمان

ويقول الدكتور طه حسين عن شعر اسماعيل صبرى في
مقدمته لديوان صبرى « وفي الشعر السياسى لصبرى هذا
الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ وشوقي ، ونعرفه فى
حياة الجيل كله هذه الوطنية الحارة الحادة الطامحة الى مثل
أعلى غير محدود ولا واضح الاعلام ، والتي لا تخلو من الفكاهة
المرّة أحيانا ومن الدعاية الحلوة أحيانا أخرى » (٩) •

أما الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد اختار شاعرنا ضمن
الشخصيات المصرية التى درسها فى كتابه « تراجم مصرية
وغربية » ويقول عنه « كان شاعرا مصرية حقا ، ومن ان النزعة
البدوية كانت لا تعرف سبيلا الى نفسه ، وان الرقة التى تسيل
بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل سماءه والخضرة
النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل
ذلك كان ينعكس فى نفس اسماعيل صبرى بقوة لا تراها فى
كثيرين غيره من الشعراء • ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه
به معاصروه : لقب شيخ الشعراء » (١٠) •

وخامس الشعراء هو « أحمد شوقي » (١٨٧٠ - ١٩٣٢)
الذى يعتبره الرافعى « شاعر الوطنية الأكبر وليس أمير الشعراء
فلقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية ، ولم تعد الامارة
تضفى على صاحبها منزلة محترمة ، هذا الى أن شوقي أكبر
من أن يمجّد بهذا اللقب ، وقد جرى فحول الشعراء المتقدمين ،
وبذهم فى كثير من قصائده ، وجدد بعض التجديد فى الشعر
العربى بما اقتبسه عن شعراء العرب ، ومن الثقافة الأوربية ، وفى
قصائده يسطع نور الوطنية ، ويتأرجح لهيبها ، وهو أغزر
الشعراء مادة وأوسعهم اتجا فى هذه الناحية ، الوطنية فى شعره
هى فيض الفطرة والالهام ، وليست من صنع الظروف
أو التكلف ، ولذلك جاءت قوية جارفة ، عميقة رائعة » .

ويعرض الكتاب لمختارات من قصائد المترجم له مثل
« كبار الحوادث فى وادى النيل - ذكرى دنشواى - رثاء
مصطفى كامل - رثاء محمد فريد - ثورة ١٩١٩ - وحدة
وادى النيل - مشروع ملنر - الدعوة للتضحية ومهاجمة
الاستعمار - الدستور - الدعوة للنهضة الاقتصادية » .

ومن أبيات قصيدته فى أبى الهول :

أبا الهول طال عليك العصر

وبلغت فى الأرض أقصى العمر

فيا لدة الدهر لا الدهر شب

ب ولا أنت جاوزت حد الصفر

الأم وكوبك متن الرما ل لطي الأصل وجوب السحر

تسافر متنقلا في القرو ن فابان تلقى غبار السفر ؟

ان الدكتور شوقي ضيف يكتب عن شوقي قائلا « وعاد شوقي الى وطنه فوجد أرضه مخضبة بدماء الحركة الوطنية الذكية ، ووجد كل شيء فيه يتحول ويتغير ، ولا ندري هل فكر في العودة الى القصر ؟ ولكن المؤكد أن أبواب القصر لم تفتح له ، فظل بعيدا مع الشعب ، يعيش في حياته الجديدة • فلتفرح ربة الشعر ، ولتدق البشائر ، فان طائر لن يعود رهين محبسه القديم ، ولا رهين ذهب اسماعيل وأبنائه ، فقد أخذ يرفرف حرا طليقا في الفضاء ، وأخذت أجنحته تلمع فيها ألوان الطيف ، وهي ألوان لم تكن تستمد من القصر وأميره ولا من حياته الارستقراطية القديمة ، وانما كانت تستمد من دماء الشعب التي سنفحها راضيا في الحركة الوطنية المباركة سنة ١٩١٩ ومن آماله وآلامه ، وأيضا من آمال الشعوب العربية جميعها وآلامها وأصبح شوقي الى حد ما ديمقراطيا يعيش مع شعبه والشعوب العربية » (١١) •

والشخصية السادسة المترجم لها هي « حافظ ابراهيم » (١٨٧٢ - ١٩٣٢) ويقدمه عبد الرحمن الرافعي بقوله : « هو صنو شوقي في احياء دولة الشعر ، ولئن تميز عنه شوقي

بالزعامة ، فان حافظ يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية ، فكان أقرب الى روح الشعب ومشاعره ، وأقدر على تصوير آلامه التي شاركه فيها ، وتغنى بمصر والنيل في قصائده الغر ، ولعل بقاءه في السودان عدة سنين ، ومشاهدته غدر الانجليز هناك ، وتدايرهم في تحقيق أغراضهم الاستعمارية ، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادي النيل ، وتجلت هذه المواهب في شعره في شتى المناسبات حتى سمي بحق « شاعر النيل » ، وهو الى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والاخلاق . وعاصر حافظ مصطفى كامل ، وكان صديقا له معجبا بجهاده ، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين . وكان مصطفى كامل شديد الإعجاب بشعره وأدبه .

وقد استعرض الراحل مجموعة من قصائد حافظ في مختلف المجالات الوطنية والاجتماعية وهي « ملجأ الحرية - حادثة دثشواي - شكوى مصر من الاحتلال - استقالة اللورد كرومر - استقبال السير جورست - رثاء مصطفى كامل - تحية العام الهجري - مسألة قناة السويس - رثاء محمد فريد - مصر تتحدث عن نفسها » .

ومن قوله عن مظاهرة السيدات الأولى في ١٦ مارس سنة ١٩١٩ احتجاجا على فظائع الانجليز في قمع الثورة الشعبية :

خرج الفسوانى يحتججن
ورحت ارقب جمعهن

فإذا بهن تخزن من
سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب
يسطن في وسط الدجنة

وقد أشاد الكثيرون بحافظ ، ومن هؤلاء طه حسين
وأحمد أمين وروفايل مسيحه . يقول الأول عنه : « ولما كانت
نفس حافظ في جوهرها نفسا مصرية كانت قطعة من هذه
النفس المصرية الاسلامية ، التي تجد بساطتها وسذاجتها في كل
أثر من آثار المصريين المسلمين ، فلم لا يحبها الناس وانما يرون
فيها أنفسهم ؟ ولم لا يعجب بها الناس وانما ينظرون فيها الى
صورهم ، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية لا يشوبها صداد
ولا يغشاها غبار ؟ » (١٢) .

أما أحمد أمين ، فيكتب عن حافظ : « وكان في شعره يقف
موقف الصحافة الوطنية والخطباء الوطنيين ، وقادة الرأي
الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتشرب من أرواحهم ،
ويستمد من وحيهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ، ثم يخرج ذلك
كل شعر قوى ملتهب ، يفعل في النفوس - وذلك شأن الشعر
الحى - ما لا تفعله الخطب والمقالات ، فكان حافظ - حقا -
شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتماع ،
ولم يجاره أحد في ذلك من شعراء عصره . » كان في شعره سجل

الأحداث ، إنما يسجلها بدماء قلبه ، وأجزاء روحه ويصوغ
منها أدبا قيما يستحث النفوس ، ويدفع الى النهضة ، سواء
أضحك في شعره أم بكى ، وأمل أم يئس . ويتسع أفقه في كثير
من الأحيان ، فينظر الى الوحدة العربية ، الوحدة
الاسلامية » (١٣) .

ويكتب صاحب كتاب « حافظ ابراهيم الشاعر السياسى » ،
« من الجلى أن مصر كانت تحتل من نفسية حافظ مكانا محمودا ،
وحسبنا أن نسوق الى القارئ هذه الأبيات ليلمس من ثناياها
تلك العاطفة الوطنية الملتهبة التى كانت تفخر بها روحه :

كم ذا يكابد عاشق ويلقى
من حب مصر كثيرة العشاق
انى لأحمل فى هواك صبا
يا مصر قد خرجت على الأطواق
لهفى عليك متى أراك طليقة
يحمى كريم حماك شعب راقى (١٤)

وكان عبد الرحمن الرافعى من المعجبين بشاعر القطرين
« خليل مطران » (١٨٧٢ - ١٩٤٩) فهو « شاعر الحرية
والعروبة ، حمل لواء التجديد فى الشعر ، نيفا ونصف قرن من
الزمان ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال .
كان انسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه . كان فى

شعره ينشد الكمال ، ويخلق في أجواء الحرية والوطنية • وقد
أرخ في شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية ،
وسجل حوادثها ووقائعها ، وترجم لرجالها وأشخاصها ، وغذى
بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل • كان بينه وبين الزعيم
مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر ، كان مؤيدا لدعوته
نصيرا لرسائله ، دافع عنها في حياة مصطفى ، وظل وفيها بعد
وفاته •

ومن القصائد التى اختار منها بعض أبياتها ، النهضة
العربية - حق الوطن وحق الاخاء - الثبات فى الكفاح - تحية
بعثة الأطباء المصريين الى حرب طرابلس سنة ١٩١١ - رثاء
محمد فريد - رثاء أمين الرافعى •

وقد صاغ مطران قصيدة وطنية سنة ١٩٢٠ عاتب فيها
شباب مصر لترددهم فى العمل الوطنى ومناهضا للاحتلال ••
بقوله :

ان تكونوا حماة وبنيةا
ما لتلك الذئاب تعتس فيها ؟
افترضون ان تهون عتيذا
بعد ذاك الأباء فى ماضيها ؟
تلك اوطانكم تباع عليكم
صفقة بخسة فمن مشتريها ؟

ومن الدارسين الذين كتبوا عن شاعر القطرين خليل مطران،
طاهر الطناحي الذي يقول عنه : « وقد نشأ خليل مطران عرييا
حرا ، رضع لبان الحرية من المهد ، يعيش في بلاده التي ساد فيها
الفساد ، واستحر فيها الظلم والاستبداد ، وخرج من بيروت في
ظلام الليل ، يحدوه الولاء لقومه وتحرير وطنه من فوضى الحكم
التركي واستبعاده ، وهو يتغنى بقوله :

داعى الولاء اذا دعاني
سما له في كل آن
ومسرة باشق ما
يرضى البلاد وان شجاني
يا بى الهوان دمي ، وفي
عز الحمى اهوى هواني (١٥)

أما الشاعر « أحمد محرم » (١٨٧١ - ١٩٤٥) فهو
الشخصية الثامنة في « شعراء الوطنية » الذي يقول عنه
عبد الرحمن الرافعي : « شاعر ملهم من شعراء الوطنية والاخلاق،
كان أدباء الجيل يضعونه في صف شوقي وحافظ ومطران ،
وكان شيخ الشعراء اسماعيل صبرى يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة
ويطيب له التحدث عنهم ، وأمتاز محرم الى جانب مكاتبة الشعرية
بحرارة العاطفة ، وتذوقه للفن والجمال ، وقوة ايمانه ، وتأملاته
العميقة الفلسفية ، واستمساكه طوال حياته بمبادئه الوطنية ،
فكان شعره كله وفقا على هذه المبادئ ، لم ينحرف عنها يوما

في قصيدة أو في أى بيت من الشعر ، ظل مقيما عليها وفيا لها
في السراء والضراء ، فكان حقا مثلاً أعلى في الشعر والوطنية ،
وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره ، ويشيد به على صفحات
(اللواء) ويسميه (نابغة البحيرة) ، وبقي أحمد محرم على
صلته به ووفائه له ولذكراه ، كما ظل وفيا لمبادئ الوطنية
الى أن توفاه الله • كان شاعرا بفطرته وسليقته ، قال الشعر
وهو في سن مبكرة » •

واستعرض الراحل قصائده : النيل – الدعوة الى بعث
مصر – رثاء مصطفى كامل – رثاء فريد – فلسطين الشهيدة
سنة ١٩٣٨ •

وهذه أبيات من قصيدته « رحلة عابسة » التي تناول فيها
حال الفلاح المصرى البائسة :

ويلى على فلاح مصر اما كفى
ما ذاق من عنت ومن ارهاق

يغنى الوف المترفين بماله
ويعيش في فقر وفى املاق

سبحان من شرع السبيل لخلقه
اكذا يكون تفاوت الأرزاق ؟

وقد عاش محرم مظلوما ، ولا يكاد يقدره أحد التقدير
الواجب •• يقول عنه عمر الدسوقي « بقى حتى اليوم محروما

القلم القوى الذى يعرض درره بين الناس ، ويعرف بين قومه ، وهو الذى آثر الفقر ، والوحدة ، والحرمان فى سبيل مبدئه ، وكان شاعرا صاحب رسالة ، وكان من أقوى الشعراء ديباجة وأنصعهم بيانا . كان عيب أحمد محرم أنه يمثل الفريق الجاد من الأمة الذى يشعر بآلامها المبرحة وأدوائها المستعصية ، وكان صاحب مثل أعلى فى أمة هازلة تطرب للعبث ، ويفتنها زبرج الحضارة الغربية ليفتننا عن أهدافنا القومية . كان شاعر مصر سياسيا واجتماعيا ، وكان شاعر العروبة والاسلام ، متعدد النواحي الأدبية ، ومع ذلك كان عاثر الجد فى حياته » (١٦) .

ومن شعراء الحزب الوطنى أيضا « أحمد نسيم » (١٨٨٠ - ١٩٣٨) الذى يقدمه الرافعى بقوله : « شاعر مبدع ، من أعلام الشعر الوطنى ، يمتاز بجذالة الأسلوب ، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده ، لا يقل شعره رواة وحسن ديباجة عن شعر شوقى وحافظ وأحمد محرم ، سمي « شاعر الحزب الوطنى » ، ويعد نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطنى ، وأولهم أحمد محرم ، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف .

ويستعرض المؤلف عددا من قصائد نسيم والتي ألقاها فى مناسبات ، تأييد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو عباس حلمى - مهاجمة اللورد كرومر قبل رحيله سنة ١٩٠٧ - تمجيد الشرق والحزن لحاله .

ومن المعروف ان نسيم أصدر الجزء الثانى من ديوانه سنة ١٩١٠ بعنوان « وطنيات أحمد نسيم » مهديا إياه الى « سعادة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى لاحتوائه القصائد الوطنية التى نظمها ما بين سنتى ١٩٠٩ ، ١٩١٠ » وقدم كل قصيدة بما قدمته به الصحف التى نشرتها ومن ذلك قصيدته فى توديع « وفد الحزب الوطنى الى عاصمة الاسلام ، التى نشرت بجريدة « اللواء » بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٠٩ لمشاركة الأمة العثمانية النجبية فى حفلاتها بعيد الحرية الأسنى ، وقد وقف حضرة رئيس الحزب الوطنى الذى رأس هذا الوفد يتلقى من جماهير المودعين تحيتهم الى أحرار العثمانيين وأدلة اشتراكهم معهم بقلوبهم فى أكبار عيد الحرية العثمانية العظيم » وأنشد نسيم :

قطار النوى هل وقفة قبلما تعدو
تودع وفدا ما لنا غيره وفد
ايا وفد (مصر) انت عنوان أمة
به يعرف الأقدام والداب والجد
إذا جئت ارض الفاتحين فحيها
تحية مشتاق أضر به البعد
وزوروا أمير المؤمنين وقبلوا
يدا فاض من هتان أنملها السعد
وقولوا له ان وفود معاشر
إذا احتدمت نار الوغى كلهم جند (١٧)

ويكتب محمد عبد الغنى حسن عن الشاعر : « على الرغم من الأصول التركية لأحمد نسيم ، نرى أن مصر قد صهرته كما صهرت كثيرين غيره من الشعراء والأدباء الذين ولدوا فيها من أصول غير عربية . وقد جمع شاعرنا بين حبه لمصر وطنه الصغير ، وحبه للشرق ذلك الوطن الكبير ، فلم يدع مناسبة تمر الا أشاد بمجىء مصر والشرق ، ولم يقس في عتابه على أهل مصر والشرق الا ليوقظهم من سباتهم ، ويحرك من همهم حتى يستعيدوا تلك الأمجاد الضائعة » (١٨) .

ويقدم عبد الرحمن الرافعى الشاعر العاشر ، وهو « أحمد الكاشف » (١٨٧٨ - ١٩٤٨) بقوله : « من الرعيل الأول من شعراء الوطنية ، مالت نفسه منذ صباه الى الشعر والأدب ، وكان الشعر طبيعة له وسليقة ، فعكف على المطالعة واكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها فحاكاهاهم فى الأسلوب والبلاغة ، واتجهت نفسه الى نظم الشعر فى المعالى الوطنية ، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع ، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر » .

ويتفق عمر الدسوقي مع هذا القول فيما كتبه عن الكاشف وهو يقول : « وقف نفسه على الشعر السياسى ، وكان دون محرم فى اتساع أغراضه . اذ وقف نفسه على لون واحد من الشعر . . . يمدح الترك حين كان مدحهم ديننا ،

أو سياسة ، ويشن الغارة الشعواء على الانجليز في عهد كرومر ،
وغورست ، وكتشنر ، ويمدح عباسا ، وحسينا ، ويؤيد الثورة
بكل قوة حيث اضطربت في أرجاء البلاد » (١٩) •

ومن قصائد الكاشف التي اختار له الرافعي بعض أبياتها :
الجندي في المعركة — اتفاقية السودان — الفلاح المصري —
الحق للقوة — قريتي •• ومن قصيدة نظمها سنة ١٩٢٥ يدعو
فيها الأحزاب لنبذ الخصام والوحدة من أجل مصر قوله :

**تنازع قومي اليوم جندا وقادة
فلم ار الأساليب وسليبا**

**مبادئ احزاب ارى ام منافعها
توالت صنوفا بينهم وضروبا ؟**

**تقضت حروب العالمين ولم ازل
ارى بين أبناء البلاد حروبا**

**بقومي على قومي استعان غريبهم
فصال شمالا واستطال جنوبا**

ويعرض الرافعي للشاعر « محمد عبد المطلب »
(١٨٧٠ — ١٩٣١) قائلا : « هو الشاعر البدوي البليغ ، والمجاهد
الوطني الصميم ، تخرج من دار العلوم ، وتولى التدريس في
مدارس الحكومة ، ونضج علمه ، واكمل شعره وأدبه ، فصار
من فطاحل الشعراء الذين يشار اليهم بالبنان ، ولما شبت ثورة

سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده ، وخلد حوادثها
بقصائده الغر » •

ومن أشهر قصائده ، مصر أثناء الحرب الأولى - اعلان
الحماية - حضارة مصر - الوحدة بين عنصرى الأمة - وثبة
مصر •

ومن قصيدته التى وجهها الى المرشال اللبى الذى أوفدته
انجلترا لقمع الثورة سنة ١٩١٩ منددا بالفظائع الانجليزية فى
اخمادها •• قوله :

ايها القائد المدل علينا
قاتل الله من علينا ادلا
صلف بين اهل مصر وعجب
كان هنا بارض (بلجيك) اولى
صلف جد فى مواطن هزل
فاذا جدجدها عاد هزلا
علم الناس ان مصر بلاد
لم تكن للحروب والسيوف قبلا
منعتها الايام حمل المواضى
وهى رين السيوف هذا وحملا

ويقول عباس محمود العقاد عن الشيخ عبد المطلب :
» •• لما شاعت النهضة فى الشرق كله شاع معها الأسف بين

المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة، ثم شاع بينهم اليقين بأن لا مؤئل ، ولا أمل في تجديد سلطانهم ومنعهم الا بالرجوع الى الاسلام في أيامه الأولى : أيام الجدة والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمتقدمين بهم من المستعمرين والعرب المستعجمين ، فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف الزائف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة ، وأصبح كل قديم قريبا من الاسلام في صدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ، وعاد طلاب المعارف الدينية واللغة القومية الى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسية حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة في البادية ويقرنون بين سلامة لغة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة ، حتى رأينا من غلاة هذا المذهب في الجيل الماضي من كان يسخر بالمعري وأبناء عصره ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية ، الى ما قبل ذلك بعصور ، ومن هذه الوجهة سقطت المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبي والمملكة الفنية ، ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليهما دون الاعتماد على الغير الدينية والنصرة البدوية وليس بين شعراء هذه الفئة من يمثلها ويستغرق فيها كما مثلها واستغرق فيها الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المتبدى في لفظه وأعراض كلامه ، لأنه سلك الى هذا المذهب من

طريقين : طريق الأصل العربى وطريق النشأة الدينية ، فلم يكن له متصرف عن مذهب البداوة الى مذهب غيره « (٢٠) » .

أما المترجم له الثانى عشر •• فهو الطبيب « أحمد زكى أبو شادى » (١٨٩٢ - ١٩٥٥) حيث يعتبره الرافعى « الشاعر المجدد ، والأديب الحر الفكر ، شعره رقيق ممتع ، يمجّد الوطنية ، وينزع الى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة » .

ويقول الشاعر أحمد محرم عن أحمد زكى أبو شادى :
« الدكتور زكى أبو شادى من أكبر أعلام هذه النهضة الأدبية الجديد ، فهو يغذيها بنشاط عجيب ، ويسير في طليعتها بأقدام نادر ، وشجاعة لا مثيل لها ، وهى تستأثر بقسم كبير من حياته الموزعة على مجموعة غير قليلة من الأعمال والشئون ، وتتحكم فى جانب عظيم من قوته التى تتناهبها عوامل شتى وشواغل كثيرة ، وهذه مؤلفاته الكثيرة العدد المختلفة المواضيع تحدثنا بأفصح لغة وأوضح بيان عن تلك القريحة الخصبة وذلك الشعور الأدبى الفياض اللذين يلتقيان فى نفسه الدائمة الهبوب والاشتعال ، ويتعاونان على تأدية أغراضه وبث أفكاره (٢١) » .

ومن ضمن دواوينه العديدة اختار الرافعى بضع قصائد هى : مفخرة رشيد - المجاهد الجريح - القلب الباكي - نداء الحرية - أقصى الظنون - لماذا ارتحلت ؟

ويقول أبو شادى فى قصيدته التى أنشدها فى المهجر
بنيويورك عن حنينه الى مصر :

لا تنهروا روحى لفرط ولوعها
دمعى الذى تابون بعض مودعها
القت بى الأحداث دون ربوعها
وأظل أحيا فى صميم ربوعها
تشب الرؤى حولى بأنفاس الروبى
ونوافح القدران حول ربيعها
وتهزنى الذكرى فأشرق بالأسى
والذكريات وهوبها كمنوعها

وفى دراسة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بوطنية شاعرنا
الكبير يقول عنه : « أما وطنية أبى شادى وحبّه للبلاد ، فتجلى
فى أروع الصور فى شعره وكتابات وأحاديثه ومحاضراته
ومؤلفاته من بدء شبابه حتى اليوم • ولقد نوه الأستاذ
محمد رضوان أحمد فى كتابه « فى جنة الفردوس » بوطنية
أبى شادى وبشعره فيها وفى الأخلاق والاصلاح والنقد الاجتماعى
تنويرها محمودا •• وأذكر دليلا واضحا على وطنية أبى شادى ،
هو أنه لما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان الشاعر آنذاك
يدرس فى إنجلترا ، أخذ يدعو لحرية مصر ، ويؤيد القضية
المصرية ، فراقبته الشرطة هناك ، واتتهى الأمر بتقييد اسمه فى
سجل المذنبين السياسيين فى اسكوتلنديارد بعد تحقيق طويل

معه ، وأنذر بالطرد في انجلترا ، لولا تدخل أصدقائه وعارفيه « (٣٢) •

وفي كتاب آخر عن نفس الشاعر يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في المقدمة « ويتنوع شعر أبي شادي الى ألوان عديدة ، من الغزلي والوجداني ووصف الطبيعة والشعر الصوفي أو الفلسفي ، والشعر الوطني التقدمي ، وكل هذه الألوان طاقة شعرية خصبة ، واستجابة ذاتية للنزعة الحديثة في التفكير • وهو أول من نظم الشعر التمثيلي في اللغة العربية ، وكان يجيد الشعر الحر والمرسل ، وينظم منهما بعض قصائده « (٣٣) •

ومن الشعراء المشهورين حتى الثلاثينات ولا يكاد اسمهم اليوم يطرق الاسماع ، الشاعر « عبد الحليم المصري » (١٨٨٧ - ١٩٢٢) الذي يكتب عنه الرافعي : « تعشق الشعر والحرية منذ صباه ، فجاء بقصائد رقيقة في التغنى بالوطنية والحرية ، وظل يغرد بالشعر ويتغنى به الى أن توفي في يوليو سنة ١٩٢٢ ، وكان حين وفاته في ريعان الشباب ، فكان لوفاته وقع أليم في النفوس • وكانت له في الشعر مكانة ممتازة » •

ومن قصائده التي أشار اليها الرافعي « فجر الأمل - تكريم الشيخ عبد العزيز جاويز - اسود النيل » •

ويقول في احداها مطالبا الخديو عباس حلمى الثانى بمنح
مصر الدستور :

رد الوديعة لا مالا ولا شانا
لم نرج في جانب الدستور احسانا
لولا ولاؤك لم نبسط اليك يدا
من الرجاء ولم نسالك غفرانا

ويتابع عبد الرحمن الرافعى شريط الشعراء الوطنيين ،
فيقدم الدكتور « عزيز عبد السلام فهمى » المحامى الوفدى
(١٩٠٩ - ١٩٥٢) قائلا : « من أعلام الحرية والأدب ، وأبطال
الوطنية والجهاد ، كان أدبيا وشاعرا ، وخطيبا مفوها ، يجمع
بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وقوة التفكير ، وغزارة
المادة ، والشجاعة الأدبية ، كان يدافع عن الحرية بقلمه
ولسانه على صفحات الجرائد ، وبلسانه فوق المنابر ، وساحات
القضاء ، وتحت قبة البرلمان ، كانت وطنيته فوق حزبيته
وعقيدته أساس شخصيته ، كان يرى فى الحياة السياسية رسالة
يؤديها ، لا يتغنى منها لنفسه مغنما ولا ثمنا ، ولا يقصد
الا وجه الله والوطن » ♦

ومن قصائده التى اختارها : اسلمى يا مصر - لحن
الموت - يا قارىء الكف - الضمير » ♦

وكان عزيز شابا يفيض حيوية وثورية دائما ، يشارك دائما

في الأحداث التي تلم بوطنه ويتعرض بسببها للسجن يشير
الدكتور طه حسين الذي كتب مقدمة « ديوان عزيز » ، عن
تلميذه القريب اليه عزيز فهمي قائلا : « وكنت لا تسمعي أقول
لك ايه يا عزيز حتى ينطلق لسانك بالحديث عذبا كأنه العين
الصافية ينساب منها الماء بين الخمائل والرياض ، أو ينطلق
لسانك بالحديث كأنه البركان يقذف الحمم ويشك أن يحرق من
حوله كل شيء • وما أكثر ما كنت أقول لك حينئذ : على رسلك
يا بني فانك انما تتحدث الى الأستاذ الصديق لا الى المستعمرين
ولا الى الظالمين » (٢٤) •

يقول شاعرنا في يونية سنة ١٩٤٦ ابان اعتقاله بسجن
الأجانب :

كفأك عزاء أنك اليوم اوحــد
وقد يسكن القمد الجسام المجرد
يهون عذاب السجن والليل موحش
ويذهب عنك الحزن فيه تجلد
وقد يؤسر الليث المتبع عرينه
ويرهب منه الصوت وهو مصفد
أهبت بقومي أن يثودوا عن الحمى
ومازلت ادعوهم ومازلت أشهد
أهبت بقومي والخطوب زواحف
تلم بهم طورا وطورا تهدد
وانذرت حتى يح صوتي ولم أزل
ومصر تناديهم وصوتي يردد

ويختتم عبد الرحمن الرافعي كتابه بشاعر وطني اتخذت
السلطات المصرية في ظل الاحتلال البريطاني من كتاباته
سنة ١٩١٠ سبيلا الى ضرب الحركة الوطنية في البلاد ، وأثارت
قلق الرأي العام المصري . فعندما أصدر الشاعر على الغياتي
ديوانه « وطنيتي » متضمنا مقدمتين الأولى لمحمد فريد رئيس
الحزب الوطني والثانية بقلم عبد العزيز جاويز الكاتب السياسي
الدائم الصيت ، قدم الثلاثة للمحاكمة بتهمة التحريض والعيب
في الذات الملكية ، فحكم على الأول بعام واستطاع الهرب قبل
صدوره ، وحكم على الآخرين بستة شهور قاما بتنفيذهما .

ومن القصائد التي حوكم عليها الغياتي .. طيف الوطنية ،
والتي اختارها الرافعي .. قول الأول :

وعداة ملكوا الأمر ولم
يحفظوا للشعب في حق ذماما

وولاة اقسموا أن يسجدوا
كلما رام العدا منهم مراما

رب ماذا يصنع المصري أن
جاوز الصبر مدى الصدر فقاما

طال يوم الظلم في مصر ولم
نذر بعد اليوم للعذل مقاما

هل يرى المحتل انا امة
مد عرفنا السلم لا ندرى الخصاما

وقال منددا بحكم الخديو عباس الثانى عقب خلافه مع
الحزب الوطنى :

عباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منا بعد ذلك عتابا
أيرضيك فينا أن تكون اذلة
ننال اذا رمنا الحياة عقابا
ونياس من آمالنا فيك كلما
قضيت علينا ان تكون غصابا

يقول الشيخ عبد العزيز جاويش فى مقدمته لديوان
« وطنيتى » للشاعر ، والتى من أجلها حوكم الشيخ كما أشرنا
« وماذا على الشاعر بعد أن يوفى شعره قسطه من الصدق
وثاقب الراى سوى أن يجيد تأليف العبارات ويحكم مطابقة
المعانى بعضها ببعض فانما الشعر كالتوقيع واللحن فكما ان
اللحن لا يخف على السمع الا اذا تناسبت الأجزاء التى يتألف
منها كذلك الشعر اذا لم تألف عباراته ولم تتناسب معانيه كان
صممها للأذان • وغمة لنفس الانسان • ومن شاء أن يرى نموذجا
من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعانى وألف بين أحكام
التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئا من (وطنيتى) ومن شاء
فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة • والنفوس المتوقدة •
والعزائم الصادقة فانها من غراسها وجميل ثمارها » (٢٥) •

ويكتب كامل الشناوى عن « شعراء الوطنية » : قرأت اليوم آخر كتاب للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى وهو كتاب شعراء الوطنية • وقد استرعى انتباهى أن يخلو الكتاب من اسم شاعر حر هو ولى الدين يكن الذى قضى حياته منفىا مشردا ، مكافحا ضد طغيان السلطان عبد الحميد • ولما استقر به المقام فى مصر ، أمضى البقية الباقية من حياته مريضا ، ثم مات ضحية الامراض التى عاناها فى النفى والسجن وكان ولى الدين يكن الى جانب دفاعه عن حريته السياسية ، مناضلا فى رفع راية الحرية الفكرية ، وقد كان نزاعا الى التجديد فى الشعر • وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبا قويا يمتاز بالنبض والحرارة والقوة والسهولة • وهو بلا شك يعد فى طليعة المجددين فى الأدب العربى • واسترعى انتباهى أيضا أن يخلو الكتاب من اسم المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب نشيد « اسلمى يا مصر انتى الفدى » واسم الشاعر الكبير عباس محمود العقاد صاحب النشيد القومى وفيه يقول : « ان رفعنا الرؤوس فليكن ما يكون • ولتعيش يا وطن » •

واسترعى انتباهى كذلك الا تجىء اشارة الى الشاعر مصطفى لطفى المنفلوطى الذى خاطب الخديو عباس عقب عودته من الحج فقال :

قدوم ولكن لا أقول سعيد
وملك وان طال المدى سيبيد

وقد حكم على مصطفى لطفى المنفلوطى بالسجن ستة أشهر • وصحت نبوءة المنفلوطى فباد ملك عباس ، وبادت أسرة محمد على برمتها ! ولم أجد فى الديوان بيتا واحدا من الشعر الوطنى الحديث • ولست أدرى كيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر مثل هذه الأبيات التى قيلت فى معركة القتال ...

انا ان سقطت فخذ مكانى • يا رفقى فى الكفاح
واحمل سلاحى • لا يرعك دمي يسيل من السلاح
وانظر الى شفتي اطبقتا على هوج الرياح •
وانظر الى عيني اطبقتا على نور الصباح •
انا لم امت • انا لم ازل ادعوك من خلف الجراح !

ويحضرني الآن عشرات الأمثلة من الشعر الوطنى الحديث، وهو شعر يعد من الناحية الفنية أقوى من شعر كثيرين عنى الأستاذ الرافعى بسرد أشعارهم وتاريخ حياتهم « (٢٦) •

المراجع

- ١ - مخطوط
- ٢ - محمد صادق عنبر : ذكرى أمين الرافعى ط ١ ص ٣١٦ .
- ٣ - دكتور أحمد أحمد بدوى : مهرجان رفاعه رافع الطهاوى ط ١ ص ١٣٤ .
- ٤ - دكتور طه وادى : ديوان رفاعه الطهاوى ط ١ ص ٦١ .
- ٥ - عمر الدسوقي : فى الأدب الحديث ط ٢ ص ٢٧٣ .
- ٦ - دكتور محمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب فى مصر ج ٤ ط ١ ص ١٣٠ .
- ٧ - جرجى زيدان : بناء النهضة العربية - كتاب الهلال مارس ١٩٥٧ ص ١٤٤ .
- ٨ - دكتور على محمد الحديدى : محمود سامى البارودى - أعلام العرب مايو ١٩٦٧ ص ٧٨ .
- ٩ - دكتور طه حسين : ديوان اسماعيل صبرى ط ١ ص ١٣ .
- ١٠ - دكتور محمد حسين هيكل : تراجم مصرى وعربى ط ١ ص ١٧٩ .
- ١١ - دكتور شوقى ضيف : شوقى شاعر العصر الحديث ط ٢ ص ٣٧ .

- ١٢ - دكتور طه حسين : حافظ وشوقي ط ٣ ص ١٩٨ .
- ١٣ - أحمد أمين : ديوان حافظ ابراهيم ط ١ ص ٢٨ ، ص ٣١ .
- ١٤ - رفائيل مسيحة : حافظ ابراهيم الشاعر السياسي ط ١ ص ٨ .
- ١٥ - طاهر الطناحي : حياة مطران ط ١ ص ٥٦ .
- ١٦ - عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ج ٢ ط ١ ص ١٥٠ .
- ١٧ - أحمد نسيم : وطنيات أحمد نسيم ج ٢ ط ١ ص ٢٤ .
- ١٨ - محمد عبد الفنى حسن : خمسة من شعراء الوطنية ج ٣ ط ١ ص ٨٢ .
- ١٩ - عمر الدسوقي : في الأدب الحديث ج ٢ ط ١ ص ١٥١ .
- ٢٠ - عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضى ط ١ ص ٤٣ ، ص ٤٤ .
- ٢١ - أحمد محرم : ديوان الشعلة ط ١ ص ١٤ .
- ٢٢ - دكتور محمد عبد المنعم خفاجى : رائد الشعر الحديث ط ١ ص ٩٠ .
- ٢٣ - دكتور أحمد زكى أبو شادى : أبو شادى فى المهجر ط ١ ص ٦ .
- ٢٤ - دكتور عزيز فهمى : ديوان عزيز ط ١ ص ٦ .
- ٢٥ - على الفياضى : وطنيتى ط ٢ ص ١٨ .
- ٢٦ - كامل الشناوى : زعماء وفنانون وأدباء ط ١ ص ١٨٤ .

مؤلفاته

من حسن خط التاريخ المصرى ، ان مؤرخه الكبير عبد الرحمن الرافعى ، لم يتمكن من دخول انتخابات سنة ١٩٢٦ ، وكان الحضور البرلمانى يشكل عند الرافعى العمل السياسى الحقيقى ، ولذلك حاول أن يملأ الفراغ بشيء آخر مفيد .. وهو الكتابة التاريخية التى يحبها . وتفصيل ذلك انه بعد استقالة وزارة سعد زغلول الاولى فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وقد عطلت الحياة النيابية - بعد انتخابات سنة ١٩٢٥ وحل مجلس النواب فى يوم اجتماعه الاول ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ - ثمانية أشهر وتآلفت جمع الأحزاب . وتم توزيع الدوائر على أن تجرى الانتخابات فى مايو سنة ١٩٢٦ . وكان الرافعى يظن أنه سيخصص له دائرة مركز المنصورة وتعلق عليه . ولكن الوفد رفض . وصدم الرافعى بذلك صدمة كبرى .

وبعد أن مرت هذه الأزمة بسلام ، وجد الرافعى ان الفراغ كبير الذى كان يسأ بالعل السياسى وعضوية مجلس النواب .
وحمد الله ان عدم دخوله المعترك البرلمانى ، لم يصبه بمثل ما أصاب غيره من الحزب الوطنى فماتوا حزنا ! ففكر فى ان يتجه اتجاها وطنيا آخر يتفق مع منهجه فى الحياة ، ويستكمل .
ما بدأ بتدوين الأحداث السياسية المعاصرة منذ سنة ١٩١٤ .
وفعل . ويشير الرافعى فى « مذكراتى » عن هذه النقلة الكبيرة : « أحببت التاريخ منذ صباى ، وكنت ولا أزال أراه مدرسة لتقويم أخلاق الشعب والنهوض بتربيته السياسية والقومية ، وزاد تعلقى به أنى رأيت فيه على ضوء التجارب وسيلة ناجعة لتثقيف العقول ورفع مستوى الوطنية والوعى القومى فى النفوس ، فلقد تكشفت لى مع الزمن نقائص كثيرة فى مجتمعنا ، وفى أخلاقنا ، وثقافتنا . لمحت على تعاقب الحوادث ضعفا فى مستوانا الوطنى ، ونقصا فى وعينا القومى ، فكرت فى الوسائل لعلاج هذا الضعف وتدارك هذا النقص ، فوجدت أن التاريخ وسيلة تلجأ اليها أرقى الأمم لتربية الاخلاق وتثقيف العقول وغرس روح الوطنية فى النفوس ، ومن هنا جاء تعلقى بالتاريخ ، أردت أن أجعل منه مدرسة للنهوض بالمجتمع .
« عنيت من التاريخ أكثر ما عنيت بتاريخنا القومى ، وأقصد به تاريخ مصر كوطن ، وتاريخها كأمة لها أهداف عليا

تنشدها ، فهو يتناول تاريخها السياسى ، وتاريخها الحربى ،
وتاريخها الاقتصادى ، وتاريخها الاجتماعى والثقافى ، وأيقنت
أن من واجبنا أن نعلم الشعب بمختلف طبقاته تاريخ بلاده فى
هذه النواحي ، وأن نبدأ بتعليم أنفسنا ، أى بتعليم الطبقة
المثقفة والممتازة تاريخنا القومى ، لأننى أرى مع الأسف أن
هذه الطبقة حتى التى بيدها مصائر البلاد لا يعرف كثير من
أفرادها من هذا التاريخ الا قشورا سطحية لا تصل الى
اللباب ، وهذا النقص هو من أسباب تبلبل الأفكار وارتجال
الآراء ، وتأخر الوعي القومى عندنا ، فعلىنا أن نعلم الشعب
تاريخ بلاده ، وبذلك يقدرها حق قدرها ويزداد تعلقا بها ويفهمها
حق الفهم فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها » (ص ٦١) •

وتصديقا لرأى عبد الرحمن الرافعى فى جهل حكامنا
بتاريخنا ، نطالع اعتراف صادق وجريء • لأحد أقطاب السياسة
المصرية الذين لعبوا دورا كبيرا فى مقدرات مصر فى بداية
القرن العشرين ، يقول اسماعيل صدقى باشا فى مذكراته التى
نشرها سنة ١٩٥٠ وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، عندما
استرجع ذكرياته عن مفاوضاته مع بينفن وزير الخارجية البريطانية
فى لندن فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ والتى لم تكلل بالنجاح ، حين
تطرق الى مسألة السودان :

« واستمىح القارىء بمناسبة التكلم عن التاريخ أن أقول

له كم أنا آسف اذا اغفلت فى ذلك الحين مستندا له قيمة
بشأن اثبات حقوقنا فى السودان ، وذلك جهلا منى اذ ذاك
بوجوده ! فقد أرشدنى الاخصائيون منذ أسبوعين فقط أثناء
زيارة جديدة قمت بها لذلك الأثر الرائع المعلن عما بلغت مصر
من عظمة ومن مجد وما أحرزته من اتقان فى الفن ، وأقصد به
أثر الكرنك ، أقول أنهم أرشدونى الى واجهة المعبد الخاص
بتحتمس الثالث فى داخل المعبد الكبير ، واذا بالنقوش التى تعلو
الواجهة المذكورة تمثل الملك الفاتح ومن حوله الرموز التى
تشير الى فتوحاته ، واذا جانب كبير من هذه الرموز يتعلق
بالمقاطعات السودانية التى ضمت فى عهده الى الامبراطورية
المصرية ، وهى تمتد من الجنوب الى خط الاستواء ! أليس هذا
المستند الذى يرجع الى بضعة آلاف من السنوات ، مما لم
تفز به دولة أخرى غير مصر فى صدر الدفاع عن حقها أمام
شبه الطامعين ؟ ! » (١)

ومع تفرغ الرافعى أو يكاد لكتابة التاريخ ، الا انه عانى
كثيرا كما كتب أكثر من مرة ، فى سبيل طبع مؤلفاته . هذه
المعاناة التى كادت تشنيه الا انه واصل المسيرة ويقول :
« انى أعترف بأن كتبى لم تقابل فى السنين الأولى مقابلة حسنة ،
ولولا ما وهبنى الله من الصبر والاحتمال ، لوقفت عند الجزء
الأول أو الثانى ، أو على الأكثر عند كتاب (عصر محمد على)

الذى كان فى طبعته الأولى الجزء الثالث من تاريخ الحركة القومية .

» فبالرغم من الجهود المضنية التى بذلتها فى تأريخ الحركة القومية ، وما شهد به أهل الذكر من أن هذه الكتب جمعت بين المنهج العلمى البحت والروح الوطنية ، وبالرغم من حرصى الشديد على استقراء الحقائق التاريخية الثابتة ، مهما كلفنى ذلك من عناء ، حتى صارت هذه المجموعة والحمد لله مرجعا معتمدا ، بالرغم من كل ذلك فإن هذه الكتب لم تلق الاقبال ولا أقول الرواج ، الذى كنت أنتظره .

» ان اقبال المثقفين فى بلادنا على القراءة ضعيف جدا . هذه حقيقة يلزمنا أن نعترف بها ، وهو أقل من اقبال المثقفين فى البلاد الأخرى ، التى فى مستواها الثقافى ، بل انى أستطيع القول بأن سكان الجنوب من هذا الوادى - وأقصد اخواتنا السودانين - أكثر منا اقبالا على القراءة والمطالعة اذا تعلموا وأخذوا بنصيب ولو قليل من الثقافة ، وقد حدثنى غير واحد من الأصدقاء وغير الأصدقاء ان اقبال المثقفين وأنصاف المثقفين فى السودان على قراءة كتبى أكثر منه فى مصر ، واهتمامهم باستيعاب محتوياتها أكثر من استيعاب اخوانهم فى مصر ، وهم - جزاهم الله خيرا - يتحدثون عن كتبى بأكثر مما يتحدث

عنها سكان الشمال ، وألح في أحاديثهم أنهم قرءوها واسستوعبوا ما تحويه ، بخلاف ما رأيت من المثقفين المصريين ...

« وقد كنت أسأل نفسى أمام الكساد الذى قوبلت به الحلقات الأولى من المجموعة ، واستمراره سنوات طويلة ، كنت أتساءل : ألا تساوى هذه الكتب بعض القصص والروايات التى يقبل عليها الجمهور فى بلادنا ؟ أو ليس التاريخ رواية واقعية مشوقة لمن يريد أن يعرف قصة بلاده ووطنه ؟ ألا يستوجب حب هذا الوطن أن يعرف المواطنون قصته ومراحل حياته البعيدة والقريبة ؟ ان من يجب انساها ، سواء كان هذا الحب عائليا أو غراميا ، يود أن يتعرف أخباره وأحواله وماضيه وحاضره ، فهلا يستحق الوطن مثل هذا الشعور ؟ »

« انقضت السنوات والأجزاء الأولى بطيئة الحركة ، وإيرادها لا يغطى مصاريفها ، على أنى لم ألق بالى كثيرا الى هذه الناحية ، لأنى عدتها « تضحية » يجب أن أتحملاها . ألسنا نخرج صحفا قد لا تلق الرواج والانتشار ، ومع ذلك نأبر على إخراجها مع ما يكتنفها من الخسائر حتى نعجز عن إصدارها ؟ وأنا والحمد لله لم أعجز عن متابعة إصدار هذه المجموعة ، فمضيت فى سبيل إخراجها حلقة بعد أخرى » (٢) .

وصعوبة نشر مؤلفات الرافعى استمرت بعد وفاته أيضا ، وهذا عرض سريع لمؤلفات الرافعى .

أصدر عبد الرحمن الرافعي أول كتبه « حقوق الشعب » - ٢٠٨ صفحة من القطع الكبير - في مارس سنة ١٩١٢ ولم يعد طبعه بعدها ، كتب عنه في (مذكراتي) يقول : « .. كان لمدارس الشعب - التي انشأها الحزب الوطنى فى القاهرة سنة ١٩٠٩ - فضل كبير على ، فهى التى ألهمتنى الفكرة الأولى لتأليف كتابى « حقوق الشعب » فان هذا الكتاب هو سلسلة دروس ومحاضرات لتفهم الشعب حقوقه وواجباته ، وكانت دروسى فى مدرسة الشعب بالخليفة نموذجا مصغرا للأسلوب الذى اتجهته فى هذا الكتاب » • (ص ١٦)

ويشتمل الكتاب على أربعة عشر فصلا تصور ما دار فى الاجتماعات التى عقدها مجموعة من طلاب الدقهلية خلال العطلة الصيفية مع أبناء قريتهم كل مساء لتفهمهم الحقوق والواجبات السياسية والنظم الدستورية فى البلاد الديمقراطية • وكان أهم دعائم حقوق الشعب فى رأى الرافعي هى الحرية التى كان المواطن المصرى يفتقدها فى هذا الوقت من أوائل القرن العشرين : « الحرية الشخصية هى اطلاق الانسان نفسه من كل قيد الا قيد الواجب والقانون أو بعبارة أخرى هى استباحة الانسان لنفسه كل عمل لا يمنعه الشرع المنزل من عند

الله ولا يمنعه كذلك القانون الموضوع بمعرفة نواب الأمة أى
الذى ارتضته الأمة قيّدا لها » • (ص ١٦٥)

٢

وفى يونية سنة ١٩١٤ أصدر الرافعى كتاب « نقابات
التعاون الزراعية • نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوربا »
— ٣٤٨ صفحة من القطع الكبير — ولم يطبع ثانية أيضا • تحدث
فيه عن التعاونيات فى الخارج ، وهاجم فى الكتاب الحكومة
لفشل جمعياتها الرسمية ولعدم اهتمامها بالتعاون من أجل انقاذ
الفلاح المصرى من برائن الاحتلال الانجليزى الذى احال البلاد
الى مزرعة كبرى لمصانع لانكشير ، ودعى الى انشاء جمعيات
تعاونية زراعية فى مختلف المجالات لخدمة الريف المصرى
بالاضافة الى جمعيات تعاونية منزلية تحت اشراف أجهزة الدولة
الرقابية • وكان الرافعى يعمل أيضا على اشاعة الروح
الجماعية ، يقول فى كتابه : « ان استقلال الحركات التعاونية هو
قوامها وأساس نجاحها وان اعتماد المتعاونين على قواهم
ومجهوداتهم هو أكبر عامل فى ارتقاء الحياة التعاونية بل هو روح
تلك الحياة وبدونها يصبح التعاون جسما ميتا رجاء منه ولا خير
فيه • فلا حاجة بنا الآن الى اطالة القول فى ان من الواجب أن
تظل النقابات فى مصر حرة » • (ص ٣٠١)

وفي يناير سنة ١٩٢٢ يصدر كتابه « الجمعيات الوطنية • صحيفة من تاريخ النهضة القومية في فرنسا وأمريكا وألمانيا وبولونيا والاناؤول » - في ٣٩٢ صفحة من القطع الكبير - ولم يتكرر نشره بعد ذلك أيضا •• دعا فيه الى المقاومة الوطنية ضد الاحتلال والسير على تجارب البلاد التي تخلصت من نير الاستعمار بعد طول جهاد • ويعد مقدمة مطولة لكتابات القومية التي تتابعت في ظهورها •

وكان أهم ما قدمه عبد الرحمن الرافعي في هذا الكتاب تقديمه لبطولات الأمم المحتلة في نضالها ضد مستعبدتها ومقاومتها الفدائية في سبيل استقلالها •• ويكتب مؤلفنا عن تجربة الشعب البولوني فيقول : « لم يخفت صوت بولونيا في خلال المائة والخمسين سنة التي تعاقبت عليها وهي عرضة لاعتداء الدول الثلاث الغاصبة ، بل كان صوتها يرتفع جهرا فيهرز قلب الانسانية فيخفق اعجابا بتلك الأمة التي قاومت عوامل الفناء وحافظت على شخصيتها وسمت الى أعلى درجات الرقي في العلوم والآداب والاخلاق والحضارة واحتفظت بميراثها الوطني وآمالها القومية رغم الاضطهاد الدائم والعقبات التي تنوء بها الأمم » •

(ص ٢٧١)

وظهر كتيبه « رسائل وخطب ومقالات » الجزء الأول في عام ١٩٢٣ - ١١٩ صفحة من القطع المتوسط - لم يصدر منه أجزاء أخرى كما كان ينوى الرافعى ؛ ولم يطبع ثانية ، ويشتمل على مجموعة مقالات نشرها في الصحف الوطنية بالإضافة الى بعض الخطب التي ألقاها في مناسبات قومية ، وتناقش مختلف القضايا مثل : مصادرة الحرية في مصر - ارادة الأمة وعدم احترامها - الرجعية في مصر - تسلط الاستعمار بأقليته في حكم مصر - تلون الموظفين بسياسة الحكومة والبعد عن الشعب - ذكرى ضرب الاسكندرية بعد أربعين عاما - عيد ١٤ يوليو ذكرى الاستيلاء على الباستيل - ماذا يجرى في السودان - مصر بين أمم الشرق - الصراع بين الحرية والاستعباد •

يكتب فيه عن قضية تحرير الشعوب « فالواقع الذى لا ريب فيه ان كل الدلائل والمشاهدات تدعو الى اليقين بأن الأمم الشرقية وفي طليعتها الأمة المصرية ستحقق لا محالة آمالها فى الحرية والاستقلال ولا يمكن أن تطوى صحيفة الدور الذى يجتازه العالم الآن دون أن يتم نهوض الأمم الشرقية جمعاء وتحريرها من ربة الاستعباد ؟ ومهما تعددت العقبات التى يظنها دعاة اليأس حائلا دون تحقيق تلك الآمال فهى فى الواقع عقبات وقتية لا تلبث ان تتغلب عليها ارادة الشعوب » • (ط ١ ص ١١١)

وفي المنصورة يصدر في ٥ يناير ١٩٢٥ كتيب « أعمالى
فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ فى دور الانعقاد الأول » بلغت عدد
صفحاته ١٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وزعه على أبناء دائرة
مركز المنصورة عندما اعيد ترشيح نفسه لمجلس النواب
سنة ١٩٢٥ •

ويقول الرافعى فى مذكراته « •• وكان مما لجأت اليه
هذه المرة أن طبعت كتابا عن (أعمالى فى مجلس النواب) أوردت
فيه مجموعة أعمالى نقلا عن المضابط الرسمية وأقوال الصحف ،
ووزعته مجانا فى جميع بلاد الدائرة ليكون شفيعا لى فى اعادة
انتخابى ، وألمت فى مقدمته الى ما سألقاه من المحاربة فى
الانتخاب ••• » (ص ٥٥) ويعرض الكتيب ما اثاره اiban
عضويته الأولى من مناقشات وقضايا •

وفي يناير سنة ١٩٢٩ ينشر مجلده التاريخى الأول عن
« تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فى مصر » الجزء
الأول بلغت صفحاته ٣٨١ صفحة من القطع الكبير وتوالت
طبعااته سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ ، تناول فيه بدء ظهور العامل

الوطني والشعبي منذ عهد المماليك ثم حملة نابليون سنة ١٧٩٨ والثورات الشعبية في الوجه البحري والقبلي سنة ١٧٩٨ وصلة نظام الحكم بالانقلابات والحركات القومية ، وفي المقدمة يحدد منهجه التاريخي بقوله : « ... بدأت - الروح القومية - تظهر في البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، فالى هذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر ، فان هذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جذوة الروح القومية في نفوس المصريين ، وهي أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلي في تاريخ مصر الحديث • ولا تكون دراسة الحركة القومية وافية اذا اقتصرنا على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعها ، من أجل ذلك عزمنا على أن أقرن دراسة عصر مصطفى كامل بالعصور التي خلت من قبله ، والأدوار التي تلت من بعده ، فانما هي سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبة لتحقيق آمال مصر وإدراك مطمحها الاسمي » • (ج ١ ط ٤ ص ٩)

ثم يصدر في نهاية ديسمبر ١٩٢٩ الجزء الثاني من « تاريخ الحركة القومية وتطور الحكم في مصر » - ٤٣٥ صفحة من القطع الكبير - وينعقد طبعه سنة ١٩٤٨ وطبعة ثالثة سنة ١٩٥٨ ، دارسا الفترة التي تلت اخماد نابليون لثورة القاهرة الأولى

سنة ١٧٩٨ الى أن أعاد الديوان العمومي والديوان الخصوصي
وغزوته لسورية في فبراير ١٧٩٩ - بعد أن حصن القاهرة
عسكريا خشية ثورتها عليه في غيابه - ورجوعه لمصر منسحبا
بعد هزيمته • واهتم المؤلف بدراسة مقاومة الشعب المصري
للاحتلال الفرنسي أثناء غياب نابليون عنها ، فثارت الجماهير
في القاهرة والشرقية وبقية البلاد • ويتصالح نابليون مع تركيا
ويعود الى بلاده سرا ويخلفه كليبر ثم يتولى مينو أمر الحملة
بعد اغتيال كليبر حتى يوقع اتفاقية الجلاء مع انجلترا والدولة
العثمانية في سنة ١٨٠١ ويرحل بقواته الى فرنسا ، وتنتهي مقاليد
الحكم الى محمد علي بفضل الزعماء المصريين الذين انخدعوا
بمظهره •

ويعد المجلد الأول وتكملت قمة السلسلة القومية جميعها
بلا مرأ لما بذل فيهما من جهد رائع وممتاز لباكورة كتاباته
التاريخية •

٧

وفي العام التالي يصدر الجزء الثالث من كتاب « تاريخ
الحركة القومية • عصر محمد علي » - ٦١٥ صفحة من القطع
الكبير - (وعندما أعيد طبعه للمرة الثانية في سنة ١٩٤٧ عدل
الرافعي واقتصر عنوان الكتاب على عصر محمد علي) ، ويعمل

المؤلف ذلك بأن حكم محمد على يعد عصرا قائما بذاته • وتتهم مقدمة الطبعة الثالثة التي ظهرت في ١٩٥١ ، الكتاب والمؤرخين الذين تناولوا هذا العصر بعد الرافعي بأنهم لم يأتوا بجديد من دراسات بعده ! يقول مؤلفنا : « وقد ظهرت بعد ظهور الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ بحوث ودراسات قيمة عن عصر محمد على ، لمناسبة الذكرى المئوية لابراهيم باشا سنة ١٩٤٨ ، والذكرى المئوية لمحمد على الكبير سنة ١٩٤٩ ، وراجعتها جميعا فلم أرفيها تعارضا مع ما كتبت ، ورأيت فيها تقصيرا لبعض ما أجملت ، أما الخطوط الرئيسية فهي هنا وهناك متطابقة متماثلة ، وهذا ما جعلني أحرص على أن لا أزيد شيئا على الطبعة الثانية ، اللهم الا اضافات يسيرة حرصت على اثباتها في هامش الكتاب تحت عنوان (هامش الطبعة الثالثة) • (ص ٣)

وأغلب الظن ان هذا تجاهل من مؤرخنا الكبير لجهود طيبة بذلت في هذا الجانب طوال أكثر من عشرين عاما أى بين ظهور الطبعة الأولى والثالثة • ولعلنا نفسر هذا الموقف باصرار الرافعي دائما على أنه كتب كل ما يمكن يقال ويدرس وانه ليس هناك دافعا يجعله يعيد كتابة تاريخه من جديد • وقد ظهرت الدعوة الأخيرة أكثر من مرة في عهد الملكية والجمهورية على السواء ، ففي اللقاء الذى تم بين مؤرخنا الكبير والملك فاروق في سنة ١٩٤٠ بناء على طلب فاروق ، عرض الملك على

الرافعى اعادة كتابة تاريخ مصر من جديد وانه سيمده بوثائق جديدة لم يكتشفها المؤرخ من قبل ، ولكن الرافعى لم يستجب واعتذر ولعل مؤرخنا بذلك قد نجب الخوض فى أزمت جديدة وهو وقتها فى سن الواحد والخمسين عضوا بمجلس الشيوخ .
والمرّة الثانية التى اعتذر عن هذه المهمة كانت بعد ١٩٥٢ وكان أصحابها هم بعض أعضاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فقد عرضوا عليه بحجة اكتشاف وثائق جديدة أيضا ، وان عهد الثورة الديمقراطية هو أكثر حرية من عهد الملكية لاعادة كتابة تاريخ مصر ، ولكن الرافعى اعتذر أيضا ، وترك ذلك لغيره من المؤرخين ان أرادوا .

وكتاب محمد على يشتمل على عرض واف لعصره وأعماله ، ومن الواضح ان الرافعى اغفل تسلط مؤسس الأسرة الملكية السابقة وأشار سريعا الى نظام احتكاره الذى جعل البلاد واقتصادها بين أصابع الحاكم وحده يستغلها كيفما شاء . ولكن المؤلف يهاجم محمد على فى حادث مذبحه القلعة فى أول مارس سنة ١٨٦١ ويعدها من سيئاته : « ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك ، فانا عددنا عليهم من المساوىء التى ارتكبوها والمضار التى جلبوها على البلاد ما يغنى عن البيان ، ولكن مهما بلغت سيئاتهم فان القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الانسانية . ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجهها

لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرا له
ولسمعته ، ولا يسوغ فعلته ان هذه الوسيلة كانت مألوفة
في ذلك العصر ، وأن هذه المؤامرة هي صورة مكبرة لما أمر
به الباب العالي سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك ، اذ عهد الى
الصدر الأعظم والى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهذه
الطريقة نفسها ، فان تكرار السيئات لا يبررها ، وبالجمله فمذبحة
القلعة كانت نقطة سيئة في تاريخ محمد على باشا ... ومن ناحية
أخرى فان الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان
له أثر عميق في حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة أدخلت
الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة
على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة
والطمأنينة الى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص
عليه الأمم الطامحة الى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل
القومية ، فاذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان
ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها ، فالرهبة التى
استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى اضعاف
قوة الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ،
فانما الأمم أخلاق وفضائل ، أضف الى ذلك أن هذه الحادثة
وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت الى مراقبة
ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة والديمقراطية ، وتعددت
مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته

على المظالم ، فنحسب أن مذبحه القلعة قد قضت على هذه الروح الى زمن طويل ، وأحلت في مكانها روح الرهبة من الحكام ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يد من الشعب في خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد في خلال حكمه فانه لم يعرض على الشعب ما فقد من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية » (ط ٣ ص ١١٨ ، ١٢٠)

٨

ثم يظهر « عصر اسماعيل » جزئين في ديسمبر سنة ١٩٣٢ - الأول ٣١٤ صفحة والثاني ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير - ويصدر طبعة ثالثة سنة ١٩٤٨ ، وعن هذا الكتاب يقول عبد الرحمن الرافعي في مذكراته « .. بدأت بهذا الكتاب أدخل في العصر الذي يشعر فيه من كان في موقفى بشيء من الحرج في الكتابة عنه ، فقد وضعته وأخرجته في الوقت الذي كان المغفور له الملك فؤاد نجل اسماعيل في أوج مجده

وسلطانه ، وكنت أعلم مبلغ اهتمامه بتمجيد تاريخ والده ،
والتعظيم من شأنه ، وبتوجيهه ومساعداته السخية صدرت عدة
مؤلفات ترمى كلها الى ابراز الجوانب الحسنة من شخصية
الخديو اسماعيل ، وأنا أعرف هذه الجوانب الحسنة ، وقد
ذكرتها بإسهاب في كتابي عنه ، ولكنى أيضا أعرف أن لاسماعيل
جوانب سيئة ، كان لها أثرها الضار في حياة مصر السياسية
والاقتصادية ، ولا بد من تدوينها ، وبعد أن فكرت في ذلك مليا
وجدتني مدفوعا من تلقاء نفسى الى أن واجبى كمؤرخ للحركة
القومية يقتضى منى ان أدون الحقائق كلها عن الخديو اسماعيل ،
وأذكر ما له وما عليه ، وهذا في الواقع هو منهجى في التراجم
والشخصيات ، وأنا بطبعى ميال الى الاعتدال ، ولا أحب
التشيع في ذكر السيئات ، ولكن لا يصح أن أغفلها أو أتجاوز
عنها ، لانى أنشد الحق والأنصاف فيما أقول وأكتب ، وأود أن
لا أظلم أحدا ، ولا أرضى لنفسى أيضا أن أحابى أحدا بغير
الحق ، وقد وضعت لنفسى هذه القاعدة في سلسلة هذه
المجموعة ، وأتبعتها قدر ما استطعت في كل حلقة من حلقاتها ،
وعلى هذا الأساس وضعت كتاب عصر اسماعيل « (ط ١
ص ٦٦)

وكما توقع الرافعى فقد نظرت الجهات الرسمية الى الكتاب
نظرة عدائية .. ولما كانت الحكومة لا تملك لمؤرخنا ضرا

ولا نفعا الا في أضيق الحدود ، فقد استغلتها ! ولم تشتتر من الكتاب النسخ التي اعتادت وزارة المعارف (التربية والتعليم) ان تمد بها مكاتبها وأرسلت اليه تعتذر بأن مؤلفه هذا به مآخذ تحول دون ايداعه مكاتب مدارس الوزارة ! وأرسلت طي خطابها صورة من تقرير ما اسمته (لجنة فحص الكتب التاريخية لمكاتب المدارس) وفيه تعداد لهذه المآخذ المزعومة ، وقوامها انه تحامل على الخديو اسماعيل !

ويحتوى الجزء الأول من « عصر اسماعيل » على دراسة لعباس الأول ورجعيته والنهضة الوطنية في عهد سعيد واصلاحياته ، وسياسة اسماعيل الخارجية والداخلية ووضع السودان في عهده ، والاكتشافات الجغرافية ، وحالة الجيش والبحرية والحروب والتعليم والنهضة العلمية والأدبية والفنية والصحافة واعلام الأدب والعلوم والفنون • واشتمل الجزء الثانى على أعمال العمران والحركة الوطنية والحياة النيابية في عهد الخديو اسماعيل ومشكلة الدائنين ، وحالة البلاد المالية والاقتصادية والاجتماعية وعزل اسماعيل وشخصيته ••

ويشير الرافعى الى مأساة الديون بقوله : « مسألة الديون هى الجانب المظلم من تاريخ اسماعيل ، لأنها المأساة التى انتهت بتصدع بناء الاستقلال ، وتدخل الدول فى شئون البلاد المالية والسياسية ، فمن الواجب أن نوافى الكلام عنها فى شىء من

الايضاح والبيان • بقيت مصر سليمة من آفة الاستدانة في عهد محمد علي و ابراهيم وعباس ، وبدأت حكومتها تمد يدها الى الاقتراض في عهد سعيد باشا ، فاستدان سنة ١٨٦٢ قرضا مقداره ٨٠٠ر٢٤٢ر٣ جنيه انجليزى ، واستدان عدا ذلك مبالغ أخرى من الديون السائرة ، فبلغ الدين العام عند وفاته ١١ر١٦٠ر٠٠٠ جنيه • أما الخديو اسماعيل ، فكانت آفته الاسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرايين الأجانب من غير حساب أو نظر في العواقب ، حتى كبل البلاد حكومة وشعبا بالقروض الفاحشة • (ج ٢ ط ٢ ص ٢٥)

٩

وفي فبراير سنة ١٩٣٧ صدرت الطبعة الأولى من « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » - فى ٥٨٣ صفحة من القطع الكبير - وتصدر الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ •

ويكتب المؤلف فى مقدمته « للثورة العرابية ، كما لكل ثورة ، انصار وخصوم ، ولقد بدا لى أزاء هذه الآراء المتباينة ان أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لا تنتهى الى رأى يهدى اليه البحث والتمحيص •• وقد اجتهدت من هذه الناحية فى استخلاص الحقائق عن الثورة وحوادثها وأشخاصها • من غير تميز أو محاباة ، ثم بنيت عليها ما عن لى من الرأى ، على أننى حرصت جهد الاستطاعة على أن لا أخلط بين الوقائع

والرأى فيها ، لادع للقارىء حرية الحكم على الحوادث
والأشخاص » (ط ١ ص ٤ ، ٥)

ويعرض الرافعى الأسباب القريبة والبعيدة للثورة العراقية
وتفاصيلها وأسباب اخفاقها ، محملا اياها تبعة الاحتلال
البريطانى ويقف كثيرا عند شخصية زعيمها أحمد عرابى موقفا
عدائيا كما يحدث ازاء غير زعماء الحزب الوطنى ! لأن الحزب
الوطنى يعتبره سبة فى وجه مصر لأنه جلب اليها بتهوره الاحتلال
الانجليزى • « وقد يرجع نزوعه - أى عرابى - الى الثورة
الى أصله البدوى ، فانه ذكر عن نسبه أنه ينحدر من سلالة
بدوية عراقية ، ومعلوم أن أكثر البدو يميلون الى التمرد
والثورة ، على أنهم سرعان ما ينقلبون خاضعين اذا آنسوا القوة
من جانب خصومهم ، وهذا مع الأسف ما انتهى اليه عرابى ،
فقد أذعن للقوة واستسلم لها فى واقعة التل الكبير ، ولم يبذل
خلال المعركة أو بعدها من قوة المقاومة والنضال والتضحية
ما يسمو به الى مصاف الأبطال • وكان ذكاؤه محدودا ، على
انه كان على جانب كبير من الغرور ، والاعتداد بالنفس ، وكان
يعول كثيرا على أقوال المنجمين والعرافين ، وهذه جوانب
ضعف كبيرة فى شخصه » • (ط ١ ص ٨٢)

واستعرض مؤرخنا مواقف رجال الثورة فى المحاكمات
وما اتسمت به من شجاعة واستسلام • ويذكر المواقف المشرفة

لبعض هؤلاء الزعماء مثل على باشا الروبى الذى انضم للثورة بعد ان كان رئيسا لمحكمة المنصورة • « كان الزعيم الوحيد الذى أجاب بشجاعة وصراحة على ما وجه اليه من التهم ، واحتمل تبعه ما عمل أو اشترك فى عمله ، ولم يسع فى التنصل من المسئولية ، ولم يقبل أن يشارك زملاءه فى الاتفاق مع السلطات البريطانية على مصير المحاكمة وخطة الدفاع فيها ، ولذلك لم يشمل العفو الذى عومل به زعماء الثورة ، وحكم عليه بالنفى عشرين سنة فى مصوع تحت الملاحظة ، فلم يمض عليه بها عامان حتى اعتلت صحته وضعف بصره ، ثم نقل الى سواكن منفيا تحت الملاحظة فيها ، وكانت حرارة الطقس قد أثرت فى صحته ، فأودت ببصره ، وتوفى فى سواكن يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٩ هـ (١٩ سبتمبر سنة ١٨٩١ م) ودفن بها ، ولا يزال قبره هناك » • (ط ١ ص ٥٤٥)

١٠

وفى يناير ١٩٣٩ يصدر عبد الرحمن الرافعى مجلده الضخم عن « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » - ٥٣٢ صفحة من القطع الكبير - وتصدر طبعته الثانية سنة ١٩٤٥ والثالثة سنة ١٩٥٠ والرابعة سنة ١٩٦٢ ، وفى نوفمبر ١٩٥٢ تصدر طبعة موجزة عن الأصل فى سلسلة « كتاب الهلال » •

وقد تأخر ظهور الكتاب في طبعته الأولى عن مواعده المقرز له قبل حين ابتداء الرافعى سنة ١٩٢٦ فى الكتابة عن مصطفى ولكنه اكتشف انه لا يمكن اصداره دون العودة الى نشأة الحركة القومية المصرية منذ المقاومة الوطنية لحملة نابليون سنة ١٧٩٨ وكان ان فعل •

وكان اهداء الكتاب بليغا نابعا من القلب وهو يقول :
« الى من كانت حياته للأمة بعثا وطنيا • من كان لى أبا روحيا • وسأبقى له تلميذا وفيا • من علمنى أن الحياة بغير المثل العليا عرض زائل • وعبث ضائع • الى « مصطفى كامل » اهدى كتاب « مصطفى كامل » • هدية الوفاء الى روحه العظيمة » •

ويدرس مؤرخنا فى مؤلفه حياة الزعيم الشاب ويتابعه منذ مولده الى وفاته ، ويعرض لفكره ومواقفه مفسرا أعماله مسجلا بعض خطبه المشهورة •

وكان من رأى الرافعى فى الزعيم الشاب •• « لانزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال ، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال فى ميادين الحرية والاستقلال ، ولا مرأى فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى • ان شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث ، هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم ، وهى ايمانه

برسالته واخلأقه وصفاته ، ثم وطنيته الصادقة » • (ط ٤
ص ٤٢٣)

وكعادة الرافعى فى اغفال جوانب الضعف فى الشخصية
التاريخية التى يتناولها ، الغى الكثير من هذه الجوانب فى
حياة ومواقف مصطفى كامل • مثل مضارباته • التى يذكر عنها
الزعيم محمد فريد فى يومياته بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧
« واضطربت مالىته كثيرا بسبب المضاربات التى كان دخل فيها
هو وأخيه على » (١) •

١١

وفى يولية سنة ١٩٤١ يظهر كتاب « محمد فريد رمز
الاخلاص والتضحية » - ٥٢٥ صفحة من القطع الكبير -
وتصدر الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ والطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢
وتصدر طبعة مختصرة سنة ١٩٥١ فى سلسلة « كتاب الهلال » •

وكان الرافعى يستشعر دائما خفوت ذكر محمد فريد
بالذات ، فعمل على دراسة جهاده الوطنى وتسليط الأضواء على
أعماله • • لأن فضله كما يقول • • « قد غمر فى زحمة التقلبات
التي طرأت على الحركة القومية » ويعنى بذلك قيام ثورة ١٩١٩
وظهور الوفد على رأس المقاومة الوطنية •

ويعرض الكتاب للزعيم الوطنى منذ أن شب عن الطوق

ويتابعه في حياته الأسرية ويتحدث عن مؤلفاته وترجماته وصلته
بمصطفى كامل وتضحياته من أجل الوطن وخلافته للزعيم
الشاب وجهاده الوطني وجولاته في أوروبا من أجل الدعوة
للقضية المصرية الى أن اضطر الى الارتحال عن بلده ووفاته في
ألمانيا مساء السبت ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ وعودة جثمانه الى
مصر بفضل ووطنية أحد تجار الزقازيق ، وكعادة الرافعي اغفل
الإشارة الى الحياة الخاصة لمحمد فريد في أوروبا وخاصة علاقته
مع مدام رينه دي روشبرون الفرنسية التي نشرت مذكراتها عن
هذه العلاقة ، وكذلك علاقته في المنفى مع الخديو السابق
عباس حلمي الثاني (٤) .

ويهتم الرافعي أحيانا بتفاصيل حياة محمد فريد الوطنية ،
كما حدث وهو يعرض لما لابس الحكم الذي صدر عليه في
٢٣ يناير سنة ١٩١١ بسجنه ستة شهور لكتابته مقدمة ديوان
الشاعر على الغياتي . فعندما دخل الزعيم المصري سجن
الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ العقوبة دار هذا الحوار بينه وبين
كولس باشا مدير مصلحة السجون : « . . بدأ كولس باشا
يتحدث اليه بالفرنسية قائلا : اني أسعى للعفو عنك اذا وعدت
بتغيير خطتك ، فأجابه الفقيد ان ما تطلبه مستحيل ، فعدل
كولس باشا وقال : اني لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف
لهجتك ، فرفض ، فقال له كولس باشا : أنت تريد اذن قضاء
الست الشهور في السجن ، فقال الزعيم : وأزيد عليها يوما

ان أردتم ، فأدرك كولس باشا ان لا سبيل الى مساومته
وانصرف » • (ط ٣ ص ٢٨٤)

وقد تصدى كثيرون من الكتاب لأسلوب الرافعى فى
تجاهل الجوانب السلبية فى حياة الزعماء • يقول محمد صبيح فى
كتابه : « كفاح شعب مصر » الذى يجابه فيه الرافعى - وقد
كان حيا - بما أغفله فى مذكرات محمد فريد التى اطلع عليها •
ويقول صبيح « ان تقدير الأستاذ الرافعى لزعميه مصطفى
وفريد ، جعله يعطيهم فيما كتبه عنهما صفة العصمة فى كل رأى
أو عمل قاما به •• وهو الأمر الذى تنكره طبيعة الأشياء
والأحياء •• وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه المرحوم الأستاذ
العقاد فى تأريخه لسعد زغلول » (٥) •

١٢

وفى يونية ١٩٤٢ أصدر الرافعى كتابه « مصر والسودان
فى أوائل عهد الاحتلال • تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى
سنة ١٨٩٢ » - ٢٨٢ صفحة من القطع الكبير - وظهرت الطبعة
الثانية سنة ١٩٤٨ ، والطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ • يعرض فيه
للسنوات العشر الأولى للاحتلال الانجليزى على مصر ، مشيراً
الى تضاياع الامبراطورية المصرية حيث تم شطر السودان بعد
أن ضمت مصر فى سبيل الوجدة بعشرات الألوف من أبنائها
وبملايين الجنيهات من أموالها وبجهود عشرات السنوات من

تاريخها • ويذكر الدعائم التي أرستها السياسة البريطانية
لإفساد العلاقات الوثيقة بين البلدين الشقيقين • ويهتم الرافعي
بالإشارة إلى آثار الاحتلال في النفوس « • • فلا عجب أن ظلت
الأمّة سنين عديدة تتردى في هوة الانحلال الوطني ، وهو نتيجة
حتمية لاختفاق الثورة الأهلية ووقوع الاحتلال الأجنبي » •
(ط ٣ ص ٢٠٩)

١٣

وفي أبريل سنة ١٩٤٦ يصدر الرافعي مجلدين عن « ثورة
سنة ١٩١٩ » • تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى
سنة ١٩٢١ - الجزء الأول ٢٠٧ صفحة والثاني ٢٣٢ صفحة من
القطع الكبير - وتصدر الطبعة الثانية في مجلد واحد سنة ١٩٥٥
والطبعة الثالثة تصدر سنة ١٩٦٨ في أربعة أجزاء في سلسلة
كتاب الشعب ، ويترجم إلى اللغة الروسية سنة ١٩٦٧ •

عرض فيها المؤلف لحالة مصر أثناء الحرب العالمية الأولى
ثم بواعث الثورة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وأثبت
تطور الأحداث ووقائعها في القاهرة والاقاليم ودور عبد الرحمن
الرافعي في المنصبورة إبان اشتعالها • والافراج عن سعد ثم
استمرارها ومحاكماتها وتنتهي الدراسة بلجنة ملنر ومفاوضاتها •
يكتب الرافعي عن تفجير الثورة « لم يكذب يترامى نبأ

القبض على سعد وصحبه ، حتى أخذت سمات الغضب ترتسم في محيط العاصمة ، وتسرى منها الى الأقاليم • كانت روح السخط كامنة في الجوانب ، والنفوس مغيظة محنقة من تصرفات السياسة البريطانية ، القديمة والحديثة ، متحفزة للثورة على هذه التصرفات ، وجاء هذا الحادث كالشرارة أشعلت النار في النفوس المضطربة • كان هذا الاعتقال جديرا بأن يهيج الخواطر ، ويدفع الأمة الى الثورة ، لأنه حلقة من تصرفات جائرة اتخذتها السلطة البريطانية لاذلال الشعب ، والحيلولة دون حقه في الحياة ، وقد بلغ التحدى لأمانيه غايته ، بحيث يعد السكوت على ذلك رضا واستسلاما ، فجاءت الثورة معلنة ان الأمة لا ترضى بالذل والعبودية » • (ج ١ ط ٢ ص ١٧٠) •

١٤

وفي أول يولية سنة ١٩٤٧ ظهر « في أعقاب الثورة المصرية » الجزء الأول - ٣٣٦ صفحة من القطع الكبير - وفي نوفمبر سنة ١٩٤٩ يصدر الجزء الثاني - ٣٨٦ صفحة من القطع الكبير - وفي أكتوبر سنة ١٩٥١ يصدر الجزء الثالث - ٣٤٤ صفحة من القطع الكبير - •

يشمل الجزء الأول تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ الى وفاة المغفور له « سعد زغلول » في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ حيث عرض الانقسام الداخلى سنة ١٩٢١ والموقف السياسى بعد

قطع مفاوضات عدلى وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، ثم
الوزارات المتعاقبة ، ودستور سنة ١٩٢٣ والانتخابات العامة
والبرلمان الأول وذكرياته وانتخابه عضواً في مجلس النواب
عن دائرة مركز المنصورة • ثم وزارة سعد وحوادث السودان
ومقتل السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان
العام ، واستقالة سعد ، وتأليف وزارة زيور والتسليم بمطالب
الانجليز ، وتعطيل البرلمان وانتخابات سنة ١٩٢٥ وحل مجلس
النواب الجديد يوم انعقاده ، ثم اجتماع البرلمان من تلقاء
نفسه بفندق الكونتنتال يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ بعد اغلاق
الحكومة البرلمان بقوات الجيش ، وعودة الحياة الدستورية •
ثم الوزارات الائتلافية • ويعرض في فصل خاص دراسة
عن شخصية سعد زغلول ، وفصل عن الدستور والحكم المطلق •
وقد أشاد بزعامة سعد - بالرغم من المآخذ التى عددها
عليه - حين قال : « ان الزعامة هى قدرة الانسان على أن يقود
الجمهير وان يجمع حوله أكثر ما يمكن من الأنصار والمؤيدين
أو المعترفين بزعامته • ولاشك أن سعدا قد جمع حوله منذ أواخر
سنة ١٩١٨ الى أن توفى سنة ١٩٢٧ أكبر ما يمكن من الأنصار •
وكانت له مقدرة عجيبة فى اقتياد الجماهير ، وقد جمع حوله
بغير منازع الغالبية العظمى من الأمة ، على اختلاف طبقاتها
وطوائفها ، فزعامته أصبحت حقيقة من حقائق التاريخ القومى
لمصر الحديثة » • (ج ١ ط ١ ص ٢٩٣)

ويعرض الجزء الثانى لتاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ الى وفاة الملك أحمد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ حيث يتحدث عن استمرار الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول ، ونقض الائتلاف وتعطيل الدستور • ومفاوضات محمد محمود وهندرسن ، ووزارة اسماعيل صدقى والحوادث الدامية فى عهده فى الأقاليم ، والغاء دستور سنة ١٩٢٣ وإعلان دستور آخر • ثم عودة الحياة الدستورية بعد الغاء دستور صدقى ، وشخصية الملك فؤاد • والمأمه بالنهضة الاقتصادية والنهضة الاجتماعية •

ويشتمل الجزء الأخير على تاريخ مصر القومى (بعد ارتقاء الملك فاروق عرش مصر) من ٦ مايو سنة ١٩٣٦ الى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥١ ويتناول المؤلف الحالة السياسية فى أوائل عهد فاروق ، ثم معاهدة سنة ١٩٣٦ ورأيه فيها باعتبارها وصمة فى جبين مصر ، والغاء الامتيازات الأجنبية • ثم وزارة محمد محمود الثانية ، ومصر فى الحرب الثانية ، ثم حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ووزارة مصطفى النحاس الخامسة • ثم وزارة أحمد باهر ، ومصر بعد انتهاء الحرب الثانية • ويكتب الرافعى عن اشتراكه فى وزارة حسين سرى الائتلافية سنة ١٩٤٩ وزيرا للتموين ثم يتابع الوفد فى الحكم أو ما يسميه عودة الحكم المطلق ، وإخراج المعارضين من مجلس الشيوخ وهو من بينهم • وترحيبه بما أعلنه مصطفى النحاس بالبرلمان مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر

سنة ١٩٥١ من قطع المفاوضات المصرية البريطانية ، والغاء معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، واتفاقيتى ١٩ يناير ، ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ بشأن ادارة السودان ، وتعديل الدستور وجعل لقب الملك « ملك مصر والسودان » • « ولا ريب ان قطع المفاوضات التى طال امدھا ، واعلان الحكومة الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، هو كسب كبير للقضية الوطنية ، وهو اعلان باستئناف الجهاد والكفاح فى سبيل تحرير الوادى • واننا لنرحب بهذه الخطوة فى الجهاد ، ونغتنب بها اغتباطا عظيما ، ونؤيد الحكومة فيها ، وفى خطوات الجهاد كافة ، ونساهم فيها بكل قوانا وجوارحنا ، وندعو الى تضامن الشعب والحكومة فى مراحل هذا الكفاح ، وفق الله الوادى فى جهاده ، وأمله بروح من عنده فى سبيل تحقيق أهدافه » • (ج ٣ ط ١ ص ٣٣٥)

والكتاب بأجزائه الثلاثة لم يقدر أن يعاد طبعه كاملا ، لكن قامت دار الشعب بطبع الجزء الأول منه فى سلسلة « كتاب الشعب » سنة ١٩٦٩ ولم تكمله •

١٥

وفى فبراير سنة ١٩٥٢ يصدر اعترافاته وذكرياته تحت عنوان « مذكراتى » فى الفترة من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٩٥١ -

١٦٠ صفحة من القطع الكبير - ولم يعاد طبعه • واشتمل الكتاب على شريط حياته العائلية بسرعة واهتمامه الشديد بأمه ثم يتحدث عن أبيه وأخواته وتعليمه وتلمذته لمصطفى كامل ومحمد فريد • واشتملت الاعترافات على عمله في المحاماة بقدر ضئيل وصلته بالحزب الوطني ومقالاته الصحفية الأولى ومجموعة كتبه التي أصدرها وكذلك عن اعتقاله وذكرياته عن ثورة ١٩١٩ وتحدث عن زوجته ، ونشاطه ومشاركته في انشاء الجمعيات التعاونية إبان الحرب الأولى ثم تحدث عن حياته البرلمانية سنة ١٩٢٤ بمجلس النواب ثم إبعاده عن النشاط السياسي منذ ١٩٢٦ إلى ١٩٣٩ حيث دخل مجلس الشيوخ إلى أن انتهت مدته سنة ١٩٥١ • وروى كيف أبعد عن الحياة السياسية سنة ١٩٢٦ واتجاهه إلى التأليف •

١٦

وفي سنة ١٩٥٢ يصدر مؤلفه « الزعيم الثائر أحمد عرابي » عن دار الهلال ولكن هذا الكتاب لا يقدر له أن يرى النور فقد صادرتة السراي ولم يفرج عنه إلا بعد قيام ٢٣ يولية بموافقة قائدها اللواء محمد نجيب ، وتصدر طبعته الثانية في ذات السنة ، وفي سبتمبر سنة ١٩٦٨ تصدر طبعته الثالثة عن دار الشعب - والأخيرة ٣٢٤ صفحة من القطع المتوسط - •

وتشتمل الدراسة على حياة عرابي وأعماله ونهايته وشخصيته ، ويعد هذا الكتاب صورة مركزة لما نشره الرافعي في كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي » الصادر سنة ١٩٣٧ ، ولكن الجديد في الكتاب انه رفع كافة الفقرات الحادة التي كتبها وهو في الثانية والأربعين والتي تدين عرابي بالخيانة والهروب من ميدان المعارك حتى بدا كأنه اعتذار عما سلف ، وبعد أن قوبل رأيه السابق بالانكار وبعد ما حفلت المكتبة العربية بدراسات عن عرابي من بينها كتاب محمود الخفيف « عرابي المفترى عليه » • وكتابات الرافعي الجديدة وهو في سن الثلاثة والستين عن عرابي خير دليل لتعديله لموقفه على مر الأيام فرفعه من الحضيض الى السماء وهكذا احاله أيضا عندما ارتد من الثورية سنة ١٩١٩ الى حد انكاره للاغتيالات التي قام بها أبطالنا المجهولون حين كتب عن هذه الفترة في كتب « ثورة سنة ١٩١٩ - في أعقاب الثورة المصرية - مذكراتي » •

والكتاب يشتمل على أحد عشر فصلا طالعنا منها عناوين على سبيل المثال « عرابي الزعيم القومي » و « الزعيم في المنفى » ومقارنة بين كتاباته سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٥٢ ، نراه في الأولى يكيل التهم وفي الثانية يتحدث برقة • يكتب مثلا (عام ١٩٣٧ « فان الحرص على الحياة كان رائده - أي عرابي - في كل هذه الأحداث ، وقديما قالوا (اذل الحرص أعناق

الرجال (٦) » أما في عام ١٩٥٢ فتتحول هذه الفقرة الى « شخصية عرابي كانت تجمع بين المحاسن والاضداد ، حقا ان الرأي في شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح .. فلو ان الثورة قد اتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه ، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير في تقدير الرجال والأشخاص »

والناس من يلقى خيرا قائلون له
ما يشتهى ولأم المخطيء الهبل (٧)

١٧

وفي عام ١٩٥٤ يصدر عبد الرحمن الرافعي كتابه « شعراء الوطنية » - ٣١٦ صفحة من القطع الكبير - وأعيد طبعه سنة ١٩٦٧ ، ويعرض لرفاعة رافع الظهطاوي وعبد الله نديم ومحمود سامي البارودي واسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم و خليل مطران وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب والدكتور أحمد زكي أبو شادي وعبد الحليم المصري وعزيز فهمي ثم أخيرا على الغياتي ..

ومع أن موضوع الكتاب له صلة بشكل غير مباشر بالتاريخ والوطنية ، الجانب الأثير عند الرافعي .. الا أن القارئ ربما

يدهش لاهتمام مؤرخنا بالشعر • ولكن الدارس لحياته يعرف
انه كان في شبابه شديد العشق للشعر العربي القديم بالذات •

١٨

وفي أكتوبر ١٩٥٥ يظهر كتاب « أربعة عشر عاما في
البرلمان » - ٥٥٢ صفحة من القطع الكبير - يعرض فيه للفترة
التي قضاها عضوا بمجلس النواب من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٥
والفترة التي قضاها عضوا بمجلس الشيوخ سنة ١٩٣٩ الى
سنة ١٩٥١ من واقع مضابط المجلسين البرلمانيين ، وكان
الرافعي يوزع كتابه بالمجان •

ومن المعروف أن الحديث عن الفترة الأولى سبق أن طبعها
سنة ١٩٢٥ في كتيب « أعمالى في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ في
دور الانعقاد الأول » •

١٩

وفي مارس ١٩٥٧ يصدر كتاب « مقدمات ثورة ٢٣ يولية
سنة ١٩٥٢ » - ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير - ويعيد طبعه
سنة ١٩٦٤ • يشير في مقدمته الى ان هذا الكتاب هو في سلسلة
التاريخ القومى خلفة جديدة تبدأ حيث انتهت الجزء الثالث من

كتابى « فى أعقاب الثورة المصرية » ، « ثورة سنة ١٩١٩ » وهو يتناول الكفاح فى منطقة القنال وحريق القاهرة ووزارات الموظفين وأسباب الثورة وفاروق يمهد للثورة وقد عرض الرافعى جوانب كثيرة سبق ان نشرها بالحرف الواحد فى مجلداته السابقة .

والانطباع الذى يخرج به القارئ فى هذا المؤلف ، انه ما كان يجدر بالمؤرخ الكبير أن يدون شيئا عن ثورة ١٩٥٢ والسبب انه كان صحيحا فى حالة لا يقوى فيها على الكتابة الممتازة ولذلك اعتمد الكتاب على النقل من الصحف والمجلات !

وقد توقف عبد الرحمن الرافعى باهتمام عند حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان له رأى يخالف الكثيرين وهو ينفى مسئولية الانجليز والقصر فى الحريق ! يقول : « قرأت فى بعض الصحف والمجلات تلميحات الى ان الانجليز هم الذين دبروا حريق القاهرة ، مثلما دبروا مذبحة الاسكندرية التى وقعت يوم ١١ يونية سنة ١٨٨٢ . وزعم آخرون أن لفاروق يدا فى هذا التدبير . وكنت أود أن يسفر البحث والاستقراء عن تدبير الانجليز أو فاروق حريق القاهرة ، ولقد مضت عدة سنين وأنا أعاود البحث لعل أصل الى بينات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير ، مثلما انتهى بى البحث والتحقيق الى ثبوت تدبير الانجليز لمذبحة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ . ولكن الأمر فى حريق القاهرة جاء على خلاف مذبحة الاسكندرية ، وتبين لى مع شديد

الأسف أن حريق القاهرة كان عملا محليا قامت به العناصر
الرديئة من الشعب » • (ط ٢ ص ١٢٢)

٢٠

وفي أكتوبر ١٩٥٩ وعبد الرحمن الرافعي في سن الواحدة
والسبعين يصدر « ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومي في
سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ » يقول في مقدمته : « في هذا
الكتاب تأريخ لثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ • أؤرخها في سبع
سنوات منذ عام قيامها الى سنة ١٩٥٩ • وبذلك يتاح لى ان
أؤرخ الثورات التى تعاقبت على مصر فى تاريخها الحديث ،
خلال نصف ومائة وخمسين عاما » • (ط ١ ص ٣)

والكتاب خفيف للغاية فى مادته وحكمه على الأشياء ••
حيث جامل السلطة الجديدة التى كرمته وكان من أبرز عيوبه
فيه تجاهله الكامل لدور محمد نجيب !

ويقول الدكتور وحيد رافت فى كتابه « فصول من
ثورة ٢٣ يوليو » : « وللاستاذ عبد الرحمن الرافعي وأمثاله
من الكتاب والمؤرخين أن يشيدوا بذلك النصر (يشير الى كتابة
الرافعي عن قرارات مارس سنة ١٩٥٤ ، متخذا جانب السلطة)
بلا تحفظ ويتغنوا بكل ما فى ذلك العهد ، ويحرقوا للسلطة
البخور ، ويؤلهوا الحاكم الذى حولوه بخنوعهم وسكوتهم الى

طاغية ، فانهم قوم كانوا قد فقدوا الوعي فوجدوا جسنا ما ليس
بالحسن ، وعميت أبصارهم عن رؤية السليبات
والسيئات » (٨) •

٢١

وأصدر في مايو ١٩٦٣ كتاب « تاريخ الحركة القومية في
مصر القديمة من فجر التاريخ الى الفتح العربى » ٣١٣ صفحة
من القطع الكبير - بلغت فصوله خمسة عشر ، تناول فيها :
الوحدة القومية والدولة القديمة ، الثورة الاجتماعية فى القرن
الثالث والعشرين قبل الميلاد ، الدولة الوسطى ، ثورة الشعب
على الهكسوس ، الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشر الى
الأسرة الثلاثين ، أوج المجد • مصر فى عصر تحوتمس الثالث
اخناتون وثورته الدينية ، رمسيس الثانى وحروبه الدفاعية ،
الدفاع عن كيان مصر فى عهد خلفاء رمسيس الثانى ، وتحرير مصر
من الاحتلال الآشورى ، الغزو الفارسى وثورات الشعب عليه •
الأسرات الملكية فى مصر القديمة ، الاسكندر الأكبر فى مصر •
جلاء الفرس سنة ٣٣٣ ق.م ، البطلمنة فى مصر وثورات الشعب
عليهم ، مقاومة مصر للاستعمار الرومانى وعصر الشهداء ،
الفتح العربى لمصر وحالة البلاد قبله •

والكتاب فى مجموعة لا تعدو الا أن يكون مدرسيا
وموجزا أيضا يكتب عن الخمس محرز مصر من الهكسوس

ثلاثة سطور ! « هو ابن سقن رع وأخو كامس • وقد خلفه في قيادة حرب التحرير • واستمر يحارب الهكسوس حتى قضى عليهم واستولى على عاصمتهم (أواريس) • وتعقبهم في فلسطين • وقضى على فلولهم في (شاروهين) وفروا الى سوريا » • (ص ٧٧)

٢٢

وبعد سبعة أيام من وفاة مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعي يصدر كتاب « جمال الدين الأفغاني باعث نهضة الشرق » في ١٠ ديسمبر ١٩٦٦ في سلسلة « أعلام العرب » - ١٨٦ صفحة من القطع الصغير •

يعرض فيه نشأة الزعيم الاسلامي الكبير ، ومجيئه لمصر وفكره ثم عمله في أوروبا بعد نفيه من مصر ابان حكم توفيق ومقالاته في العروة الوثقى التي أصدرها في منفاه في باريس ونشاطه في بلاد الشرق وأوروبا وصفاته وأخلاقه وشخصيته • ويعده الرافعي ملهما للثورة العراقية بأفكاره وتعاليمه التقدمية بمقياس عصره والتي حفز بها النفوس الى الحرية والتمسك بها • وفي ذلك يقول : « فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العراقية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه ، وحسبك أن خطيب الثورة العراقية عبد الله نديم

كان تلميذا له • ومحمود سامى البارودى رئيس وزراء الثورة
كان من أصدقائه ومريديه • والشيخ محمد عبده هو تلميذه
الأكبر ، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى
كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها فى عهد اسماعيل «
(ط ١ ص ٤٧) •

٢٣

ويشير الرافعى فى مقدمة كتابه « الحركة القومية فى مصر
القديمة حتى الفتح العربى » عن رغبته فى أن يستكمل كتاباته
عن الفترة من الفتح العربى حتى قبيل الاحتلال العثمانى
سنة ١٥١٧ أو بالأحرى الحقبة الأخيرة التى لم تغطها كتاباته
القومية • وبدأ مؤرخ مصر الحديثة يعد مسودات هذا الكتاب
ولكن لم يطل به الأجل ليعده للمطبعة ، وحقق آله من بعده
رغبته ودفعوا بالمسودات لصديقه الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة القاهرة ،
الذى أصدره فى طبعته الأولى سنة ١٩٧٠ مقدما اسم الرافعى
على اسمه - ٥٢٨ صفحة من القطع الكبير - تحت عنوان
« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو
العثمانى » •

وقد عالج الدكتور عاشور العناصر التى خطتها الرافعى

لإعداد كتابه بقوله في المقدمة « على اتنى أجد لزاما على أن اعتذر لعشاق كتابات الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومقدرى علمه وفضله ، لما سيجدون في هذا الكتاب من اختلاف في المنهج والأسلوب وطريقة العرض عما لمسوه وعهدوه في مؤلفات الفقيه الكبير . ذلك أن لكل كاتب منهجه وأسلوبه وذوقه ، وهذه كلها نواحي تتفق وعقلية المؤلف وتفسيره وبيئته وعصره . . . وخلاصة القول أنه كان على أن أقدم للقارىء في هذا المؤلف خلاصة عديد من المصادر والمراجع ، ولذا حرصت دائما خلال صفحات هذا الكتاب على أن أعطى القارىء صورة واضحة موجزة للعصر الذى أقدمت على علاجه من مختلف جوانبه الرئيسية ، دون الدخول في التفاصيل التاريخية والحوادث الثانوية ، التى ربما تفسد عرض التاريخ في كتاب مجمل من هذا النوع أكثر مما تخدمه » . (ط ١ ص ٧)

ولم يشأ الدكتور عاشور في أن يحجب عن القارىء المقدمة التى كان قد أعدها الرافعى لآخر كتاباته فنشرها .

والكتاب يشتمل على ست أبواب تعددت فصول كل باب وتناولت بصورة أكاديمية ممتازة . مصر ولاية عريضة ، مصر في عهد الطولونيين ، الدولة الأخشيدية ، الدولة الفاطمية ، الدولة الأيوبية ، دولة المماليك .

وبالإضافة الى الكتب السابقة ، فقد رغب وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين سنة ١٩٥٨ في أن يقدم لطلبة المدارس كتباً قومية في متناول أيديهم ، فكلف عبد الرحمن الرافعى بتقديم هذه الطبعة المبسطة ، فكان أن ابتدأ اعتباراً من أغسطس سنة ١٩٥٨ في تقديم سلسلة « مصر المجاهدة في العصر الحديث » بلغت ستة كتيبات وهى :

١ - من عهد الحكم العثمانى المملوكى الى ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ - ١٧٥ صفحة من القطع الصغير •

٢ - من ولاية محمد على سنة ١٨٠٥ الى نهاية حكم سعيد سنة ١٨٦٣ - ١٧٧ صفحة من القطع الصغير •

٣ - من بدء حكم اسماعيل الى مقدمات الثورة العرابية سنة ١٨٦٣ - ١٨٨٢ - ٢١٩ صفحة من القطع الصغير •

٤ - الثورة العرابية والاحتلال واخلاء السودان - ١٧٧ صفحة من القطع الصغير •

٥ - التراجع والانتكاس فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ومراحل البعث الوطنى الى نهاية ثورة ١٩١٩ - سنة ١٩٥٩ فى ٧١٢ صفحة من القطع الصغير •

٦ - من نهاية ثورة سنة ١٩١٩ الى بداية ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ - سنة ١٩٥٩ في ١٨٥ صفحة من القطع الصغير •
وقد أعادت هيئة الاستعلامات المصرية في عامى ١٩٧٩ ،
١٩٨٠ اصدار بعض هذه الكتب الستة فى سلسلة « دراسات
قومية » تحت عنوان جديد هو « الرباعية الكبرى فى تاريخ مصر
القومية » لعبد الرحمن الرافعى • وقد جاءت الطبعة الجديدة
على النحو التالى :

١ - مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية - ٣٢٦ صفحة من
القطع المتوسط - الذى حمل فى الطبعة السابقة اسم « من عهد
الحكم العثمانى المملوكى الى ثورة الشعب على الوالى التركى
سنة ١٨٠٥ » •

٢ - مصر والثورة العرابية - ٢٣٢ صفحة من القطع
المتوسط - وحمل قبلا عنوان « الثورة العرابية والاحتلال
واخلاء السودان » •

٣ - مصر البعث الوطنى - ١٧٦ صفحة من القطع
المتوسط - وهو بذاته « التراجع والانتكاس فى السنوات العشر
الأولى للاحتلال ومراحل البعث الوطنى الى نهاية ثورة ١٩١٩ » •

٤ - مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يولية ١٩٥٢ - ٢٠٨
صفحة من القطع المتوسط - وسبق أن حمل عنوان « من نهاية
ثورة سنة ١٩١٩ الى بداية ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ » •

المراجع

- ١ - اسماعيل صدقي : مذكراتي ط ١ ص ١١٩ .
- ٢ - عبد الرحمن الرافعي : مذكراتي ط ١ ص ٧١ .
- ٣ - محمد فريد : مذكراتي بعد الهجرة (١٩٠٤ - ١٩١٩) ط ١ ص ٥٧ .
- ٤ - احمد شفيق : مذكراتي في نصف قرن ج ٣ ط ١ ص ٣٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ .
- ٥ - محمد صبيح : كفاح شعب مصر ط ٢ ص ١٢ .
- ٦ - عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية ط ١ ص ٥١٧ .
- ٧ - عبد الرحمن الرافعي : احمد عرابي ط ٣ ص ٢١٦ .
- ٨ - دكتور وحيد رافت : فصول من ثورة ٢٣ يوليو ط ١ ص ١٩٠ .

شخصيات فى حوار

كان عبد الرحمن الرافعى واحد من أعلام مؤرخينا الكبار الذين ساهموا بإخلاص فى كتابة تاريخنا فى مختلف العصور •• مشاركا فى المسيرة التى سبقه إليها ابن إياس والمقرئى وابن أبى السرور البكرى وعبد الرحمن الجبرتى وعلى مبارك وأحمد شفيق وغيرهم • وكانت عظمة الرافعى أنه تصدى لهذه المهمة المقدسة فى وقت كان المسرح يخلو تماما من مؤرخ مصرى صميم ! وللتقى فى عدة لقاءات شخصية مع بعض أصحابه ومعاصريه •

مصطفى أمين

يقول الأستاذ مصطفى أمين :

« صلتى قديمة جدا بعبد الرحمن الرافعى منذ كنت طفلا •

نسكن في دمياط فقد كان شريكا لوالدى في مكتبى الحمامة
الذين انشأهما معا في دمياط والمنصورة ! وكانت لافتة كل من
المكتبين ، تحمل الأسمين عبد الرحمن الرافعى ومحمد أمين
يوسف • واستمرت شركتهما حتى عودة أبى الى القاهرة ، ومن
هنا كنت اشاهد الرافعى في بيتنا كثيرا عندما يجىء من المنصورة
ويزور دمياط •

ومما أذكره أن سعد زغلول عرف عبد الرحمن الرافعى
وشقيقه أمين الرافعى الصحفى المشهور ، عن طريق أبى • وكان
والدى متحمسا جدا للأخوين ويؤمن بوطنيتهما ايمانا كبيرا
واجدا فيهما عنصرين ممتازين للعمل مع سعد زغلول • وقد
كان • • ولذلك عندما رشح زعيم ثورة ١٩١٩ نفسه لانتخابات
الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ عن دائرتى السيدة زينب وبولاق
معا ، ساعده الاخوان مساعدة عظيمة وانضم اليهما فى ذلك
شباب الحزب الوطنى نفسه ! ومن الطريف أن والدى كان عضوا
مع الأخوين فى الحزب الوطنى !

وكان بين سعد والأخوين صداقة قوية جدا وأتى حين من
الدهر ، كان لسعد توجيه كبير للكتابات التى يسطرها أمين
الرافعى • وعند تأليف الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ -
لحضور مؤتمر الصلح فى باريس بعد انتهاء الحرب الأولى
للمطالبة بتقرير مصير مصر - رشح أبى الشقيقين عنصرين فى

الوفد • ورحب سعد زغلول بهذا الترشيح ، كما رحب عبد الرحمن الرافعي وشقيقه أمين كل الترحيب بالانضمام ، على أن يحصلوا على موافقة حزبهما • ولكن اللجنة الادارية للحزب الوطنى رفضت ! وأبلغ الاخوان سعدا بهذه النتيجة • وان أبديا استعدادهما للعمل تحت امرته ، وهكذا اختار سعد زغلول أمين الرافعي سكرتيرا للجنة المركزية للوفد كما اختار عبد الرحمن الرافعي عضوا بالمجلس الأعلى للعمليات السرية • وكان كل من الاختيارين بلا شك أعظم وأخطر من عضوية الوفد التى رغب فيها الاخوان •

« ثم حدث خلاف بين سعد زغلول وعبد الرحمن الرافعي الذى يرجع الى أكثر من عامل • أولها تمسك الرافعي بآراء الحزب الوطنى ، ولذلك فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٣ أراد أبى اقناع سعد بترشيح عبد الرحمن كوفدى أو يترك له دائرة مركز المنصورة ، ولكن الزعيم رفض الاقتراحين • ويرشح عبد الرحمن الرافعي نفسه ، ضد على عبد الرازق أحد أغنياء المنصورة ومرشح الوفد ، وبالرغم من ان أبى كان مرشحا عن الوفد فى دائرة كفر صقر الا أنه وجد من واجبه أن يساعد صديقه الرافعي لاعتقاده بأهمية وجوده فى الحياة البرلمانية ، وكان سعد يشور على أبى الوفدى الذى يؤيد مرشحا للحزب الوطنى على حساب مرشح الوفد ! على أية حال

ينجح الرافعى فى هذه الانتخابات بزيادة صوت واحد على منافسه !

« وأحد أسباب الخلاف بين سعد والرافعى أيضا ، كان أحمد عرابى ، لأن رأى عبد الرحمن طبقا لرأى الحزب الوطنى انه .. خائن ! ولما كان سعد زغلول يعتبر نفسه ممثلا للشبان فى الثورة العرابية التى سجن من أجلها ، فقد آلمه أن يتهم زعيمه بالخيانة . ودارت بين الاثنين مناقشات طويلة فى هذا الشأن ، ومن الغريب أن الطبعة الأولى من كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » للرافعى حملت هجوما عنيفا جدا من صاحبه على عرابى ، ولكن الطبعة التى ظهرت قبل وفاته عن « الزعيم الثائر أحمد عرابى » خفف فيها صاحبها هذا الهجوم .

وترجع مهاجمة الرافعى للوفد الى ما أصابه من جرح منه ، فهو أحد رجال ثورة سنة ١٩١٩ ومع ذلك لم يذكر له أحد دوره فيها .. فكان متألما للأمر جدا . وفى جلساتنا الكثيرة شعرت بأحاسيسه . والحقيقة أنه لم يستطع أن يغفر محاربة سعد له فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ - وكان ذلك ردا على ما أثاره الرافعى عضو مجلس نواب ١٩٢٤ من معارضة شديدة ضد حكومة سعد زغلول ، وأها الزعيم اضعافا للقوى الوطنية والاحتلال جائم على البلاد - فسعد زغلول كان يرى

بوصفه قائدا للثورة أن الثورة لا تحتل الخلافات بين صفوفها وعلى الجميع أن يمشوا صفا واحدا حتى تحصل البلاد على الاستقلال .. ان الخلاف هنا بين عبد الرحمن وسعد هو خلاف بين رجل يريد أن يستقل رأيه ، وزعيم ثورة يجد انها تفرض على كل من فيها أن يترك رأيه الشخصي ويحترم رأى الأغلبية .

« وبالمصادفة اكتشفت ان سعد زغلول كان محتفظا بين أوراقه بتلغراف واحد - وهذه ليست عادته - من عبد الرحمن الرافعى أرسله اليه أثناء وجود الزعيم فى جبل طارق أو بعد الافراج عنه يقول فيه « أنا منضوى تحت لواءك وأنا معك والى أوؤيدك » ولست أدري ما هو قصد سعد فى الاحتفاظ بهذا التلغراف الوحيد .

ويختتم مصطفى أمين حديثه قائلا .. ولى رأى فى عبد الرحمن الرافعى كمؤرخ ، انه لم يكن كذلك بل كان رجل حزب وطنى يكتب التاريخ برأيه الحزبى كما انه اعتمد على الصحف ولم يعتمد على ما يعرفه هو . وفقد بذلك دلالة الكثير من الأحداث الهامة التى لم تنشر أما لأن الرقيب شطبها أو لأن الصحفى نفسه لم يجرؤ على نشرها . وهكذا لم يأت تاريخه محايدا أو دقيقا كما يجب مع أن الرافعى رجل مخلص ومؤمن .

« ولما كان عبد الرحمن الرافعى ليس رجلا سياسيا ،
فهو لم يقو على كتمان عواطفه أبدا كان يقول ما يؤمن به عندما
كان يغضب يزيد احمرار وجهه وهو أحمر من الأصل •

« وأصدقاءه جميعهم من رجال الحزب الوطنى وكذلك
الشعراء • وكان يكره مكرم عبيد وينتقد الوفد طالما أن مكرم
بالحزب ! ولما خرج منه أصبح يعطف على الوفد ولا أعرف
السبب !

فكرى أباطة

حدثنى الأستاذ فكرى أباطة قائلا :

« ذكرياتى عن الرجل العظيم عبد الرحمن الرافعى ذكريات
طويلة ألخصها بقدر فيه عناء ، تخرجت من مدرسة الحقوق
سنة ١٩١٧ ، وكنت أعرف عنه انه من رجال الحزب الوطنى
الكبار وعاصر مصطفى كامل ومحمد فريد وتحمل مسئوليات
كبيرة فى الحزب • • فأحبته • وعندما دخلت اللجنة الادارية
للحزب سنة ١٩٢٣ وجدته الرجل الثالث بعد حافظ رمضان
رئيس الحزب ومحمد زكى على سكرتير الحزب • وكنت معجبا
به كمحام حيث ابتداء عمله فى الزقازيق والمنصورة وكان من
كبار المحامين بهما • كما كان شخصية لامعة فى المحاكم الأهلية
والمختلطة ، وعرف بصوته الهادى ذى الرنين الجميل ، وانه

في غاية الدقة والأمانة في سرد الوقائع وفي الاستناد الى الكتب
الفقهية الفرنسية وغيرها • وما من قضية وطنية كبيرة تنظرها
المحاكم الا ونجده مرافعا فيها ، وعندما اختلفنا في الحزب حول
فكرة دخول حافظ رمضان الوزارة سنة ١٩٣٧ وانقسمنا فريقين،
انضمت الى معسكر الرافعي •

« وحدث ان قتل أحمد ماهر - رئيس الوزراء في
سنة ١٩٤٥ - عقب استجواب تكلمت فيه في مجلس النواب
ضد الحكومة عندما كان في طريقه الى مجلس الشيوخ • وظهر
أن قاتله هو محمود العيسوي المحامي بمكتب الرافعي • وقد
حدث أمرا مستغربا أثناء انعقاد لجنة ادارة الحزب صباح ذات
اليوم برئاسة عبد الرحمن الرافعي ، وهو دخول العيسوي علينا
وهو في غاية التهيج ودهشنا كل الدهشة حين تكلم في موضوع
كيف تدخل مصر الحرب مع الحلفاء فأفهمناه ان هذا الرأي
يبيده أحمد ماهر وهو رأى له أنصار وله منطق ولم نفهم أبدا
أو تتصور أو تتنبأ بأنه سيرتكب جريمته في الطريق الفرعوني
بين مجلس النواب والشيوخ ! وبعد ذلك ساء موقفنا جدا
كأفراد حزب وطني بالنسبة لأن هذا الشاب كان منتسبا لمكتب
الرافعي بالذات ، بالرغم من انه لم تتسرب أية فكرة بأن الحزب
ضالع في هذه المسألة الخطيرة •

« وقد استطاع عبد الرحمن أن يحرر ويبحث ويصدر

سلسلة مجلداته القومية للتاريخ المصرى من زمن بعيد من أيام
الفراعنة الى الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وكان مدهشا ، ولكن
الأدهش من هذا انك لا تجده يسطر رأيه ، ونجده يشير الى
المراجع الانجليزية والألمانية المترجمة فكانت وثائق مستندات
لا يصل اليها الشك ، وهذه قدرة عجيبة جدا وجهد بشرى لم
أشهد له مثيل • وقد كانت لى مع الرافعى معاملات شخصية ،
فهو رجل أمين وصديق للجميع » •

محمد ابراهيم جمعة

ويتحدث محمد ابراهيم جمعة عن ذكرياته مع الرافعى قرابة
الثلاثين عاما ، منذ عرفه بالمنصورة حتى وفاته • ويقول :
« ان أهم شىء فى حياة الرافعى هما الاستقامة وتنظيم الوقت ،
فهو يقرأ القرآن قبل الفجر وعقب الصلاة يبدأ فى كتاباته حتى
تبزغ الشمس • وفى الساعة يتناول افطاره ثم يذهب الى مكتبه
سيرا على الأقدام من الدقى لشارع عدلى ، ثم يذهب الى المحاكم
وان لم يكن لديه مرافعات نجده يطالع الصحف والمجلات
ويحتفظ بها للاستفادة بها فى كتاباته ولا يجلد كتابا قبل قراءته •
وبعد ذلك يعد مذكرات قضاياه • وفى الحادية عشر ظهرا يطوف
فى الأماكن المجاورة لمكتبه ويلتقى بأصدقائه فى قهوة سنفكس
ويتناول بها القهوة أو الكوكاكولا • وبعدها يعود لمكتبه ،
ولا يبرحه الا فى الثانية الى منزله • وعقب تناول غذائه ينام حتى

الخامسة ويصحو للمطالعة • وكان يجيد من اللغات الفرنسية ويهبط مكتبه بسيارته ويعود لمنزله قبل العاشرة حيث لا يسهر بعدها » •

« وقد سهل له أصدقاؤه بدار الكتب بالقاهرة امداده بكافة المراجع ولا سيما في الفترة التي كان فيها منصور فهمي رئيسا للدار • وكان محمود العمري رئيس قسم الترجمة بدار الكتب ، زميل الأديب الكبير والمترجم الشهير محمد السباعي في مكتب واحد للترجمة وقد ترجما لعبد الرحمن كل ما طلبه في ذلك الحين من الانجليزية للعربية • وبالرغم من اصابة الرافعي بالشلل يده اليسرى الا أنه لم ينقطع عن الهبوط الى مكتبه بالدور الأول بثقلته بمساعدة ابنته الكبرى الاطلاع والكتابة وقد كان يشكو في الفترة الأخيرة من برودة الليل •

أما كيف يقضى الرافعي أوقات فراغه : « ففي أيام الجمع والعطلات كان يقضيها في عدة أماكن ، اما أن يصطحبني مع محمود سويلم العمري ونذهب صباحا بالقطار الى حلوان ونلتقي بأصدقائه في الحديقة اليابانية أو نزور صديقه شمس حيث يلعب الطاولة ونعود بعد صلاة الجمعة • وفي الأيام الأخرى كنت أذهب معه صباحا الى قهوة تريومف بمصر الجديدة • ولم يقتصر برنامج الرافعي في فراغه على الزيارات بل كان يتصل

بى تليفونيا لنشاهد بعض الأفلام التاريخية فى سينما ريثولى
أو مترو بعد أن يكون قد حجزلنا سويًا •

« وكان عبد الرحمن مصطفى أبان عمله بالمنصورة بمصيف
رأس البر وكنت ألقاه عندما أكون بالمعسكرات المقامة هناك ،
فى الساعة الحادية عشرة صباحا ونسير طويلا على الشاطئ ،
وعندما انتقل مع أسرته للقاهرة سنة ١٩٣٢ اتخذ من الاسكندرية
مصيفا جديدا وكان يستضيفنى أسبوعا قبل أن تصل عائلته
وعقب افطارنا نزل للشاطئ وبعد سيرنا الطويل يعكف على
قهوة بترو ليلتقى بأصدقائه مصطفى فهمى وتوفيق الحكيم
ومحمود الدسوقي وآخرين •

ويختتم محمد جمعة حديثه بقوله : ان الرافعى كثيرا ما كان
يتساءل هل سيأتى من يكتب عنى ؟ !! » •

الدكتور مصطفى الحناوى

ويقول الدكتور مصطفى الحناوى المحامى ورجل الأعمال :

« كنت طالبا بكلية الحقوق ، عندما التقيت بعبد الرحمن
الرافعى بمكتب داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام وقد
سعت اليه لنشر مقالة عن مصطفى كامل فى ذكرى مرور ربع قرن
على وفاته • ومن يومها بدأت صداقتنا • وعقب تخرجى

سنة ١٩٣٩ عملت بمكتبه محاميا تحت التمرين لمدة عام ، كنت أباشر خلالها قضايا بنك التسليف وكنت عقب اعدادى لمذكراتى أعرضها عليه لمراجعتها ثم أدفعها لكتابتها على الآلة الكاتبة .

« وقد زاملنى بمكتبه مجموعة كبيرة من المحامين تحت التمرين منهم مصطفى المنزلاوى وزهير جرانة وآخرين ، وكان الرافعى يباشر قضاياہ بنفسه ويعد مذكراتها دون الاستعانة بأحد . وعندما افتتحت مكتبا مستقلا كنت أطلب منه الاشتراك معى فى القضايا ، وكان شديد الايمان بالله » .

الدكتور عبد العزيز الشناوى

ويقول الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى أستاذ ورئيس قسم التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الدراسات الاسلامية بجامعة الأزهر فرع البنات بالقاهرة :

« لقد ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الصغائر وارتخ لمصر الحديثة وكتب كثيرا وكتبه معروفه فى كل أنحاء العالم العربى، وهاجم كل الأحزاب وعلى رأسها الوفد ، واشاد بالحزب الوطنى ووظيفته كمؤرخ تلزمه أن يكون محايدا ، وقد عارض الملك فؤاد والملك فاروق وكتاباتہ قبل الثورة كانت صريحة مهاجمة . أما كتاباته بعد الثورة فكانت مستكينة وممالة . لأنه فى كتابته عن الثورة غير منهجه القديم وليته لم ينشرها . وهو لا يعد

مؤرخا ، لأنه اعتمد على سرد الحوادث أو نقل الأحداث ويمكن
ان نعتبره فقط جامع أحداث .. ويأخذ عليه عداؤه للوفد
بلا مبرر » •

مصطفى المنزلاوى

وأسأل مصطفى المنزلاوى المحامى عما اذا كانت مرافعته
فى قضية الحزب الوطنى الجديد التى رفعها عبد الرحمن الرافعى
ضد فتحى رضوان قد أثرت فى علاقتهما الشخصية ؟
اجاب : « بعد أن حلت الثورة الأحزاب سنة ١٩٥٣ وبعد
فترة لا تزيد على سنة ، رأيت أنه من الواجب أن أزور
أستاذى فذهبت اليه مع صديقى محمد ابراهيم جمعة • وقلت
له أن القضية أمرها قد انتهى وهذا اختلاف فى وجهات النظر
وأنا أكن لك كل تقدير واحترام ولا أنسى الأيام الجميلة التى
قضيتها فى مكتبك حيث تعلمت من المحاماة الشئ الكثير على
يديك •

« وعبد الرحمن الرافعى شأنه شأن غيره من السياسيين ، ترك
السياسة بعد قرار ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ بحل الأحزاب • ولكن لم
يفته هو وئملأؤه أن يكتبوا بيانا يعارضون فيه اتفاقية السودان
الموقعة فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ التى جعلت للسودان حق تقرير
المصير اما الاستقلال واما الوحدة مع مصر • وكان رأيهم انه

لا يجوز أن يقرر السودان مصيره لأن شأنه شأن محافظة أسينريـ
ومحافظة الغربية • فهل يجوز أن نقول لمحافظة أسيوط قررى
حق الانفصال أو الوحدة ، فاعترضوا فى البيان على الاتفاقية
لأثباتها من الناحية التاريخية ، ولما كان عدد من أعضاء
الحزب الوطنى الجديد بالوزارة فلم يسمح بإصدار هذا
البيان • وان كنت أنا ضد هذه الاتفاقية •

« وكنا اذا التقينا عادة ، فحديثنا فى مسائل تاريخية
أو اجتماعية ، وكان الحديث عن الحالة السياسية اليومية هو أقل
الحديث ! لأن النفوس أصبحت وقتها فى ضيق ولا نجد ما نقوله
لأن النشر فى الصحف محجوب كما منع عقد الاجتماعات
السياسية » •

حلمى شاهين

والقضية التى يرويها حلمى شاهين تعكس ما كان يحمل
مؤرخنا الكبير من مبادئ • يقول : « كان عبد الرحمن الرافعى
يتولى قضايا البرنس محمد على توفيق ولى العهد ، وقد وزع
الأخير يوما على جميع موظفيه قطع أرض بسيدى بشر
بالاسكندرية وخصص لعبد الرحمن قطعة وقدم من حمل العقد
للرافعى لتوقيعه وفرحت لأنه سيكون لنا قطعة أرض بالاسكندرية
تقيم عليها عشة وشروط البيع دفع خمسين جنيها مقدما وبقيـة

الثنى سيصدر به فرمانا باعفاء الجميع من السداد • ولكن
الرافعى رفض التوقيع وكان الثانى بعد سعيد لطفى السكرتير
الخاص للأمير ، وعندما سألته عن سبب رفضه قال : « ازاي
يا أستاذ تقبل حاجة زى كده تأخذ أرض علشان يقولون الناس ان
عبد الرحمن الرافعى اللى بيهاجم أسرة محمد على الحاكمة ،
يأخذ من حفيدها أرض شبه هدية ! » •

فى مرآة معاصريه

حظ المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى دراسة أعماله وتكريم ذكره ، حظ الكثير من نابغينا •• التجاهل ان لم يكن الجهل أيضا بنواحي عظمتهم • وهكذا بينما توفر المؤرخ الكبير لأكثر من خمسين سنة على كتابة تاريخ مصر القومى ، حتى بلغت مؤلفاته اثلاثة وعشرين كتابا تتناول الفترة من العصر الفرعونى الى السنوات السبع الأولى من ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ •• لم يحظ الرجل العظيم بكتاب واحد يعرض لشخصيته العصامية ومنهجه وأسلوبه وما قدم من عشرات الآلاف من الصفحات • ويكون كل الذى كتب عنه مقالات متفرقة ، أغلبها سريع لا يتعمق حياة وتاريخ عبد الرحمن الرافعى • وفى السطور التالية بعض ما قيل عن الرافعى عند وفاته • يقول محمد زكى عبد القادر :

« كثيرا ما تساءلت ماذا كان يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى ، ولم تكن كتبه التى سجلت هذه الحقيقة بأمانة وافاضة وشمول ؟ وصحيح انه - رحمه الله - جرى على تسجيل الوقائع المادية وقصرها على الجانب السياسى دون أن تشمل دراسته النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يعمد الى التحليل الا فى مواضيع قليلة ، ووسم تحليله فى بعض الأحيان بميوله وأحكامه الشخصية ، فانه مع ذلك قام بعمل وطنى جليل ، وقام بخدمة كبرى للتاريخ عامة ولتاريخ وطنه خاصة . »

واقترناه هذا العمل دأبا وبحثا ووقتا وموازنة واستخلاصا للحقائق .. وليس أشق من مهمة المؤرخ يسجل حوادث عاشها وكان طرفا فيها ، وغبار المعارك والمواقع أمام عينيه ، الا أن المرحوم عبد الرحمن الرافعى استطاع وسط هذه الظروف جميعا أن يقدم كتباً جديرة بالاحترام وسردا للحوادث يشعر القارئ له بأمانة الكاتب وحرصه الشديد على تحرى الحق ، جهد ما يستطيع انسان أن يفعل . »

« لقد تساءلت فى أول هذه الكلمة ماذا يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى ؟ واجيب هنا انه كفاه فخرا ان لم شتاته وجمع أطرافه وصاغه فى كتب تعطى من يأتون بعده من المؤرخين مادة صالحة جدا لدراسة أعم وأشمل ،

فله فضل الرائد الذى مهد الطريق وفتت الصخر واضاء الكثير من الظلمات ، وتحمل العنت والاضطهاد وهو بعض الثمن الذى يدفعه المؤرخ الصادق ، حينما يكتب عن جيل عاشه ♦

« ولقد أفدت من كتب عبد الرحمن الرافعى ، كما أفاد غيرى منها وكما يفيد كل جيل قادم ، فله فى أعناقنا جميعا فضل لا يقدر ومكانة من الاحترام عالية ♦ أجزل الله ثوابه وعزى فى فقدہ الوطن وأجياله » ♦

(الاخبار - ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب الدكتور حسين فوزى : « عاش الأستاذ الرافعى حياة خصبة منتجة ، حافلة بالنضال الوطنى والذهنى فأسهم فى الحياة السياسية بدور مشرق ، كما كتب موسوعته التاريخية الكبرى فى ستة عشر جزءا ، فكانت المرجع الأول لدراسة تاريخنا الحديث ، ونقطة الانطلاق لدراسات المتخصصين والباحثين ♦

« كان للأستاذ الرافعى منهجه فى دراسة التاريخ ، وهو منهج يقوم جمع التفصيلات والاهتمام بالنواحي الفكرية والاجتماعية الى جانب الاهتمام بالأحداث ، والتعليق على الأشخاص والمواقف من وجهة نظر منصفة سديدة » ♦

(الأهرام - ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول الدكتور حسين فوزى النجار : « احياء المآثر التاريخية من تاريخ الوطن ، أو ما يثير الطموح فى الأمة المصرية من تاريخ الأهم الأخرى ، كان بعض ما قامت به مدرسة مصطفى كامل لاثاره الوعى القومى فى الأمة ، وآمن الرافعى بهذا الاتجاه . »

« أقدم عبد الرحمن الرافعى على ما لم يقدم عليه المؤرخون المدرسيون ممن احترفوا تدريس التاريخ فى الجامعة وفى غير الجامعة ، فحين قصرت جهود هؤلاء على المحاضرات الجامعية حمل وحده الجهد . »

« وقد نجد الرافعى متأثرا الى حد ما بالنظرة الاخلاقية للتاريخ ، وهى النظرة التى سادت فى القرن التاسع عشر ممثلة للقيم الاخلاقية للمذهب الفردى ، الا أن الرافعى لا يتصدى للتاريخ كفيصل بين القيم الاخلاقية بل يتخذة أحيانا منبرا للوعد والارشاد » .

(الفكر المعاصر - ١ فبراير ١٩٦٧)

ويقول أحمد بهاء الدين :

« عاش الرافعى فترة حافلة وفاصلة فى حياة مصر ، وشهد تحولا هائلا فى تاريخها ، فقد ولد بعد الاحتلال الانجليزى لمصر بقليل . وشب على مشاهد خيانة الحكم الملكى وبطائه بعد

هزيمة الثورة العراقية • ثم عاش وسجل انتفاضات مصطفى كامل
ومحمد فريد ، كما عاش وسجل ثورتين : ثورة ١٩١٩ التي خاض
أحداثها وساهم فيها ، ثم ثورة ١٩٥٢ التي سجل أحداثها وإن
كان قد تقدمت به السن وعزلته عن مجرى الأحداث •

« لقد اشتغل المرحوم الرافعي بالحزبية والمحاماة • والثورة
والوزارة • وقد عرف السجن والانتخابات والنجاح والفشل •
ولكنه سوف يذكر في التاريخ بشيء واحد عظيم هو هذه
الأجزاء الستة عشر لكتاب « تاريخ الحركة القومية » •

« كذلك لم تكن مهمة عبد الرحمن الرافعي سهلة • كانت
هناك صحف ، وتعليم وحياة أكثر تحضرا ، وكان كتابه أقرب الى
مناهج كتابة التاريخ العصرية ، ومع ذلك فقد واجه في تأليفه
صعوبات هائلة • • خمس سنوات من هذا الجهد الهائل ،
حتى استطاع أن يكتب لنا جزءين من الستة عشر جزءا عن
ثورة ١٩١٩ هكذا ، كان عبد الرحمن الرافعي يعمل ، بجهد
مؤسسة نشر كاملة ، لكي يدون لنا تاريخه العظيم •

« ولا أعرف بالضبط ماذا يا ترى يكون وقع كتاب مثل
كتاب الرافعي على شاب عمره خمس عشرة سنة مثلا يقرأه
لأول مرة اليوم • قد يستطيع أن ينظر الى الكتاب نظرة ناقدة ،
لأنه قد يرى فيه أشياء كثيرة عادية • ولكن هذا لم يكن

شعوري وشعور غيري عندما كنا في سن الخامسة عشرة ، قبل
٢٣ يوليو ١٩٥٢ •

« كثيرا ما كان كتاب الرافعي هذا واحة في صحراء النفاق
الهائلة التي كانت سائدة • فهو الوثيقة الوحيدة المتكاملة التي
كانت لدينا ، تدين الملكية بالخيانة والتبعية للانجليز ، وتحمي
ثقتنا بأنفسنا وبشعبنا وبقدرته على المقاومة والانتصار •

« فالأجزاء التي كتبها في سنوات الشباب « اسخن » من
الأجزاء التي كتبها في سنوات الشيخوخة » •

« ولا أريد أن افتعل وجود شبه بين الرافعي والجبرتي ••
ولكن الرافعي ، بعد مائة وخمسين سنة من الجبرتي ، كان مثله
لا يأخذ بفلسفة معينة أو مدرسة معينة في كتابة التاريخ • وهو
مثله في أنه يؤرخ للوطنية المصرية دون نظر لأي تحليل اجتماعي •
وهو مثله في أنه لم يعط أثر الطقس العالمي والأحداث العالمية
على الأحداث المحلية نصيبها الحقيقي • وقد انتهى من كتبه
إلى عبرة عن علة البلاد ، هي في الواقع أمر شخصي غير
موضوعي •• اذ لخص الداء في انعدام ما سماه « بالاستقامة
السياسية » بين رجال الحكم والسياسة في مصر •• قال هذا
وركز عليه وهو يحلل التفسخ العام في سنوات ما قبل الثورة
مباشرة ، واضعا في المؤخرة ما كان يجب أن يوضع في المقدمة

من ظروف موضوعية وتحليل اجتماعي ، هو العلة الحقيقية ،
لا « الاخلاقية الشخصية » التي ركز عليها •

« واذا كان الرافعي رحمه الله قد أخذ بالمنهج الأخلاقي في
تفسير التاريخ ، فقد أخذ بالمنهج الأخلاقي في حياته أيضا • فقد
كان على الدوام ، وسط تيارات السياسة المحملة بشتى أنواع
العشب السام ، جزيرة من الصفاء والنقاء والأمانة • مؤمنا في
قرارة نفسه بأن شيئا واحدا يجب أن يتم قبل أن يمكن عمل
أى شيء وهو : الجلاء •• جلاء الانجليز ••

« ولا أعرف اذا كان عبد الرحمن الرافعي قد ترك أوراقا
خاصة ، ومسودات ، غير ما استخلصه وسجله في كتبه المنشورة
أم لا • ولكنني أعتقد أن كل ما كتبه الرافعي ولم ينشره لابد أن
يكون محل دراسة • فحتى الوقائع اليومية البسيطة يمكن أن
تكون مادة لفهم الجو الاجتماعي والعقلي والنفسي العام في الحقبة
التي اكتفى بأن يؤرخ لها سياسيا •

« وقد كتب الرافعي منذ سنوات ، معبرا عن شعور دفين
بالأسى وعدم عرفان من الناس بفضلته ، ولكن نفسه رضية حين
كرمه الدولة بجائزتها التقديرية منذ سنوات • ورضيت نفسه
رضاء أكبر حين رأى أحلام الجلاء والاستقلال الوطني تتحقق
بعد أن ظل يكتب من أجلها ما يقرب من نصف قرن •
(المصور - ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب أنيس منصور :

« رأيت عبد الرحمن الرافعي لأول مرة في حياتي في الصيف الماضي • ذهبت وفي نيتي أن اترافع أمامه عن قضية : وهي أن يظهر في التلفزيون رغم مرضه • لكي يراه الناس في صورة حية واضحة • وقد أعفاني المحامي المؤرخ عبد الرحمن الرافعي من المرافعة • لأنه موافق • أما أقاربه فقد اعترضوا خوفا على صحته • ثم اقنعوا وظهر في التلفزيون • وقد ظن الكثيرون انه مريض جدا ، وانه عاجز عن الكلام • وخيل الى بعض الناس أنه كان قد مات •

« وجلست الى عبد الرحمن الرافعي ساعات طويلة أتحدث اليه • أما هو فكان يخطب • كلامه كله ما يزال يحتفظ بلمهجة الرجل الذي يخطب أو الذي يفعل أثناء الكلام • ولم يكن واضحا على وجهه شيء مما يقول • قصوته نحيف ووجهه شديد الاحمرار وابتسامته حلوة صافية • وتحس لأول لحظة ان هذا الرجل : هو أبوك أو جدك • أو تربطه بك صلة قوية جدا وتتحول بسرعة الى أحد أقاربه • وتخاف عليه أن ينتقل من هذا المقعد الى السيارة الى التلفزيون وتمنيت أن اراجع عن موقفى واقنعه هو بالعدول عن الذهاب الى التلفزيون • • وان يجيء اليه التلفزيون كما فعل مع العقاد وطه حسين • ولكنه كان أكثر حماسه وأكثر حرصا على أن يذهب وان يتحدث وان يخطب وان

يضحك • فهو رجل عاش طول عمره في زحام الناس وضوضاء التاريخ • وأطال الاستماع في صبر وفهم وعبر في عشرين كتابا هي مراجعنا الأولى في دراسة التاريخ المصري الحديث •

« ففى كتب عبد الرحمن الرافعى قرأنا جميعا تاريخنا • •
وبعينه نظرنا جميعا الى ماضينا القريب •

« وكانت لعبد الرحمن الرافعى طريقة خاصة في كتابة التاريخ • هي طريقته هو • وأسلوبه هو • فهو يعتمد على الوثائق التاريخية في الدرجة الأولى ، ويعتمد على المنهج الاخلاقى في تفسير التاريخ وهو لاشك رجل مثالى • يريد أن يرى كل شىء جميلا صادقا مخلصا • ويضيق بكل ما هو قبيح زائف شائن •

« وفي حياته الخاصة كان رجل اخلاق • وعندما كنت اداعبه واسأله : ما رأيك في الحب ؟ كان يتعجب ويقول : كلام فارغ ! وعندما استطرد في المداعبة واسأله : وكيف تزوجت ؟ كان يرد بقسوة أب على تلميذ شقى فيقول : مش ضرورى حب • يكفى أن تكون الزوجة واعية ووطنية •

« وهو ولاشك يختلف في أسلوبه عن زميله المؤرخ الكبير توينبى الذى ولد معه في نفس السنة • فتوينبى يرى أن الدين أو الايمان بشىء قوى هو الأساس الحقيقى لكل حركات التاريخ المتدفقة والمتردة والمضادة •

« وعندما قابلت عبد الرحمن الرافعى وجدته يقول نفس العبارة التى قالها لى الأديب سومرست موم : لم يعد عندى شىء : قلت كل ما أستطيع • والبركة فيكم أتم ! »

« لقد عرف عبد الرحمن الرافعى متى يتوقف عن الكلام • والذى قاله لنا قبل ذلك كان كثيرا ومشرقا وصادقا •• يرحمه الله » •

(الأخبار - ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى :

« فقدت مصر أحد أعلام الوطنية وأحد التلاميذ المخلصين للزعيمين الكبيرين مصطفى كامل ومحمد فريد • عنهما أشرب حب مصر والتفانى فى سبيل استقلالها ورفعتها ، وعنهما تلقن أهمية التاريخ بالنسبة الى الحركات الوطنية والقومية ، ومنهما استمد وحيه والهامة ، ولذكراهما ظل وفيا حتى آخر انسام حياته : هذا الحب الكبير لمصر ، وهذا الوفاء لذكرى أستاذه وزعيميه ، هما اللذان ألهما عبد الرحمن الرافعى وزوداه بالطاقة الدافعة التى مكنته من تغطية تاريخ مصر الحديث وكذلك تاريخها المعاصر من زاوية نضالها فى سبيل الحرية والاستقلال والتقدم •

« فقد جعل شغله الشاغل أن يدرس تطور الشعب ونمو الحركة القومية ، مع الاهتمام بنواحي التاريخ السياسى

والاقتصادى والاجتماعى ، وهو يمثل مدرسة التاريخ الوطنى المصرى التى نمت فى ابان الكفاح للحصول على الاستقلال ، وهى المدرسة التى جمعت بين النضال السياسى وبين الاهتمام بالدراسات المتصلة بالكفاح الوطنى ، فالقانون الدولى والتاريخ والاقتصاد - وغير ذلك - خاصة وان كثيرين ممن كتبوا التاريخ فى هذه الفترة قد تخرجوا فى مدرسة الحقوق الخديوية .

« ولما كان الرافعى من تلامذة الحركة الوطنية التى ركزت اهتمامها فى الحصول على الاستقلال ، فانه برغم عنايته بالنواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، الا انه لا ينتمى الى المدرسة الاجتماعية فى تفسير التاريخ التى لم تعرفها مصر الا بعد أن انفتحت معالم التناقضات الاجتماعية التى كادت تفتت الحركة الوطنية من أعلى لولا يقظة الشعب .

« ومما يدل على شدته فى الاستقلال بالرأى انه لم يشأ أن يلجأ الى السراى فى جمع المادة الأولية عن عصر اسماعيل - فقد رأى انه اذا أحكم الصلة بينه وبين هذه الجهات وأكثر من التردد على مكتبة القصر الملكى ، صعب عليه أن يكتب عن عصر اسماعيل كتابة نزيهة ، ولكن هذا الاتجاه منه انما هو من قبيل التزمّت العلمى - اذ لا ضير فى أن يجمع المؤلف مادته من شتى المصادر ما دام يزعم فى نهاية الأمر أن يكتب بما يرضى ضميره العلمى . واتجاه الرافعى هذا هو الذى يفسر عدم اعتماده

على الوثائق غير المطبوعة ، خاصة وانه أقنع نفسه بأن الوثائق الجديدة لا يمكن أن تغير من الخطوط الرئيسية للتاريخ • وهذا بطبيعة الحال يتضمن اسرافا في حسن الظن بالمادة التاريخية المطبوعة التي قد لا تخلو من الميول والاغراض الخاصة ، حتى وان كانت وثائق منشورة •

« ورغم أن منهج الرافعي يتصف بالأمانة والصدق والصراحة في الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته — وهي كلها أركان لا غنى عنها بالنسبة الى البحث التاريخي العلمي — إلا أن تاريخه يتصف بالاستطراد وعدم الترابط وان يكن من ناحية أخرى من القليلين الذين حاولوا تسجيل تاريخ الشعب المصري واطراد نموه وتقدمه على تعاقب السنين والأجيال •

« اذ ان المؤلفات الأخرى التي عاصرت موسوعته كانت تهتم اهتماما كبيرا بالحكام والانتقابات السياسية والوزارية ، والشخصيات الكبرى التي عرفها التاريخ المصري الحديث • وهو يهتم بالشخصيات البارزة التي كثيرا ما توجه سير الأحداث ، بادئا بالفرد الصالح والقلة الموجهة ، لهذا نجده يهتم اهتماما خاصا بالمقومات الاخلاقية باعتبارها الأساس والمنبع •

« ولهذا فانتا حين ننعي عبد الرحمن الرافعي ، ونسجل أهميته البالغة بالنسبة الى تاريخ مصر الحديث ، نسجل في نفس

الوقت حاجتنا الى مدرسة جديدة تعيد كتابة تاريخ مصر الحديث.
على أساس الفهم الواعى لتطور البلاد الاقصادى والاجتماعى.
الذى بدوننه لا يمكن فهم أحوالها السياسية أو الثقافية • فتاريخنا
ليس سجلا للبطولات الفردية ، وان كان زاخرا بالبطولات التى
ارتبطت ارتباطا عضويا بتطور البلاد » •

(مجلة الهلال اول يناير ١٩٦٧)

ويقول : فتحى خليل :

« هو أقرب الناس الى شاعر الربابة •• أما سيرته التى
رواها فكانت حركتنا القومية •• كل مؤرخ يقول عادة انه سيروى
التاريخ بروح محايدة وموضوعية وذلك بالطبع أمر مستحيل ••
ورواية تاريخنا القومى لم تخرج عن هذه القاعدة ، أعلن عن
نيته فى رواية موضوعية محايدة - وخرج كما هى العادة -
عن المنهج الذى تمناه •

« كان عبد الرحمن الرافعى رجلا حزبيا ، وقد تركت
الحزبية بصماتها على صورة السيرة التى رواها ، فقد كان
شخصية مرموقة فى الحزب الوطنى وظل على رأس فرقة منه حتى
صدر قرار الثورة بحل الأحزاب • وقد كتب كتابه عن الثورة
العراية تحت تأثير نظرية الحزب القديمة عن الثورة باعتبارها
مأساة تسبب فى وقوعها رجل مغرور ، عسكرى ليس من رجل
السياسة •

« وقد روى الرافعي ملحمة الثورة العراقية وهو يتمنى في كل فصل من فصولها لو كان على رأس الأحداث رجل آخر ، بل لقد بحث الرافعي فعلا عن بديل لعرابي ووجدته ، شريف باشا ، وتصور أن التاريخ كان يمكن أن يغير مجراه لو تغير الرجال . »

« كذلك تبنى الرافعي رأى حزبه في الحكم على ثورة ١٩١٩ ، ويمكن أن نعتبر روايته عن الثورة وأعقابها نقدا حزبيا مريرا للوفد .. ولكنه في الثورتين لم يبخل الشعب حقه ، فروى التضحيات بحرارة وبكى على الشهداء بحزن عميق . »

« ويمكن أن نرى ملامح الحزبية حتى روايته لأحداث السنين السبع لثورة ١٩٥٢ .. هو يعدها تحقيقا لبرنامج الحزب بلا زيادة ولا نقصان ، وحين تجاوزت الثورة أقصى أحلامه الحزبية .. عاد ليؤرخ فترة قديمة عابرة . »

« وعميد رواة سيرتنا القومية ، وطني تقليدي بكل معنى الكلمة .. يتوجس من الأجنبي الا نادرا .. ولا تتعدى أحلامه عن العدل الاجتماعي حدود الملكية الزراعية وتحديد أرباح الرأسماليين دون التعرض لأساس النظام وخاصة النظام الرأسمالي .. وهو يطمح في حياة برلمانية نظيفة لا أغلبية وأقلية وبينهما احترام متبادل ، وفرقة تؤيد بحكمة وأخرى تعارض في شجاعة مهذبة . »

« ولو كان له الخيار في أحداث التاريخ لتمنى أن يكون رواية لا ترد على لسانه واقعة عنف ولا تثن احشاؤه على شهيد ، هو وان كان مؤرخ الثورات الا أنه في أعماقه لا يعشقها ويفضل عليها التدرج والتطور بما هو قائم في جو من المناقشات الشريفة .

« ومن هنا كانت الثورات تفاجئه على غير موعد لأنها لم تكن تراود أحلامه بل تفرض نفسها عليه فيحبها على مضض وهو يرويها ، ويدور على البيوت المجهولة والسجون والدواوين لبحث عن أسماء الشهداء والسجناء ليسجلهم واحدا واحدا في روايته . . وهو يروى عن التضحيات بحزن وعن المنجزات العمرانية بسعادة وفرح طفولي ومن التضحيات والمنجزات ينسج السيرة ويروى في هذين العنصرين مادة الحياة لتاريخنا الوطني .

« وهو صاحب منهج مثالي في روايته . . يتصور دائما ان الأحداث كان يمكن أن تتغير من جذورها لو تغير الرجال . وكان راوية سيرتنا الشعبية شجاعا » .

(روزاليوسف - ١٢ ديسمبر ١٩٦٦)

وينصفه طارق البشرى وهو يقول :

« لعب مؤرخا معاصرا لم يحظ بمثل ما حظى به عبد الرحمن الرافعي من تقدير واهتمام . فالرافعي استطاع بجهد متواصل ودأب نادر أن يقدم للمكتبة العربية دراسة متكاملة لتاريخ

مصر الحديث • بل لعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه قد قدم الدراسة الوحيدة المتكاملة حول هذا الموضوع • ومن هنا يصبح استطلاع النوازع الفكرية والسياسية للرافعى ودراسة منهجه في دراسة التاريخ ضرورة ملحة ، ذلك أن كتاباته تمثل — بالرغم من كل شيء — أحد المحاور الأساسية التي تشكل فكرة المثقف العربى عن تاريخ مصر الحديث •

« واذا كانت أجيال الحاضر المعاش ترى في كتابات الرافعى — رغم الاقتناع بنزعة الوطنية والتقدير البالغ لهذه النزعة في جميع ما كتب — ترى فيها قدرا من « التبسيط » للمشاكل والتيارات ، ونظرة « محدودة الجوانب » في تحليل الأحداث التاريخية • فان هذه الأوصاف لا تلحق فكر الرافعى وحده ، ولكنها تشير أيضا الى اختلاف الصياغة السياسية لعقلية الأجيال الحاضرة على اختلاف تياراتها ، من الصياغة المماثلة لجيل هذا المؤرخ الكبير ، وذلك نتيجة اختلاف المشاكل وتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية • فاذا كان الفكر السياسى للرافعى ما يزال مقروءا الآن ، فبتلك ميزة امتاز بها الرجل لتأليفه التاريخية ، ولكن هذه الميزة أردفت في ركاياها شيئا من سوء الحظ ، اذ نظر جمهور الحاضر الى فكره كعنصر في الحياة السياسية المعيشة لا كفكر ينتمى الى الجيل السابق ، وتطرف كثيرون فقيموه بنمىزان الحاضر قطعت كفة الرجل ظلما •

« وأن من أفضل ما تثبته مدرسة التاريخ المصرى للرافعى المؤرخ ، ان مجموعته التاريخية تكاد تكون أجمع مجموعة صدرت فى عصره والى الآن تغطى حقبة التاريخ المصرى الحديث كاملة .. كما تثبت ما قدر للرافعى من أن يضع نقطة البداية للحركة الوطنية فى العصر الحديث ، وهى المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية التى غزت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . وكان تعيينه لهذه البداية تعيينا علميا ذكيا يشير الى حاسة سياسية تاريخية مرهفة . كما تثبت له انه صاغ تاريخ هذه الفترة على مدى مائة وستين سنة صياغة وطنية تتسم بالأصالة رغم ما يظهر فيها من نواحي القصور » .

(الطليعة - ١ ديسمبر ١٩٧١)

ويقول أحمد صالح :

« وقد عرفت أستاذنا الرافعى من خلال ١٦ جزءا كتبها عن تاريخنا القومى .. ومن خلال لجان كثيرة فى مجلس الفنون لمست أثناءها صلابة رأيه رغم طيبة قلبه .. واصراره فى الحق رغم بساطة حديثه .. لقد عاش الرافعى يبحث فى كتبه عن الحقيقة .. وكان يقول : ان الحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة هى الموت » .

(آخر ساعة - ١٤ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب مخزر فى « صباح الخير » عن ذكرى لقاء قديم

بالرافعى ، قائلاً قلت له لك طول العمر ، قال الرافعى صدقنى يا ابنى ، ان المؤرخ لا يخاف الموت ، بل ان الانسان ذا الرسالة والهدف السامى يرحب بالموت ، ان الموت هو الحقيقة الوحيدة فى هذه الحياة .. وأنا عشت عمرى .. لقد كنت من جيل كان يلهو ويبكي ! دعنى أقول لك ، يوم أموت ، أكتب عنى ، خذ كتبى الآن ، واقرأها .. وتأملها واستوعبها . طالع يابنى تاريخ ملوك .. قف عند كل حادثة .. استنبط منها شيئاً . ما يعز على أن أبناء بلدى الشباب ، هؤلاء الذين فى عمرك .. لا يعرفون عن تاريخهم سوى اليسير ! هذه القطرات التى شربتها بمرارة من مدرس التاريخ . آه من مدرس التاريخ ! أرجوك لا تكتب هذا الكلام لا أريد أن أغضب أحدا ! بينى وبين القبر سنوات ، لا أريد أن أبدو عنيفا . علمتنى الأيام الاعتدال .. أهو من سمات المؤرخ ؟ لا أدرى . ولكنى أستطيع أن أقول لك أن المؤرخ انسان محايد .. اسجل الأحداث فى حينها حتى لا تفقد نبضها الحى ! ..

قلت للرافعى .. ان حديثى معك حول التاريخ وعمل المؤرخ . قال : التاريخ ؟ مجموعة حوادث وتفاصيل يومية لها أهمية .. وهى فى متناول كل يد . وعمل المؤرخ .. تدوين هذه الحوادث .. أنا شاهد الرؤية أمام التاريخ . ولا بد لشاهد الرؤية ان يكون أميناً ، دقيقاً ، والا كان شاهد زور !!!

قلت للرافعى .. ان حديثك العفوى هنا يغرينى بالتحقيق
الصحفى . قال : صدقنى ، لن تجد عندى جديدا . اقرأ كتبى
تصل الى مرادك .. قلت مرادى ، أن اسجل بعضا من مذكراتك !
قال : مذكراتى أو تاريخى كما تقول : مجموعة خواطر نفسية ،
ليست قصة تشغل بها قراءك !

وأمسكت بقلمى وكانت هذه السطور مدخلى ومرة
السنين ، وفتحت عينى هذا الأسبوع على خبر وفاة عبد الرحمن
الرافعى .. وتذكرت كلماته . فجاءت « حاضره » وأصبح
الرافعى « خيرا » يدونه التاريخ من بعده !

(٨ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول أنيس منصور « والرئيس السادات له رأى فى هذا
المؤرخ انه رجل منصف .. فعلى الرغم من أن له لونا سياسيا
معروفا فانه كان يعرض وجهة نظره الحزبية الخاصة . وفى
نفس الوقت يعرض وجهات النظر الأخرى بمنتهى الأمانة .
ولذلك فعبد الرحمن الرافعى هو رجل معتدل . وهو ينقل
التاريخ والأحداث كما هى . ويعلق عليها برفق .

وأهمية هذا الموقف الفكرى من عبد الرحمن الرافعى ،
انه ليس صاحب فلسفة معينة . هذه الفلسفة تفرض عليه أن
يلوى أحداث التاريخ وأشخاصه ليتفقوا مع وجهة نظره . فكانه

بذلك قائد كبير ، وأحداث التاريخ جنود يرتبهم ويجمعهم
ويصرفهم على هواه • وبذلك يكون التاريخ القوى ، ليس
إلا التاريخ الذى يراه هو وليس تاريخ مصر •

ولكن عبد الرحمن الرافعى يبرأ من هذا العيب المذهبى
الضيق •

وأذكر اننى قدمت المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى برنامج
تلفزيونى وجلست اليه ساعات قبل أن يظهر على الشاشة •
أما الذى بهرنى فى هذا الرجل فهو هذا القدر الهائل من الصفاء
الروحى والمثل الأخلاقية العليا •

ومعنى ذلك أن ما كتبه عبد الرحمن الرافعى لم يقصد
بأن يحكى لنا حكاية وإنما يقدم لنا عبرة وعظة ، من أجل
مجتمع أفضل وأكرم •

(الأهرام ٢٨ أكتوبر ١٩٨١)

كلمات لعبد الرحمن الرافعى

— ان العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ فى النفوس مكانة تلهم صاحبها — الاستقلال — وإشاره الموت على حياة فى استعباد •

— الجمعيات أول مظهر عملى للشعور الوطنى الصحيح وأجل طريقة نخدمه بها وتحميه من العبت والتبدد •

— رأس مال الاحتلال فى قلوبنا ان شئنا استبقيناه وان شئنا نزعناه من بين جوانحننا فلا يعود له مقام بين ظهرائنا •
فصرح الاحتلال قائم على عمادين : حسن الظن به من جهة والوهم من جهة أخرى • فبحسن الظن ترضى الملايين من البشر

بتحكم الأجنبي فيهم فيثبتون سلطانه • وبالوهم يعطون له قوة
لم يكن يحلم بها فيخافون من شيء هم خالقوه •

حقوقى

((تبدد الشعور الوطنى وتجهمه))

اللقاء ٩ مارس ١٩٠٨

— الرسميات فى نفسها لا تؤيد حقا ما لأنها لا تحكم
الواقع ولكن الواقع يحكمها مثلها فى ذلك كمثل القوانين بين
الأفراد اذا لم تلائم الظروف والاخلاق اضطر واضعوها الى
تبديلها أو يهمل تطبيقها بالفعل ، فنحن أمامنا أحد طريقتين
(أولا) أما ان نجارى أولئك اليائسين الذين يمالئون الواقع
فيكسبونه صبغة شرعية لم يكن يحلم بها • (ثانيا) وأما أن
تتمسك بحقوقنا فيجب علينا أن نسرع فى تغيير الواقع حتى يلتئم
معها •

عبد الرحمن الرافعى — متخرج من الحقوق

((آمالنا فى الدستور / ١)) — اللقاء ٤ أكتوبر ١٩٠٨

— ان الوسائل التى يتبعها أى احتلال أجنبى تتبدل بتبدل
حالة الأمة التى يريد اذلالها لأن هناك مبدأ استعماري جعلته
الدول الاستعمارية رائدا لها فى سياستها مع الأمم التى وقعت
فى قبضتها وهو أن القوة المسلحة لا تصلح لأن تكون دعامة
ثابتة لارضاخ الشعوب وان أقوى أساس للحكم الأجنبى
ما يشيد على عيوب الأمة والحكومة •

— فاذا أردنا أن نعرف أين صرح الاحتلال الذى شيدته
فى بلادنا وعلام أقامه فلننظر الى صميم قلوبنا • هناك نرى
رأس ماله الذى عليه يعتمد ومنه يستمد قوته •

((آمالنا فى الدستور/ ٣)) — اللواء ١١ أكتوبر ١٩٠٨

— ان المصائب والآلام خير أستاذ للانسان وخير سائق له
فى طريق الكمال •

— ان حب المال اذا تسلط على فكر الانسان واستحوذ
على وجدانه صرفه عن الآمال الكبيرة وأورثه اخلاقا دنيئة تدعو
اليها ضرورة الاستزادة منه •

((آمالنا فى الدستور/ ٤)) — اللواء ١٧ أكتوبر ١٩٠٨

— ان قلوبنا قد أصبحت علقا لا تحركها صيحات الدعاة
المرشدين والنفوس لا تتحرك الا اذا أحست فما دام الاحساس
ينقصنا فقل على كتابة كتابنا ألف سلام •

— أصبحنا نرى الكاتب يظهر بمظهر الجندى المستبسل
فى خدمة بلاده واذا أطل الانسان على داخل قلبه رآه مأوى
لأسوأ النيات وميدانا لأفظع الجرائم والمنكرات •

((آمالنا فى الدستور/ ٥)) — اللواء ٢١ أكتوبر ١٩٠٨

— ان الطريقة المثلى فى الكلام على عيوب الأمة هى اشعار
الناس بها وحملهم على اتباع طريق عملى للتخلص منها • فعلى

الذين يريدون مداواة عيوب أنفسهم أن يرجعوها الى عيب اخلاقى رئيسى (كضعف العزيمة أو الجبن مثلا) ليسهل عليهم مداواة ذلك العيب الرئيسى • فاذا ما تخلصوا منه رسخ في قلوبهم مبدأ التخلص من عيوبهم فداووها بعد ذلك واحدا بعد واحد •

((رجال الغد)) - اللواء ٢٠ يونية ١٩٠٩

— فلنأخذ بأسباب القوة تقو حجتنا أمام خصومنا ونتل بحقوقنا التى نجاهد فى سبيلها •

((حقوق الشعب)) ص ٦٥ ط ١

— الحكومة التى تغتصب من الأفراد حريتهم وتسلبها منهم حتى لا تدع لهم حرية أو سلطة ما ثم تستبد فى استعمال تلك السلطة المسلوبة من الأمة • • مثل هذه الحكومة حكومة ظالمة غير شرعية يحل للأفراد أن لا يسلموا لها فى سلطتهم التى تحاربهم بها وان يستردها منها لتكون سلطتهم بيد مجموعهم •

((حقوق الشعب)) ص ٣٨ ط ١

— الحق والقوة توأمان أو كائنان متلازمان خلقا معا وعاشا معا فلم يفترقا فى خلال القرون الماضية لحظة واحدة ، وسيظلان متلازمين الى ما شاء الله •

((حقوق الشعب)) ص ١ ط ١

— فالناس منذ خلق الله العالم لم يحافظوا على حقوقهم

ولن يحافظوا عليها الا بمقدار ما لديهم من شدة وبأس وقوة •
وكذلك الأمم تتصارع وتتنازع في معترك الحياة العامة
ولا يسود في تنازعها الأبدى مبدأ أيده الحوادث قديما وحديثا
مثلا يسود بينها مبدأ القوة • فكم ديست للأمم حقوق لأن القوة
تنقصها • وكم انتهكت لها حرمانات لضعفها وقلة حولها •

((حقوق الشعب)) ص ١ ط ١

— ذهب أولئك الشهداء العظماء — في الثورة الفرنسية —
ضحية ظلم مواطنيهم • ولم يعرف الشعب خطاه الا بعد أن
أنفذ فيهم سهمه • فأدرك انه أساء الى من أحسنوا اليه وقابل
بالجحود جميل من وقفوا حياتهم على خدمته واعلاء كلمته فسمع
فيهم أقوال الوشاة والكذابين • وأخذهم بسعايات الدسائين
والمرجعين وهكذا :

يقضى على المرء في أيام محنته

حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

((الجمعيات الوطنية)) ص ٦٤ ط ١

— فان خير الحقائق وأبلغ العظات ما تنطق به حوادث
التاريخ • وجدير بنا ونحن أمة تجاهد في سبيل حريتنا
واستقلالنا أن تتبع خطوات الأمم التي سبقتنا الى تحقيق آمالها
الوطنية •

((الجمعيات الوطنية)) ص ب ط ١

— ان استبداد حكومة أهلية في بلاد يحتلها الأجنبي
بجنوده ويتغلغل فيها نفوذه هو اضعاف للحركة الوطنية التي
ترمى الى تحرير البلاد وفل لأسلحة الجهاد القومي وخدمة
للفوز الأجنبي في البلاد .

((رسائل وخطب ومقالات)) ج ١ ص ٣ ط ١

— أصبحت حركتنا المصرية في حكم التاريخ أنموذجا
صالحا لنهضة الشعوب التي تجاهد في سبيل حريتها جهادا
سلميا . ولا يجمال بنا بعد أن نالت بلادنا تلك المنزلة أن نقف
في منتصف الطريق ونقبل الهوادة في حقوقنا ونرضى بالنكوص
على الأعقاب والرجوع الى الوراء بل يجدر بنا كلما تضاعفت
العقبات وتعددت الصعاب أن نروض أنفسنا على مقاومتها
وتذليلها والمضى في سبيلنا لأننا عندما أخذنا على أنفسنا تبعة
الجهاد القومي لم نكن نعتقد أن نجد السبيل أمامنا مذلة والغاية
سهلة المنال بل وطننا النفس على استمرار الكفاح والنضال
والتدرع بالثبات والمثابرة .

((رسائل وخطب ومقالات)) ج ١ ص ١١٠ ط ١

— نحن لا نكره المعاهدات التي تصون حقوقنا ، ولكن
اذا كانت الظروف والمشاهدات تدلنا على ان هذه المعاهدة
المعرضة علينا مضيعة لتلك الحقوق فأولى بنا أن نترك باب

المسألة المصرية مفتوحا لو اضطررنا الى تأجيل البت فيها الى الجيل القادم • فهناك تبقى حقوق الوطن سليمة من العبث والضياع ولا نكون قد جنينا على ذلك الجيل أو قيدناه بقيود بسلاسل ينوء بها ويثن من ثقلها •

« رسائل وخطب ومقالات » ج ١ ص ٩٥ ط ١

— ان من حق كل دائرة اتخاوية أن تطلب من نائبيها أن يقدم لها حسابا عن أعماله فهأنذا أؤدى واجب الأمانة وأقدم حسابا عن أعمالي في دار النيابة •

« أعمالي في مجلس النواب » ص ب ط ١

— لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوى تاريخ الجهود التى بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها • تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات بجهاد الماضى ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظات لجهاد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للأبناء •

« تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر »

ج ١ ص ٧ ط ٣

— ولكن مهما بلغت سيئاتهم — أى الممالك — فإن القضاء

عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الانسانية ، ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهًا لوجه حتى تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته ولا يسوغ فعلته ان هذه الوسيلة كانت مألوفة في ذلك العصر . ومن جهة أخرى فان الفتك بالماليك على هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحه القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها ان استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس ، ولعل هذه الروح الجديدة قد جعلت محمد علي باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد من الشعب في خلال السبع والثلاثين سنة التي قضاها في الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد علي من الخير للبلاد في خلال حكمه فانه لم يعرض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التي هي من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية .

« عصر محمد علي » ص ١١٨ / ١٢٠ / ١٢١ ط ٣

١ - فالى عهد إسماعيل ترجع اذن مقدمات الثورة العراقية .
وهي تطور للحركة الوطنية التي ظهرت في ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى الى الاعجاب والتقدير

من الثورة العراقية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأي والمشورة ، على حين جاءت الثورة العراقية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى ، فى طورها الأخير ، وخفت صوت الحكمة والتعقل ، الى جانب صوت السيف والمدفع ، ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها ، والمطامع الاستعمارية تدير مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى مازلنا نعانيه الى اليوم (سنة ١٩٣٣) •

« عصر اسماعيل » ج ١ ص ٧ ط ١

— ان العراقيين والخليو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه ، وكلاهما يحتمل تبعته ومسئوليته ، ففى الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة •

« الثورة العراقية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

— على أن الذى يؤخذ على العراقيين فى مدة الحرب انهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير فى الأمة روح الاقدام والتضحية ، مما هو أخص واجبات زعماء الثورة فى ساعة الخطر ، كما انهم بعد وقوع الهزيمة ، وفى خلال محاكمتهم،

لم يقفوا الموقف اللائق بمن جعلوا أنفسهم قدوة للأمة ، بل استحبوا الحياة وآثروها على الواجب الوطنى ، فتضاءلت فى صفحة الثورة روح البطولة والتضحية ، تلك الروح التى هى غذاء الحركات القومية ، ومادة الحياة فيها ، وسبيل الأمم الى المجد والعظمة •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

— ان دراسة الثورة العرابية تقتضى أن نستجلى حسناتها واخطاءها ، ونوفىها ما لها وما عليها ، وبذلك نستطيع أن نتفهمها على حقيقتها ، وتؤدى الواجب نحوها •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

— فشخصية عرابى لم تساعد على انجاح الثورة ، بل كان بها من نواحي الضعف والنقص ما جعلها من أهم العوامل فى اخفاقها •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٥٢٠ ط ١

— شخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والاضداد ، حقا أن رأى فى شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح •• فلو أن الثورة قد انتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه ، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير فى تقدير الرجال والأشخاص •

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطئ الهبل

((الزعيم الثائر أحمد عرابي)) ص ٢١٦ ط ٣

— لم تقدر الأمة بعد « محمد فريد » حق قدره ، ولا عرفت له عظيم منزلته ، ولقد غمرت الحوادث تاريخه وفضله على الحركة الوطنية ، فمن الحق على الذين ساهموا في الجهاد تحت لوائه ، ان ينشروا للملا هذه الصفحة المجيدة من تاريخنا القومي ، صفحة محمد فريد وعصره .

((محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية)) ص ٣ ط ١

— عمت الثورة — ١٩١٩ — ارجاء البلاد ، دون أى تدبير أو تنظيم ، لم تكن ثمة هيئة أو جماعة تدعوا اليها أو توجهها ، بل شملت البلاد فجأة ، وعلى غير انتظار ، وكان ذلك من مظاهر جلالها وروعته ، وظهر فيها فضل الشعب ، اذ أدرك بفطرته السليمة أن الحركة الوطنية انما قامت ضد الاحتلال الأجنبي ، وكان مقصودا منها بداهة جلاء الاحتلال عن البلاد ، وان الاستقلال الصحيح لا يتحقق الا بالجلاء ، وعلى هذا الأساس قامت الثورة ، فبرنامج الثورة كان أوسع مدى من برنامج الوفد . . ولم تكن الثورة وليدة الوفد ، ولا وليدة سعد ، بل كلاهما وليد الثورة ، هذه حقيقة يقتضينا الانصاف

أن نذكرها ، تقريراً للواقع ، وإبرازاً لفضل الشعب في ثورة
سنة ١٩١٩ •

« ثورة سنة ١٩١٩ » ج ١ ص ٥ ط ١

— وكان أهم ما شغلنى انى تساءلت هل يؤمن المؤرخ أن
لا ينحرف عن جادة الانصاف والاعتدال اذا هو أرخ فترة عاصرها
وساهم في حوادثها ، وهلا يكون متأثراً الى حد ما بشعوره
الشخصى في هذه الحوادث ، وبعد أن فكرت في هذه الناحية ،
وجدت أنه ما دام الحق رائد الانسان ووجهته ، فلا يصح أن
يتأخر عن تأريخ الحوادث التى عاصرها ، ولا تصرفه عن هذه
المهمة خشية التأثير بشعوره الشخصى ، فان هذا الشعور
قد يكون أدعى لتحرية الصدق والحق ، لكى يطمئن ضميره
الى أن شعوره لم يكن له دخل فى عرض الحوادث وإيرادها
وتفسيرها بعيداً عن التحيز أو التحامل ، ومن ثم اعتزمت ان
أؤرخ هذه الفترة ، وأخذت نفسى بأن التزم الصدق والانصاف
فى تدوينها وشرحها وتفسيرها ، ما استطعت الى ذلك سبيلاً •

« فى اعقاب الثورة المصرية » ج ١ ص ٣ ط ١

— وفكرت ثم قدرت ، وانتهى بى البحث الى أنه لا يجوز
لمن يتصدى لكتابة التاريخ أن يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب،
وكل ما يملك اذا أراد أن يجامل أن يدع الفترة المخرجة ، ويرجىء
تأريخها حتى حين ، ولكن الى أى أجل يرجئها ؟ ولماذا يرجئها ؟

وإذا كان في مقدوره أن يؤرخها كما أرخ المراحل التي سبقتها ،
ففيما إذن يتنحى عن تأريخها ؟ لقد فكرت في هذا الأمر مليا ،
ولم أكنم عن نفسي دقة الموقف وما يلابسه من حرج ، وانتهيت
الى أنه ليس من حقى أن أقف بالكتابة في تاريخنا القومى عند
حد قديم أو حديث ، وما دمت قد حملت نفسى مهمة وضع هذا
التأريخ ، فعلى أن أؤدى الرسالة كاملة ، قدر ما وسعنى
الجهد .

((فى أعقاب الثورة المصرية)) ج ١ ص ٤ ط ١

— وهنا أرى واجبا على أن أوجه النصح الى الشباب
المثقف أن لا يتورطوا فى اعتناق الأفكار والنظريات الشيوعية
الهدامة تحت تأثير الوهم بأنها السبيل الى النهوض بالبلاد
اقتصاديا واجتماعيا ، فان هذه النظريات انما ينشرها دعاة
مغرضون يرمون الى هدم النظم الاقتصادية والاجتماعية كافة ،
واثارة الحرب بين طبقات المجتمع ، وليس هذا الهدم هو السبيل
الى زيادة ثروة البلاد الاقتصادية ، ولا الى تحقيق العدالة
الاجتماعية ، فان ثروة البلاد الحالية اذا هى وزعت بالتساوى
على جميع السكان ، كما ترمى الى ذلك النظريات الهدامة ،
لما خص كل مواطن شىء يذكر ، ولبقيت مشكلة الفقر مضروبة
على البلاد . والعلاج الناجع لهذه المشكلة هو أولا فى زيادة
موارد الثروة العامة للبلاد ، لأن هذه الزيادة تعود حتما بالنفع

على جميع المواطنين مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، ويجب الى جانب ذلك تنظيم هذه الموارد وتطبيق النظم التى تقلل الفوارق بقدر المستطاع بين الطبقات ، وتفرض على الأغنياء الالتزامات التى تقتضيها العدالة الاجتماعية .

فالنظريات الشيوعية تسيء الى حياة البلاد القومية ، وخاصة لأن لها طابعا خطرا ، اذ تقوم عليها هيئات تتسم بالدولية . وتعمل على اضعاف روح الوطنية فى نفوس الشعوب، واحلال النزعات الدولية محلها ، بحجة أن التعصب للوطنية Chauvinisme هو من أسباب انتشار الحروب ، وبالتالي من عوائق استتباب السلام فى العالم ، وهى دعوى باطلة ، يدخلها الشئ الكثير من التضليل والمغالطة ، ويراد منها تفكيك الروابط الوطنية بين أبناء الأمة الواحدة ، وبالتالي اضعاف روح المناعة فيها تمهيدا للسيطرة الأجنبية عليها .

ان التعصب للوطنية الذى كان فى بعض المواطن من أسباب الحروب ، هو المرادف لسياسة الطغيان والفتح والتوسع ، تلك السياسة التى انفردت بها الدول الاستعمارية ، أما نحن الضعفاء ، الفقراء فى الوطنية — لأننا لا نزال مع الأسف نشكو انخفاض مستوى الوطنية فى نفوسنا — فمن الخطر على كياننا وعلى نهضتنا أن نغلب عليها الدولية واذا نحن قوضنا عوامل الوطنية فى نفوسنا ، فماذا يبقى لنا من عدة تناضل بها عن كياننا

في هذا الخضم من المعترك العالمى الذى لا تسود فيه الا القوة،
ولا يحترم فيه للضعيف حق ولا كيان •

ومن عجب أن تصدر الدعوة الى طرح العقائد الوطنية
عن بلاد (روسيا) عرفت في تاريخها القديم والحديث بنزعة
التوسع في الفتح والسلطان ، والدأب على السيطرة على الدول
المجاورة وغير المجاورة ، وهى لا تقل في الطغيان والعدوان عن
أعرق الدول في التوسع والاستعمار ، ولا تختلف روسيا
الشيوعية عن روسيا القيصرية في هذه الناحية ، ولكن دعائها
يرجون مبادئهم الهدامة تحت ستار براق ، يستهوون به البسطاء،
لكى تتحلل عقائدهم الوطنية ، فيجد أولئك الدعاة منفذا
الى التسلط على بلادهم •

فهذه الدعاية اذا تسربت الى صفوفنا ، كان فيها القضاء
على الروح الوطنية التى نحن أحوج ما نكون اليها ، هذا الى
انها ترمى الى القضاء على الملكيات الزراعية المتوسطة والصغيرة ،
فضلا على الكبيرة • لأن الشيوعية ترى في صغار الملاك
الزراعيين طبقة من الرأسماليين تجب محاربتهم وتجريدتهم من
أموالهم • وهو أساس يناقض على خط مستقيم الأساس
السليم الذى يجب أن نسعى اليه وهو الاكثار من الملكيات
الصغيرة والمتوسطة لكى يرتفع المستوى الاجتماعى فى بلادنا •

فليحذر الشباب المثقف هذه الدعايات الضارة بنا وطنيا واجتماعيا ، الهادمة لاقدس شعور في الانسان ، وليحرصوا على روح الوطنية ، وليعملوا على اذكائها وارساخها في نفوسهم ونفوس مواطنيهم ، ولا يكونوا عمال هدم لهذه الروح العظيمة التي هي الأساس الوطني لنهضة البلاد ، وهي الحصن الأول والأخير لكيانها وحياتها ، ولا يعملوا بقصد أو بغير قصد على تحويل الجهاد القومي ، من جهاد في سبيل الوطن والمجموع ، الى نضال بين الطبقات ، فان هذا النضال يضعف ولا ريب جبهة مصر في جهادها القومي العام .

((في اعقاب الثورة المصرية)) ج ٢ ص ٢٧٨ ط ١

— يجب على الشباب أن ينتظموا جماعات تعمل على الرقي الاجتماعي ويؤسسوا هذه المنظمات ان لم تكن موجودة .
وعلى الشيوخ أن يرعوا هذه المنظمات ويمدوها بالعون والمساعدة ، لقد رعى المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا جهود الشباب في مشروع القرش ، فكان لرأسته للجنة هذا المشروع فضل كبير في حسن توجيهها وما نالته من مكانة في المجتمع ، وكذلك يجب أن يفعل الشيوخ بالنسبة لمنظمات الشباب .

على هذه المنظمات واجب كبير وهو أن يساهموا قدر ما يستطيعون في اصلاح حالة المجتمع من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية والصحية والرياضية .

ولعل في وجود هذه المنظمات ما يصون اخلاق الجيل الجديد من التبذل ويجنبه الخروج على أوضاع الفضيلة والآداب ، انى أرى ظواهر وبوادر يؤسف لها تدل على هذا الخروج ، وتبدو هذه الظواهر في تفكير بعض الشباب ومسلكتهم وآدابهم في المجتمعات ، وفي حياتهم الخاصة والعامة . فلو وجدت هذه المنظمات فقد تكون وسيلة لرد هؤلاء الشباب الى الأخلاق القويمة ، وهى أيضا وسيلة تصرفهم عن النظريات الهدامة الشيوعية التى تهدف الى تفويض دعائم القومية والأخلاق فى نفوس المواطنين .

ان جهود الشباب فى المنظمات الاجتماعية والاقتصادية هى بلا مرأى أجدى على البلاد من المنظمات والأعمال الارهابية التى اجتذبت فى فترات متقطعة بعض الشباب وغرست فيهم نزعة الأجرام والاعتقال ، تلك النزعة التى تتملك النفوس الضعيفة الخالية من العلم والأخلاق والإيمان والوطنية .

على كل شاب أن يساهم فى بيئته أو قريته فى الحركة التعاونية ، وفى مكافحة الامراض والوقاية منها فى محاربة الأمية ، ونشر التعليم والثقافة . وعلى الشباب أن يتعمقوا فى الدرس والبحث والاستقصاء ، اذا تكونت فئة من الشباب المزودين بالعلم والأخلاق وتوافروا على المساهمة فى النهضة الاجتماعية

وجدت منهم البلاد مواطنين صادقين مخلصين وجندا مجاهدين
في سبيل تقدم المجتمع وتحريره مما ينتابه من العلل والآفات •

« في أعقاب الثورة المصرية » ج ٢ ص ٣٦٩ ط ١

— والحركة القومية كما قصدها وعنيها في كتيبي
السابقة هي الجهود التي بذلها الشعب المصري بمختلف طبقاته
في سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة والزود عن كيانها والدفاع
عن استقلالها والثورة على كل من يتعدى على هذا الاستقلال،
ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة •

« مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي حتى الغزو
العثماني » ص ١١ ط ١

— انا أحوج الأمم الى تعزيز جيشنا ، لانا في الواقع
تأخرنا كثيرا عن الأمم الأخرى في تكوين الجيش نحو خمسين
سنة • ولا أقول انا مسئولون عن هذا الاهمال الذي امتد
خمسین سنة • بل أقول انا منعنا من تعزيز الجيش طوال هذه
السنين • فاذا كنا منعنا عن أن نكون جيشنا • فيجب أن نعوض
هذا التأخير بأن نعزز الجيش بكل ما استطعنا من حول وقوة
ومال •

فاذا ما طلب منا اقرار اعتمادات اضافية ، فمن العدل أن
ينفرد بتحملها طبقة الأغنياء ، متوسط اليسار • فالطبقات

الغنية والمتوسطة اليسار هي التي يجب أن تتحمل هذه الاعتمادات
الاضافية ، ويكفى ما تتحمله الطبقات الفقيرة من أعباء .

((أربعة عشر عاما في البرلمان)) ص ١٥١ ط ١

— ان من يهوى التاريخ لا تفارقه هذه الهواية ، بل
تلازمه على تعاقب السنين .

((أربعة عشر عاما في البرلمان)) ص ٣ ط ١

— والرأى عندى أن مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢
ترجع الى سيرة الملك السابق فاروق فى الحكم ، فان حكمه كان
هو التمهيد للثورة ، أما أسباب الثورة وبواعثها فترجع الى
أبعد من ذلك وأعمق ، اذ هى تمتد الى بدء الاحتلال البريطانى
لمصر سنة ١٨٨٢ ، لأن ثورة ٢٣ يوليو هى قبل كل شىء ثورة
على الاحتلال والاستعمار .

((مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢)) ص ٣ ط ١

— ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة
الحسينية العلوية ، فكأن روح الامام على تمثلت فيه ، وتجلى
أثرها فيما يكتبه أو يمليه .

((جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق)) ص ٤٩ ط ١

— تضاءلت الروح الوطنية فى النفوس ، وصار عدم
الاكتراث للوطنية شعار هذا الجيل ، والجيل الذى تلاه ،

وأصبح سبيل النجاح سواء في مناصب الحكم أو في الحياة الاجتماعية عامة ، وهو الولاء للاحتلال الأجنبي ، والزراية بالمبادئ الوطنية ، وقلة الاخلاص للبلاد ، ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها ، حتى عدوها كأنها حالة عادية ، وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون ، وهكذا يمسح الحكم الأجنبي نفسية الأمة ويفقدها روح القومية والكرامة ، وينشئ نفوسا مريضة ، يروضها على التفريط في حقوق الوطن ، وتضحية مصالحه ، في سبيل التهافت على موائد المناصب .

((مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال)) ص ١٧٥ ط ٢

— . فتاقت نفسى عندما تخرجت من مدرسة الحقوق وانتظمت في سلك الحياة العملية أن أنشد المثالية في حياتى الشخصية والعائلية والاجتماعية ، وان أنشدتها في الحياة السياسية أيضا ، ولم أكن أخفى على نفسى أن الحياة المثالية ليست من اليسر ولا من السهولة بحيث تغرى شابا مثلى في مستقبل العمر أن يسلك سبيلها ، ولكن هكذا شاءت الأقدار أن أنشدتها لنفسى ، ولست أدري مبلغ ما حققت منها ، وإلى أى مدى كنت مثاليا أو غير مثالى ، وهل الحياة المثالية ممكنة أم لا ، نافعة أم ضارة ، وهل هى — بوجه خاص — ممكنة في الحياة السياسية أم لا ، وهل أخطأت أم أصبت في نشداني لها ؟

كل هذه أمور لست أستطيع بعد طول السنين أن أجيب

عنها ، وما فائدة البحث فيها الآن ؟ لكن الذى يمكننى الافضاء به انى اجتهدت أن آخذ من الحياة المثالية أقصى ما أستطيع ، ويمكننى أن أقول أن نصيب الانسان منها يتبع مبدئيا الوسط والبيئة التى يعيش فيها .. على أن الارادة الشخصية لها دخل فى توجيه المواطن اليها ، وهى على أى حال تحتاج الى ذخيرة من الصبر ، ومن الصوفية الوطنية ، تجعل المرء غير مكترث لما يلقاه من العقبات والمتاعب .. كل هذا لم يصرفنى عن التمسك برأىي ، وقد يكون تمسكى بهذا الرأى أمرا غير ارادى ، ولكن هكذا اتجهت نفسى هذه الوجهة ، ولقد كان لها أثرها فى مختلف مراحل حياتى •

« مذكراتى » ص ١٩ ط ١

— ان فى قيثاره الشعر سلوى للقلب ، وغذاء للروح ، وانها لتوحى الى النفوس أسمى معانى الانسانية ، وما أجمل هذه القيثاره حينما تغرد للناس ألحان الوطنية •

« شعراء الوطنية » ص ١ ط ١

— أمامنا مشكلة خطيرة يجب أن نجد لها حلا وهى مشكلة زيادة عدد السكان ، فان مصر من أكثر البلاد ازدحاما بالسكان بل ان الاحصاءات الأخيرة تدل على انها تفوق كل البلاد فى هذا الازدحام •

« اربعة عشر عاما فى البرلمان » ص ١٤٦ ط ١

(جلسة ٢٦ مارس سنة ١٩٤٠)

— ولكن أليس لى — بعد أن ترجمت لمئات من الشخصيات
فى تلك الحقبة من الزمن التى أرختها والتى تزيد على مائة وخمسين
عاما من تأريخ مصر الحديث — ان أترجم لنفسى ؟

حقا ان من أشق الأمور على الانسان أن يترجم لنفسه ،
فقد يحمل هذا على محمل المباهاة والأناية ، ولكنى ما قصدت
إلى شيء من هذا قط ، وإنما أقصد إلى أن مثل هذه
المذكرات فيها من الحقائق والخواطر ما لا تتسع له كتب التاريخ،
وهى مع ذلك قد تفيد لمن يريد أن يتفهم العصر الذى عشت فيه
وشاهدت حوادثه وحقائقه ، ثم انى أرى أن نشرها قد يكون
مساهمة منى فى تكوين المواطن الصالح ، ربما أكون مصيبا فى
هذا الظن أو مخطئا ، ولكن هذا هو الغرض الذى أنشده •

« مذكراتى » ص ٣ ط ١

الفهرس

الصفحة

| | | | | | | | | | |
|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|-----|---------------------------|
| ٣ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | سيرة وحياة ... |
| ٦٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ٦٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | كتابات الصحفيّة الأولى |
| ٩٤ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ٩٦ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | اهتماماته الفكرية الأولى |
| ١١٧ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ١١٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | اهتماماته الوطنية |
| ١٥٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ١٦١ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | تعاونيا |
| ١٧٣ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ١٧٥ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | زعيمًا للمعارضة |
| ١٩٨ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ٢٠٠ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | يكتب عن الشعر والشعراء |
| ٢٤٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | المراجع ... |
| ٢٥١ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | مؤلفاته |
| ٣٠٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | في مرآة معاصريه |
| ٣٢٩ | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | ... | كلمات لعبد الرحمن الرافعي |

رقم الايداع ٨٧/٢٣٥٠
الترقيم الدولى ٨ - ١٢٨٢ - ٠١ - ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

